١٣ كاتباً وكاتبة
يروون سيرتهم
في عاصمة
الفرنسيين

إشراف
فيصل جلول

باريس كما يراها العرب

إشراف
فيصل جلول

باريس كما يراها العرب

١٣ كاتباً وكاتبة يروون سيرتهم في عاصمة الفرنسيين

الكتاب: **باريس كما يراها العرب**
إشراف: **فيصل جلول**
الغلاف: **ناجي المير**

التصميم الغرافيكي والإشراف الفني:
آتيلييه ناجي المير - باريس
بمساعدة **مانون فيرديبه**

الناشر: **دار الفارابي - بيروت - لبنان**
ت. 461 301 1(0) 961+
ف. 775 307 1(0) 961+
ص.ب: 11/3181
الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2016
ISBN: 978-614-432-518-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

الكتاب المشاركون

المنصف المرزوقي

إيمان الحمود

جمال الغيطاني

سامي كليب

طراد حمادة

عمار مرياش

فيصل جلول

قيس خزعل جواد العزاوي

لويزة ناظور

مارال أمين قطينة

محمد حافظ يعقوب

نايلة ناصر

هيثم مناع

على سبيل التقديم

خطر لي قبل خمس سنوات في جلسة السبت المسائية التي تعودنا أصدقائي وأنا أن نعقدها حول طاولة «البلياردو» في حي مونبارناس أن نضع كتاباً مشتركاً عن باريس نروي فيه سيرنا وتجاربنا مع المدينة وعنها. تنبهت إلى الفكرة بعد قراءة كتاب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» للمرة الثانية. وسألت الأصدقاء وهم من الكتّاب والصحافيين والباحثين عن إمكانية السير على خطاه وبالتالي تقديم حصيلة لعلاقة العرب بفرنسا تغطي الفترة الماضية على أن يتولى كل منا تغطية جانب ومن ثم نواكب سير العمل على هذا المشروع على هامش هوايتنا الأسبوعية واقترحت أن ندعو آخرين للاشتراك في هذا الجهد.

لم يصادف الاقتراح ترحيباً حاراً فكان علي أن أعيد صوغه بطريقة مختلفة فقلت إن بوسع كل منا أن يكتب نصاً بشروط مفتوحة وبالمنهجية التي يريد فتأتي النصوص التي حصرناها بعشرة في البداية وكأنها نص واحد عن مدينة بعشرة أصوات وكان شرط المشاركة الوحيد هو أن يكون الكاتب قد عاش أو هو يعيش في عاصمة الفرنسيين. وحتى تكون المساهمات منضبطة بإطار واحد وزعت على المشتركين ملخصاً لفكرة الكتاب الأساسية أعيد نقلها حرفياً. «يتمحور مشروع الكتاب حول شهادات عربية لمثقفين وإعلاميين عرب يعيشون في باريس من مختلف الأعمار والقطاعات ويحتفظون بتجارب عديدة جديرة بأن تنشر وتعمم كشهادات متصلة بالقسم الأخير من الألفية الثانية والقسم الأول من الألفية الثالثة. ويمكن لهذه الشهادات أن تندرج في سياق عربي متقطع ساهم فيه رفاعة الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده وطه حسين وتوفيق الحكيم وآخرون». ليست هجرة العرب إلى باريس في حالتنا هجرة نهضوية كما كانت هجرة المذكورين أعلاه وربما تكون تنويرية بنظر البعض الثاني وربما ظرفية بحتة أو مجردة من كل ادعاء. باختصار يمكن لكل نص من النصوص المقترحة

أن يروي المعيش في باريس بعين صاحبها ومن حصيلة هذا التنوع يمكن أن نقف على وجوه المدينة المختلفة. بدا الاقتراح في صيغته المفتوحة أكثر جاذبية وسرنا على رسمه.

بعد شهور قليلة تلقيت خمسة نصوص وفشلت محاولات عديدة في استدراج مشاركات من المغرب الأقصى أو ليبيا واليمن فكان علينا أن نبذل جهداً في هذا الاتجاه الذي انقطع تحت ضغط ما عرف بـ«الربيع العربي» وهو لم يتم فصولاً بعد.

كان عليّ خلال السنوات الماضية أن أطلب من أصدقائي التصرف في نصوصهم مادام الكتاب متعثراً بيد أنهم أصروا على متابعته وبعضهم بذل جهداً في الاتصال بكتّاب آخرين للمساهمة في إصدار الكتاب وكان أن تمكنا من إنجاز 75 بالمئة من النصوص وانسحاب إحدى الصديقات التي لم تتحمل الانتظار في حين كان أحد الأصدقاء قد نشر نصه الأول وعاد ليكتب نصاً جديداً بعد أن علم باستئناف المشروع أواخر العام الماضي. وكان أيضاً أن انضمت إلينا إعلامية من المملكة العربية السعودية تقيم في باريس فضلاً عن المساهمات اللبنانية والسورية والعراقية والفلسطينية والجزائرية والتونسية والمصرية بطبيعة الحال.

فاجعة مؤلمة طرأت في المراحل الأخيرة من إعداد هذا الكتاب وتمثلت بغياب الصديق الرائع جمال الغيطاني. كان قد ارسل لي نصه «قناعي في متحف اللوفر» قبل اشهر من غيابه مؤكداً، خلال زيارته لباريس أوائل الصيف الماضي، انه سيكون معنا في بيروت لتوقيع الكتاب بعد صدوره. فكان للقدر كلمته القاهرة. تحية لجمال وعزاؤنا انه باقٍ معنا ما بقينا ليس فقط من خلال مساهمته في هذا الكتاب، بل في مجمل أعماله المعرفية والابداعية.

يضم الكتاب 13 نصاً تتوزع على الجنسين ورسماً يحاكي النص بتصميم حروفي وتخطيط مستقل لكل مشارك وذلك وفق تصور يعطي

النص بعداً جمالياً خاصاً. وتتوزع النصوص على كتّاب محترفين ومثقفين معروفين وآخرين أقل باعاً في هذا المجال فيكون باباً للتعريف بتجربتهم الأولى. ومن الطبيعي أن تختلف النصوص باختلاف التجارب والاحتراف والرؤى والتكوين المعرفي.

ومن حسن الطالع أن أحد النصوص ينطوي على عرض لكل الكتب الصادرة بالعربية عن باريس منذ رفاعة الطهطاوي وحتى يومنا هذا بما في ذلك الرحلات والروايات والشهادات والقصائد الشعرية فيكون هذا النص المطول إضافة على حدة لكتاب يحمل عنوان «باريس كما يراها العرب» أي إنه يتيح للمهتم بهذا الموضوع مرجعاً متعدد الفوائد.

وبعد هل يمكن اعتبار الكتاب مساهمة تاريخية في تغطية الفترة الفاصلة بين صدوره وبين «تخليص الإبريز»؟ بالتأكيد لا. فهو لا يدعي التصدي لهذه المهمة كما أشرت من قبل لكنه ينطوي على شهادات وتجارب في المدينة محكومة بدوافع وتكوين أصحابها وإن كان الجامع بين بعضها هو الهم الحقوقي ومكافحة الاستبداد والتمثل بالتحديث... في حين ينزع بعض آخر إلى التعبير عن الدهشة المعرفية والاندماج الحر ويطرح البعض الثالث أسئلة ملتبسة والبعض الرابع يرى المدينة بعين تاريخية بوصفها من سادة العصر ويستحق العيش فيها «قداساً» على ما يشير تعليق منسوب إلى هنري الرابع ملك فرنسا ونافار.

أن يعيش عربي في مدينة تعتبر من رائدات العصر ومن صناع تاريخه الحديث يشبه تماماً العيش في قرطبة يوم كانت عاصمة أوروبا المعرفية ويوم كان حاكمها يطلب من ابن رشد تلخيصاً لأطروحات أرسطو، وكالعيش في بغداد يوم كانت شوارعها التجارية في القرن العاشر أشبه بوول ستريت ولومبارد ستريت اليوم. أو دمشق الأموية التي كانت خلية حيوية لنقل المعارف من اللغات الأجنبية إلى العربية أو غرناطة القرن الحادي والثاني عشر التي كانت مركزاً للتأهيل العلمي لأمراء أوروبا ونخبها...

أن يعيش عربي في باريس في هذا العصر يعني أن يكون شاهداً على معارفه وعلى واحدة من سلطات القرار فيه وعلى قيمه المختلفة وعلى هرميته وآليات استتباعه لشطر واسع من العالم.

لا يدعي هذا الكتاب فك شيفرة المدينة ولا وصف كل عوالمها ولا تقييم كل أدوارها وتاريخها هو فقط يروي بأصوات مختلفة علاقتها بالعرب أو بقسم وافر منهم فإن ثبتت الرؤية يكون قد أدى غرضه.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أنني لم أتدخل في أي من النصوص إلا لتصحيح بعض الأخطاء النحوية وحذف فقرات في نص آخر بدا لي أنها تثقل على النص بدلا من تسهيل الاطلاع عليه وتدخلت في تغيير بعض العناوين وهو حق مهني بديهي ما يعني أن النصوص المنشورة تعبر تماماً عن وجهة نظر أصحابها ولا يلزم أي منها الآخر وهي مستقلة تماماً تلتقي بين دفتي هذا الكتاب كروافد آمل أن يشكل حاصل اجتماعها رؤية متنوعة لعاصمة الفرنسيين.

قبل إقفال هذا الباب لا بد من توجيه الشكر إلى «دار الفارابي» التي تحمست لهذا المشروع منذ أن طرحت فكرته على الأستاذين جوزف أبو عقل وعلي بحسون العام الماضي.

فيصل جلول

باريس في 28 أيلول / سبتمبر عام 2015

حرية

أن تكون إنساناً يعني أنك أصبحت مسؤولاً
أن تخجل من أفعال لم تشارك فيها
أن تفخر بانتصارات الرفاق
أن تشعر وأنت تضع حصاتك
بأنك تساهم في بناء العالم
— أنطوان دو سان اكزوبيري —

بداية الشفاء مع زهـــرة الحريـــــــة

المنصف المرزوقي

أول رئيس للجمهورية التونسية انتخب ديمقراطياً وتخلى عن الحكم ديمقراطياً وهنأ خليفته بفوزه في الاقتراع الشعبي العام والمباشر بعد خسارته للانتخابات وهو مفكر وسياسي تونسي وطبيب أعصاب ومعارض سابق عاش في باريس خلال شطر مهم من ولاية الرئيس السابق زين العابدين بن علي. رئيس سابق للرابطة التونسية لحقوق الإنسان أسس في باريس مع هيثم مناع وآخرين اللجنة العربية لحقوق الإنسان كما أسس عام 2011 في تونس حزب المؤتمر من أجل الجمهورية. ساهم في هذا الكتاب بهذا النص قبل أن يتولى رئاسة الجمهورية.

22 ديسمبر 2001. يصل بي الطريق إلى المدينة الساحرة ليلاً وهـــي تتأهب تحت الثلج لاحتفالات عيد الميلاد. قلائل هي المدن التي تعطيـــك من أول نظرة صورة مصغّرة عن العالم وهذه واحدة منها لأنها تقاطع كبير ينطلق منه ويصب فيه ألف طريق وطريق. تشـــدّني وجوه الســـياح والمتسولين والباعة الجوالين والهاربين أمثالي من القمع والفقر. ثمة أيضاً الذين سافروا في «البزنس كلاس» جاءوا لاستعراض ثرواتهم المشـــتبه فيها. على الرصيف المكتظّ مقاهٍ ومطاعم يتزاحم عليهـــا فقراء جاءوا يفتعلون الثراء وبعض الأثرياء جاءوا ليبهروا الخدم بمكرماتهم الخيالية. تبهرني مظاهر الزينة وخصوصاً الأضواء الزرقاء التي رصعت بها أغصان الأشـــجار على طول الشارع المهيب. فجأة ألتفت خلفـــي مدفوعاً بقوة قاهرة ثم أهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجت أو قل طردت هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ ســـنوات ولا مخبر يتنفس في عنقي ألصق بي من ظلي. أدير الظهر عمداً لقوس النصر الذي يتوســـط الشارع المهيب كرهاً قديماً لما ينضح بـــه من كبرياء أحد كبار المجرمين وأمجاده المزعومة التي دفع ثمنها دماً ودموعاً ملايين المســـاكين. لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رفع هذا القوس لكن من يعرف اســـم الضحية التي ترقد تحته. الجندي المجهـــول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه وحبيبة انتظرت رجوعه عبثاً. ترى ما اســـم الرجل، ما الذي فعله قبل أن يدفعوه إلى المجزرة؟ كـــم كان له من العمر يوم قتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟ أي كاتب عبقري ســـيكتب له القصة التي كان يحلم أن تكون حياته؟ كل ما يعرف عنـــه أنه كان جثة متعفنة أخرجت من أرض عرفت أكثر حروب الآدميين وحشـــية وغباوة، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشـــلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة والجائزة أن يمثّل كل الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ التاريخ لهم مأثرة أو اســـماً. يا لها من جائزة حازها من لا علم له بالشـــرف الأثيل. أي قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأمّ المولود الجديد ســـيعيش نكرة وسيموت أبشع موتة لكنه سيصبح من

المشـــاهير حتى ولو أنه سيتواصل نكرة. يتمرّد شيء بداخلي. نعم أنا من ســـيكتب القصة التي كان يجب أن تكون حياته. اسمه إذن ميشال وكان من مقاطعة النورماندي من قرية ســـانت أوبان تحديداً وعاشقاً للصيد في أعماق المحيط وكان مغرماً بكريســـتين بنت بائعة السمك. عند اندلاع أبشـــع الحروب تزوجا خلسة ليتمتعا بليلة حب يتيمة ولما أطلق عليه الجندي الألماني رصاصة ارتطمت بالعلبة التي أهدتها إليه كريســـتين وفيها بعض من شـــعرها الأشقر التي كانت لا تفارق جيب صدريته. ثم عاد وليس به إلا بعض الجروح الخفيفة ليجدها حبلى بكريســـتان فنســـي سريعاً هموم الحرب وعاد إلى عواصف المحيط إلى أن انطفأ عن عمر ناهز التســـعين وهو يستمع لزمجرة الموج وصخب الأحفاد. المشـــكلة أن هناك جثة ولا بد أن تكون لأحد... آه اسمه دومينيك وهو مـــن مقاطعة اللوران من قرية كوتزنبريك وكان حطاباً لا يملّ جمال غابات جبال الفوج. ولما دعي للحرب فضّل التوغل فيها قائلاً ليســـت حربـــي ولا عدوّ لي فليذهبوا كلهم إلى الجحيم. طيب، أنقذت حياة ميشـــال ودومينيك لكن حتى لو أنقذتهم كلهم ستبقى هناك هذه الجثة تصـــرخ بأنني لا أزيد إلا من الظلم الذي تئن منه كل خلاياها وأنا أنقذ الواحد بعد الآخر إلا هو. من الأفضل عدم المتابعة. من يســـتطيع أخذ ثأره فما بالك ثأر الآخرين من بعبع اسمه الدهر؟

ثمن الحرية

يصل بي الطريق إلى نهاية الشـــارع الذي يقال إنه أجمل شارع لأجمل مدينة لأجد نفســـي وسط ساحة مترامية الأطراف كانت ولا تزال هي الأخرى شـــاهدة على كمّ هائل من القصص. تهاجمني صور الماضي فإذا بي أحاذر المشـــي أنظر بانتباه إلى أرض لزجة بالدماء. إنه الثمن الرهيب الذي دفعتـــه هذه المدينة لكي تصبح الحرية حقاً يفتكّه المواطنون لا منّة يمنعهـــا ويمنحها متكبرون أغبياء. ثمة من

حســـبوا بالضبط كم من رأس سقط في هذه الساحة وتوصلوا إلى الرقم 1119. ترى ما رقم الملـــك الذي طلع مثلهم إلى مقصلة بقيت ســـنين طويلة أهم معالم المكان. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكاً، وماذا دهـــاه ليولد ملكاً في غير الزمان الذي يجب! حقاً لا هو ولا ميشـــال ولا أي واحد منا يعرف اختيار أحسن مكان وأحسن زمان لتشريف هذا العالم بوجودنا.

مرّة أخرى ألتفت خلفـــي مدفوعاً بعادة تأصلت على مرّ الســـنين والمخبرون ورائي في كل خطوة يحصون أنفاسي. لكن هذه مدينة روّضت شياطينها وبســـطت عليّ حمايتها فيسعني إذن أن أمشي فيها بأمان.

يشـــدني للحظة منظر البرج الحديدي الذي أصبح رمزاً للمدينة وهو يتعالى عن يســـاري إلى عنان السماء. يرفع الحيوان طرفه الخلفي يبول على الشـــجرة ليترك أثر مروره وليعلم من يهمه الأمر أنه موجود. الطموح نفســـه عند الآدميين، لكنهم لا يبولون على الأشـــجار إنما يرفعون مثل هذا البرج لكي لا تنسى الذاكرة اســـم إيفل، وفي تجمعات أخرى للآدميين اسم امحوتب، وايكتينوس، وكاليتراتاس، وشـــاراس، وسوستراط، وأنطينوس، وإيزيدور، وأستاذ أحمد، وغوان-آن، وسنان، ودافنشـــي، ورضا الأصفهاني، وكريستوفر رن، وكم من آخرين ملأوا البســـيطة بروائعهم. حقاً كم ظلم التاريخ وهو ينسى أســـماء من صنعوا أهم معالم مدن أريتاس الرابع وسوريفارمان الثاني وباتشـــا كوتي، وباكال وابنه شانج بالوم (مع التحفظ عن استعمال ســـطوح المباني)، ناهيك بمن خطّطوا لمعابد أوروك، للســـور العظيم، لجدار هادريان، للزمبابوي الكبير، لقلعة حلب، للحمراء، للزيتونـــة، للأزهر أو لصومعة الكتبيّة.

إنه إصرارنا جميعاً علـــى أن تنجو قصصنا من مخالب النسيان، لكن جل ســـكان هذه المدينة لم يتركوا ولا حتى رفاتهم كالجندي المجهول. عاشـــوا، تألموا ومرّوا مثلنا على الطريق الأزلي نفســـه الرابط بين نقطة الإحرام ونقطة المغادرة، لكن لا أثر لما قالوا وما فعلوا. ذهبت جلّ القصص مع الريح. أتوغّل في الشـــارع الجديد تاركاً عن يســـاري حديقة مغلقة كم كنت أودّ دخولها هي وكل حدائق العالم ولـــو تحت جنح الظلام. آه حدائق الآدميين! هل ثمة أماكن تمســـح آثامهم غيرها... كيوطو، الحمراء، فيلاندري، شـــومون ومراكش... عوالم مصغّرة تحت السيطرة أفرغت منها النواجذ والأنياب وقطّاع الطريق ولا حـــدود فيها للتجريب على الأشـــكال والألوان... أماكن لا تخفي طموحها أن تكون صورة الجنة على وجه الأرض وحتى الجنة نفســـها... عوالم لا شكّ في وجود إلهها ولا في هويته.

زمن المقصلة

نعم من حســـن الحظّ أن هناك أماكن وأوقات لا عيب فيها أن تكون آدمياً. انتباه لاختلاجـــة امتعاض هنا وعلامات نفاد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بســـرعة لا مكان لمن يسدّ الطريق في مدينة عمرها أكثر من ألفي ســـنة وهي دوماً الغادة الرشيقة التي تتوقف لحظة عن الركض في كل اتجاه. ليســـرعوا إلى حيث يريدون لست مهتماً بهم وكل انشـــغالي منصبّ على أشباح ليسوا في عجلة من أمرهم هم أيضاً. وداخل ذاكـــرة الخيال أو خيال الذاكرة يتحرك طابور طويل من العربات المجرورة بالخيل والثيران تحمل نســـاء ورجالاً حلقت رؤوســـهم وأيديهم مقيدة إلى الخلف صامتون ذاهلون أعينهم مشرئبة إلى الأمام. آه، إنها شـــحنة اليوم للمقصلة الرهيبة التي أدرت لها ظهري هي وقوس النصر أريد نســـيانهما معاً. زمن

كان من الأحســـن أن تكون فيه حصاناً أو ثوراً ممن يجرون عربات الموت هذه. ترى ما الذي يعتمل داخل رؤوس على وشـــك السقوط جاحظـــة العينين في قفّة معدة خصوصـــاً لتلقفها وقد قطعت بضربة شـــفرة نازلة كالصاعقة من الأعالي؟ هل تكون هذه المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدراً لا يحتمل من الألـــم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد؟ يا للتهمة المشـــينة الظالمة! المســـكينة! ما الذي دهاهـــا لتولد ملكة ولتولد في غير الزمان الذي كان ســـيجعل منها أم الشعب والقديســـة التي تتبرك بها العذارى والعجائز؟

يخرجني من حواري مع القتلى والقتلة لعنة ســـكير اتّخذ الأرض فراشـــاً ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين تحتضنهم المدينة وهي البحر الذي غرقوا فيه والشـــاطئ الذي ترسو عليه أجســـادهم المبللة بالبول والكحول والعرق. هل أتوقف عنده وأســـأله؟... آه الرجل يهذي. قال بعض الزملاء منذ سنين لا أفظع ولا أقلّ إنسانية من مستشـــفيات المجانين وهي في الواقع محتشدات، فلنفتح الأبواب ليعود المرضى جزءاً من المجتمع. فكرة حســـنة النية ســـيئة العواقب انتهت بغلق المستشـــفيات -المحتشدات، لكنها رمت في الشـــارع آلاف الغرقى وقد نسي أصحابها أن مثل هؤلاء الناس لا يطيقـــون المجتمع ولا هو يطيقهم.

الآن عن يميني المبنى العظيم الذي ســـأقف في طوابيره ألف مرة ومرّة، لكن المتحـــف الفخم الذي وضعوه عمداً في قصر ملكية هزمها المواطنون مغلق هـــذه الليلة. لأنتظر الصبح للعودة إلى أروقته أتشـــبع بكل روائعه أتطهر بها من كل هذه السنوات العجاف التي طوقتنـــي بما لا يصدق من بذاءة ورداءة وجهل وقبح. المشـــكلة كيف الإفلات من صراخ صامت يملأ الفضاء. ويتعالى من مبـــانٍ متجهمة تقع على بعد بضـــع مئات من الأمتار. يا له من عويل تقشـــعر له الأبدان... عويل طفل خرج أبوه إلى المقصلة وتبعته

أمه التي أجبروه على القــول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميراً ووليّ عهد على وشــك الغروب هو الذي كان ســيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون، لكنه ســيموت كمداً قبل بلوغه العاشرة في دهاليز قصر مخيف تحدّق أبراجه إلــى النهر الخالد وكأنها تهدّده.

يجب أن أركض علّني أفلت مــن فظاعة نحيب لم تخفت حدّته منذ أكثر من مائتي ســنة. هذا جبل القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهــي لا تطيق إلا من يغازلها طويلاً. يا ســتّ جنفياف، خففي من آلام روح الطفل ليجد العزاء أخيراً وبالمناسبة لا تنســي آلامي فقد خذلني الغوث والمحجوب وسيدي الخافي وسيدي محرز وســيدي بلحسن وسائر أسياد وسيدات الأب والأم والجدّ.

أرض الأحرار

أخيراً الحيّ الذي ذرعته ســنوات شبابي في كل اتجاه أبحث عن الكتب وعن الحبّ. حولي تتدافع جحافل أشــباح أخرى. إنها معركة بين طلبة سكارى وأعوان الســلطة تتبعها أحداث كالتي يصنعها البشــر بلا منطق أو معنى يقتل فيهــا البوليس بعض الطلبة فترحل الجامعة بطلبتها وأســاتذتها احتجاجاً... أول إضراب من هذا النوع في التاريخ. المهمّ رضوخ الملكة المتغطرســة وقد هجرتها جامعتها إلى مدن منافسة ســارعت إلى احتضانها. كم أشعر بالشماتة فيها بعد ثمانية قرون وهي تســتجدي رجوع الفارين وتستلم صاغرة كل شــروطهم. درس من بين الدروس الكثيرة للمدينة الثائرة على الدوام وهي تربّي من يحكمها على الحكم الرشــيد. من الغبي الذي قال السيف أصدق إنباء من الكتب؟

آن الأوان لمشـــروب ساخن يعيد بعض الدفء إلى الروح والجســـم. لا أحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. وداخل الزحمة يخفت همس الأشـــباح وأنين العفاريت لا صوت يعلو الآن فوق ثرثرة النســـاء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. بداهة لم يجلس قربي مشـــتبه فيه ولا أظن أحداً انتبه لدخولي أو يعرفني أو ســـيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صحيح أن البشـــر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيراً بحثاً عن الدفء لسعتهم ولســـعوك وإن بعدت عنهم كثيراً شعرت بالبرد. أنا الآن على المســـافة المثالية: الدفء بلا لسع. وفي مثل هذه المقاهي سهرت سني الشـــباب مع أمثالي نعيد صوغ عالم لا أكره عنده من سذاجة المتعســـفين عليه بالتغيير في الاتجاه الذي لم يقرّر. كنا لا نحلم إلا بالرجوع إلى الوطـــن ثم اتضح أنه ليس لنا وطن وهو الأرض التي نهرب إليها لا التي نهـــرب منها. وعلى كل حال المفهوم وما تلوكه الألســـن حوله أصبح اليوم أكثر من أي وقت مضى بلا طعم. لم أشـــعر كم أنا غريب إلا بين ذوي القربى ولم أحسّ كم أنا منفي إلا داخل حدود بلدي. ليحلموا به هم وليغنوا «ســـنرجع يوما إلى حيّنا» وليكتبوا عن مفاتيـــح بيوتهم التي تركوها في الأندلس وليحرقهم الشـــوق والحنين. أما أنا فوطني الفكر وهو بلا حدود ولا راية أستظلّ بها وأمشـــي خلفها وأموت من أجلها إلا كرامة الكائنات. ثم أليس كل من حولـــي الآن مواطنيّ وهذه المدينة منذ وجدت مســـكونة من غرباء استجاروا بها سواء جاءوا من أقرب الأرياف أو من أبعد الغابات والصحارى، ســـواء وصلوها مثلي البارحة أو قبل ألف ســـنة. على كل حال إن شاءت الأقدار أن أموت في هذه الأرض فلتدفني فيهـــا البنتان لأنها أرض أحرار. وإذا خفقت راية الكرامة يوماً على التي ولدت فيها وهمـــا على قيد الحياة فلتأخذا رفاتي إليها لأرقد بين جـــدي البدوي وأبي الذي مات منفياً لأنه لم يقبل مقايضة الحياة بالذلّ. وإن بقي مســـقط الرأس أرض أنذال

يذلّون جبناء وجبناء يرضون بالعيـــش قطعان خرفان ترعاها الذئاب فالوصية تنقل إلى الأحفاد وأحفـــاد الأحفاد... ولابدّ للّيل أن ينجلي.

لا أغبى من تضييع ليلة كهذه في شـــيء مبتذل كالنوم.

يتواصل المشـــي على طول نهر هو منذ ولادة المدينة شريان يضخّ في جســـمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والقراصنة والغزاة. آه هذه الكاتدرائية الضخمـــة التي تواصل العمل عليها قروناً وكادت تدمّر عند الثورة. هل من حســـن الحظّ أنها لم تدمّر أم من ســـوئه؟ أقله بقيت معلماً للســـياح. فجأة أنتبه للقوة المجهولة داخلي تريد ليّ العنق إلى الوراء وأنهـــا خضعت هذه المرة لفيتو آت من الأعماق. تبقى العينـــان متجهتين إلى الأمام. إلى أين الآن وكل شـــبر من الأرض يروي قصة ويحوي أثراً يغري بالتوقف والتأمل. قدرنا أن نمرّ أمام كم من أثـــر صامت تبخرت منه كل العلامات ونحن ننزلق دوماً في أي مكان ننزله على بحر من الألغاز والأســـرار.

المدينة المباركة

الوجهة المقررة المكتبة العظمى. عن يســـار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو الســـماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحـــة تواجه بعضها بعضاً. يقـــال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كتب. الشـــدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشـــرقية هذا الرمز. وفي حماية هذه الأبراج كم يبدو بديهياً أن المدينة المشـــبّعة قصصاً وتاريخاً هي نفســـها نصّ عظيم مكتوب بالدم، بالعرق وبالحبر والكاتب تاريخ كل من تتابـــع عليها داخلاً ودخيلاً. الأمر هنا فكّر من خارج كل الأطر، تمرّد علـــى كل الصيغ، جدّد ولا تتوقف عن الإبداع فكل شـــيء مقبول إلا الرداءة. جوّ كهذا جرعة الأوكسجين للمختنق

ونفــح الطيب لمن عاش والنتن يملأ خياشــيمه. لم أكن واعياً ليلتئذ أن «الرحلة» ســتصاغ من القاع إلى القمة في أحد بيوت هذه المدينة التي ســتكون حاضرة بقوة في أكثر من مقطع من النصّ. كيف لا أكتب ولا مخبر يتنفس فــي عنقي ولا رقيب قادراً على منع كلماتي ولا موظف عند الســماء يدّعي تعليمي ما القداسة وأين توجد حقاً. كان من الطبيعــي أن لا أتوقف لحظة، عبر ما لا أعدّ من النصوص، عن التحريض على الحريــة والكرامة والعصيان المدني وكل ما في هذه المدينة يوحي ويشــجع ويدفع كل واحد منا ألا يكتفي بأن يكون آدمياً وأن يفعل كل ما بوســعه ليصبح إنساناً...

أن تكون إنســانا هو أن تكون مسؤولاً (سان اكزوبيري)
أن تخجل من أفعال لم تشارك فيها
أن تفخر بانتصارات الرفاق
أن تشعر، وأنت تضع حصاتك
بأنك تساهم في بناء العالم

يجب أن أتوقف عن المشــي فليس أمامي الآن إلا الضواحي البعيدة ومنها التي ســتلتهم سنوات من عمري في معالجة أفقر ســكانها. إنهم آخر من تدافعوا من أقاصي قارة منكوبة هرباً من الموت طمعاً في الحيــاة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال ولا دليل ولا خارطة ولا رخصة عبور من أحد والســفر مغامرة كبرى رهانها أن تكون أو ألّا تكون. النقيض المطلق للســياحة. لا شكّ أن بينهم كتّاباً ســيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الآدمي وهو تائه في الصحراء بلا مــاء ولا أمل أو غريق أنقذ آخر لحظة من براثن البحر، أو مغامر يائس بائس يخترق الجبال خلســة ليلة صقيع يمزق أحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شــبه ميّت من الإرهاق صارخاً يا مــلاذ المضطهدين لا تصدّيني ويا واحة النور لا تحرقي جناحيّ.

فجأة أنتبه أنني لم التفت خلفي منذ ســـاعات توجّساً من مخبر حقير. بداية الشـــفاء. أولى بركات هذه المدينة المباركة من بين كل المدن.

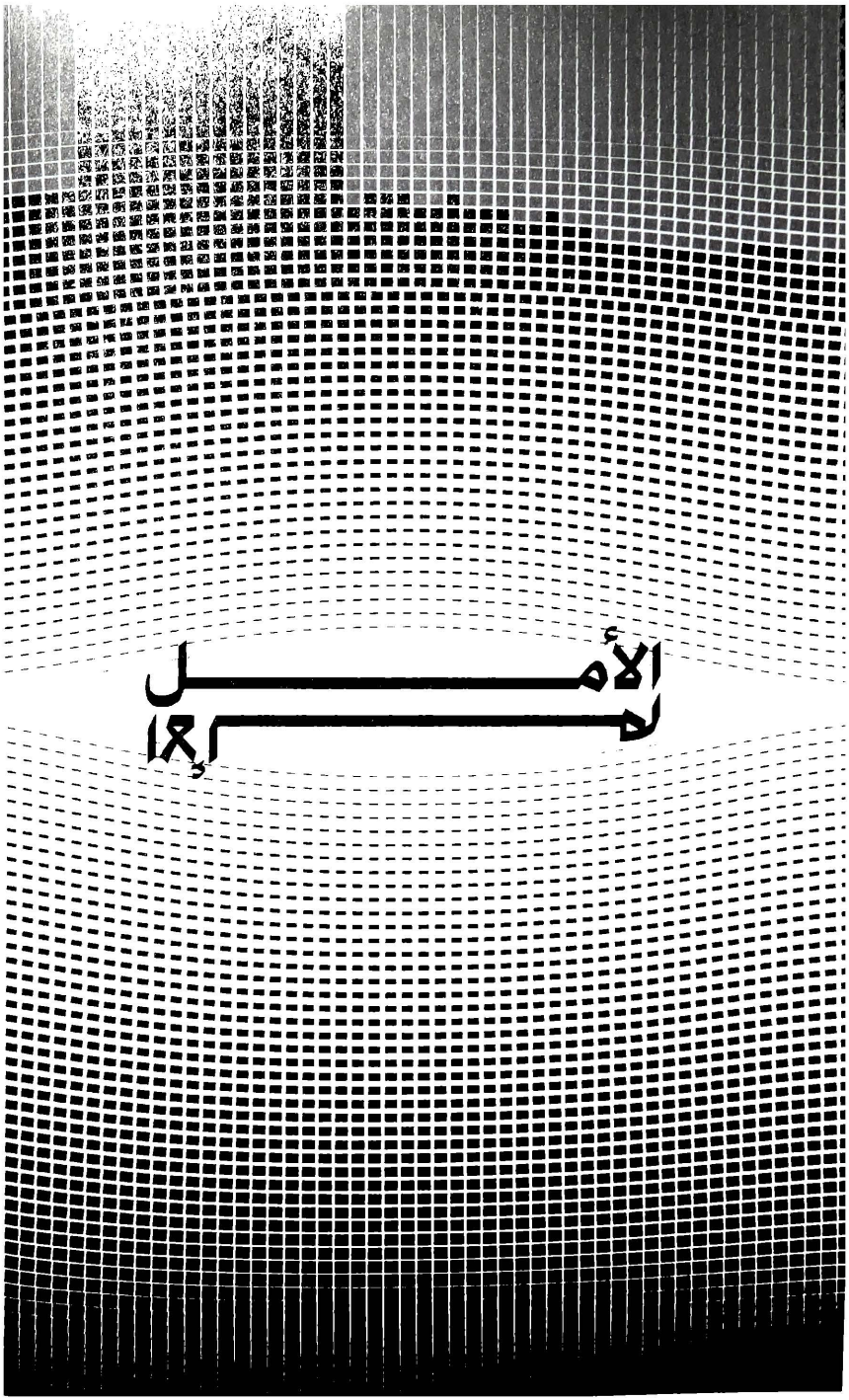
الأمل

سعودية في عاصمة الأمل والألم!

إيمان الحمود

إعلامية وصحفية سعودية تلقت تعليمها المدرسي في مدينة الجبيل الصناعية شرق المملكة العربية السعودية، عملت في وسائل إعلامية عدة بينها صحيفة الشرق الأوسط اللندنية بعد أن أكملت دراستها الجامعية في المملكة الأردنية الهاشمية وانتقلت بعدها إلى فرنسا لإكمال دراستها العليا، تعيش في العاصمة الفرنسية باريس منذ العام 2006، تعمل حالياً في إذاعة مونت كارلو الدولية الفرنسية الناطقة باللغة العربية، حيث قامت بتغطية ميدانية لثورات الربيع العربي في العديد من الدول العربية، تكتب عموداً صحافياً أسبوعياً في صحيفة الوطن السعودية، وتحاول دائماً البحث عن كل ما هو جديد في علم الاتصال والإعلام.

ترددت كثيراً حينما طلب مني كتابة هذه الأسطر عن باريس وما تعنيه لي هذه المدينة المسكونة بالأسرار، وترددت أكثر عندما أمسكت قلمي لأنثر حبراً معطراً برائحة السنين العشر التي قضيتها هنا، فالأمر صعب بحجم الصعوبات التي كابدتها للوصول والعيش في هذا المكان، في باريس مدينة الأمل... والألم.

لست كالكثيرين من أقراني هنا... فحلم العيش في عاصمة النور قد راود ربما زملائي من العرب المشارقة والمغاربة منذ نعومة أظفارهم، ومنهم من سعى بكل ما لديه وضحى بجل ما يملك من أجل الحصول على فرصة للدراسة والعمل في باريس، أما أنا فلي قصة شاء القدر أن تختلف عن بقية القصص، وحكاية سأبقى أرويها سنوات.

لويس فيتون

قبل عشر سنوات، لم أكن أعرف عن باريس سوى تلك الأحاديث والروايات العابرة التي دأب في حملها أقربائي الهاربون من أشهر القيظ في الخليج وممن سمحت لهم إمكاناتهم المادية بقضاء بضعة أسابيع أو أشهر في هذه المدينة الساحرة، أو من صديقاتي اللواتي اشترطن على فارس الأحلام قضاء شهر عسل في إحدى أغلى العواصم العالمية... ومن أفضل من باريس للعب هذا الدور.

كل ما كنت أعرفه عن باريس آنذاك هو الشانزلزيه هذه الجادة الساحرة التي تضم أهم معلم سياحي في العالم، لا لم أقصد قوس النصر، ولا ساحة الكونكورد، ولا برج إيفل الذي يبعد عنه بضعة كيلومترات فقط، بل أعني محل لويس فيتون الشهير على رأس جادة جورج الخامس، هذا المتجر الفاخر الذي تقصده كل نساء الخليج لشراء أفخم وأغلى الحقائب النسائية، والعودة وهن يتبخترن بحملها في صالة الوصول بمطار الملك خالد في الرياض، ولسان حالهن يقول: «نعم كنا نقضي الإجازة في باريس».

نعم مع الأسف، فنحن في الخليج، لم نعرف عن باريس يوماً سوى أسماء علاماتها التجارية وأسواقها وبعض مطاعمها التي أصبحت وكراً للسياح الخليجيين فور وصولهم إلى هنا، ولهذا فإني لن أخفيكم سراً، إن قلت أن باريس في البداية لم تكن تعني لي شيئاً، فقصص هؤلاء وما يحملونه من ذكريات في حقائب سفرهم لا يبدو محفزاً لفتاة مثلي، اختارت حياة مختلفة عن أقرانها، منذ أن قررت دخول عالم الصحافة والإعلام في بلد لم يكن حتى وقت قريب يسمح لنسائه بدراسة هذا التخصص، رغم ذلك أنا فخورة به... نعم أنا من السعودية!

لا يمكنني أن أنسى حتى اليوم هول المفاجأة التي وقعت على مسامعي عندما علمت بحصولي على بعثة للدراسة في فرنسا، في بلد أجهل أبجديات الحياة فيه ولا أجيد حتى لغته. كثير من أقربائي حصلوا وقتئذ على منح للدراسة في بريطانيا أو أميركا، في تلك البلدان التي تعلمنا لغتها في مدارسنا وأقحمنا أسلوب حياتها في كل مناحي عيشنا ومعاشنا، ونعرفها أكثر من أهلها أنفسهم، فلماذا كتب عليّ الخيار الأصعب؟ سؤال بقي يدق في رأسي كالناقوس حتى باب الطائرة التي أقلتني بعد منتصف الليل إلى مطار شارل ديغول.

كان الصباح عندما وطئت قدماي أرض المطار الباريسي هو الأشد برودة خلال العشر سنوات الكاملة التي قضيتها هنا، فهل كان السبب هو الصقيع الذي لف ذاك الشتاء الباريسي ونحن في بدايات شهر يناير من العام 2006 أم أنه الشعور البارد بالغربة والعزلة؟! برودة لم يفلح معطفي الثمين الذي اشتريته خصوصاً لهذا اليوم بحمايتي منها.

في سيارة الأجرة التي أقلتني من المطار حظيت بسائق عربي، وأقول حظيت لأنني لم أكن أعرف حينئذ بأن اللغة العربية هي اللغة الثانية رسمياً بعد الفرنسية لكثرة العرب القاطنين هنا.

حقيقة لا أتذكر كم الأسئلة التي طرحها علي هذا السائق منذ أن استنشق رائحة العود العربي التي أضعها وعرف أنني جئت من السعودية، فلقد كنت مشدودة إلى تفاصيل كل شيء على طريق المطار حتى وصولنا إلى قلب العاصمة، كنت أتلفت ذات اليمين وذات الشمال، وعيناي تبحثان عن شيء واحد، نعم عن برج إيفل، فرؤيته هي الشيء الوحيد الذي سيجعلني أصدق أنني في باريس.

ورغم أنني أعرف بأن باريس حالياً ليست وجهتي، بل هي مدينة صغيرة في جنوب غربي فرنسا اختيرت لي من أجل تعلم اللغة الفرنسية، كان لدي شعور غريب بأنني سأعود إلى هنا يوماً ما، لوهلة كنت أسمع أصوات الشجر والحجر وهي تهمس في أذني: «لا تتأخري... فنحن بانتظار عودتك».

ثمانية أشهر فقط لكنها مرت كثماني سنوات... أعترف بأنني لم أجد نفسي في الريف الفرنسي، فرغم المناظر الجميلة والطبيعة الساحرة إلا أن لباريس التي قضيت فيها بضع ساعات فقط طعماً آخر... بل هي رائحة أخرى كانت تصلني مع كل مرسال يقصدني من هناك، حتى جاءت الرسالة التي انتظرتها، رسالة قبولي في جامعة باريس، أذكر أنها وصلتني يوم عيد ميلادي، وكأن عاصمة النور شاءت أن تهب لي في عيدي بصيصاً من نورها ليضيء لي درب المستقبل.

لم تكن جامعة باريس هي وحدها من اختارتني في صفوف طلابها، بل أذكر أني استلمت قبولاً من جامعتي ليل وغرنوبل، لكن ثمة قناعة كانت قد تكرست في داخلي مفادها أن فرنسا هي باريس، وباريس هي فرنسا، هذا بالنسبة إلي أقله، هما كالتوأم السيامي، وحدة واحدة لا تتجزأ، وكنت أقول دوماً وعلى الملأ: «إن لم يكتب لي الذهاب والعيش في باريس، فيبدو أن لا حياة تنتظرني في فرنسا برمتها»، فالإنسان قد يحيا دون عين أو ذراع لكنه حتماً لن يعيش دون قلب، وباريس كانت ذاك القلب الذي سكن روحي المهاجرة.

الهجرة، الغربة، كلمات كنت أسمع بها على لسان العرب المقيمين في باريس، لكن الغريب في الأمر أني لم أشعر بها يوماً، حاولت كثيراً أن استشرف الأسباب، لكنني لم أجد سبباً مقنعاً سوى الراحة النفسية التي تضج في جنبات هذه المدينة، فرغم تعقيداتها الحكومية والإدارية، تبقى باريس الأرحب صدراً في استقبال الغرباء، نعم إنها كذلك، فما بالك لو كان هذا الغريب طالباً للعلم، عوملت هنا كما لو كنت طالبة فرنسية، بل كما لو كنت ابنة لهذه المدينة، لم أصدق عندما وصلتني رسالة بريدية تفيد بحصولي على معونة حكومية لدفع إيجار شقتي الصغيرة، لا لشيء سوى لكوني طالبة علم، ويبدو أن العلم في باريس لا يفرق بين فرنسي وأجنبي إلا بالجد في طلب العلا والارتقاء إلى سلالم المجد.

مونت كارلو

مجد من نوع آخر كانت تخبئه لي باريس، لكن في مكان ما بعيداً عن طاولات الدراسة ورفوف المكتبات، مجد استقر بي خلف مذياع الأثير، أثير مونت كارلو الدولية، فبين مجموعة من الأشقاء العرب، وجدت عائلتي الصغيرة في باريس، عائلة لمست في اختلافي عنها إضافة نوعية إليها، فأنا وبكل فخر أول مواطنة سعودية تنضم إلى هذه الإذاعة العريقة منذ إنشائها في سبعينيات القرن الماضي.

لا مجال هنا للاستفاضة في الحديث عن مهنتي التي عشقتها منذ نعومة أظفاري، لكن دعوني أحدثكم عن تلك المدينة التي زرعت في قلبي عشق هذه المهنة، لا أخفيكم سراً عندما أقول بأنني جئت من منطقة لا تؤمن بحرية التعبير ولا تعرف معنى الرأي لكي تفهم معنى الرأي الآخر، وأنا هنا لا أخص بالذكر بلداً بعينه، ولا أستثني منهم أحداً.

فمن أنظمة شمولية وقمعية إلى أخرى تتخذ من الدين قناعاً لها ضاع حقنا كصحفيين في العمل ضمن جو يضمن لنا أدنى درجات الحرية، الأمر في باريس يختلف تماماً، فأنت كصحفي تعامل هنا كصاحب فكر قبل

أن تكون صاحب رأي، فحرية الرأي مكفولة هنا للمواطن العادي، أما الصحفيون فهم ذوو فكر مستنير لهم الحق في التعبير عنه بل ترويجه أيضاً، حرية تصل إلى أعلى سلطات الدولة في وقت كان انتقاد رئيس تحرير صحيفة في بلادنا كفيلاً بقطع تذكرة ذهاب دون عودة إلى ما وراء الشمس.

إنها الحرية... نعم الحرية وهذه إحدى صورها الكثيرة في الغرب لكنها في باريس تكتسي طعماً آخر وهي تعانق قمة برج إيفل لتتجاوزه إلى أرحب فضاء، حرية لا سقف لها سوى الفكر والإبداع، حرية لا رقيب عليها سوى عقلك الذي منحه الخالق كل ما يؤهله ليفكر ويبدع، حرية ممزوجة برائحة الخبز الفرنسي، هذا الخبز الذي كان البحث عنه هو نقطة انطلاقة ثورة الحرية الفرنسية، وحمل لفرنسا نسائم انعتاق تجاوزت كل الدماء التي سالت ثمناً لجثث أبنائها الذين سقطوا حتى لا تدفع الأجيال ثمناً أغلى في المستقبل.

لا أريد أن أخرج عن النص دائماً ولا عن الهدف الذي أكتبه من أجله، لكنها المذنبة، نعم هي باريس الوحيدة التي تحمل ذنب من عشقها وذنب من ارتوى من عذب مائها وتلحف بزرقة سمائها، وغرس في نفسه حلماً قد يحققه يوماً إن ارتحل منها، ولكن هيهات... فهي من الدهاء بمكان لتبتلعك وتذيبك بين أرجائها كما تذاب قطعة السكر في فنجان قهوة يحتسيه غريب في ذاك المقهى الباريسي على قارعة الطريق.

المقهى

هي تلك المقاهي التي أعشق... نعم ثقافة المقهى التي تزرعها باريس في داخلك، كأول ثقافة قد تتعلمها في هذه المدينة، ثقافة كزهرة الأوركيدا لن تروي ظمأها اليومي إلا باحتساء فنجان القهوة الباريسي قبل الذهاب إلى عملك، بالنسبة إلي لا أستغني عنه، هناك طاولتي، في الركن البعيد الهادئ من المقهى الذي يطل على نهر السين، حيث اعتدت قراءة

صحيفتي اليومية على رائحة شطائر الكرواسون الطازجة كل صباح، رائحة لا تكتمل إلا بعبق رائحة البن الذي يزين هذا الفنجان، مشهد يذكرني دائماً بقصيدة الجريدة لنزار قباني وبصوت ماجدة الرومي التي تنشدها متغزلة بذاك الغريب الذي «ذوب في الفنجان قطعتين... وفي دمي ذوب وردتين».

غريب طالما جلس إلى تلك الطاولة، وكنت أرمقه من بعيد، لا لشيء سوى لأعرف هل بيننا عشق مشترك، هل جمعتنا هذه المدينة في حبها رغم اختلاف اللون والعرق واللغة؟

سؤال لم اكتشف بعد إجابته لكن الأكيد هو أنني قد لمست في باريس هذا التنوع والثراء، بشر من مختلف الأرجاء يعيشون تحت ذات السماء يتنشقون ذات الهواء، لا ضغينة بينهم ولا عداء، بل هو الحب يجمعهم والإخاء.

لم أكن وحدي من استغرب ذات يوم عندما جلست في إحدى عربات المترو منظر زوجين عاشقين أحدهما من أصول أفريقية والثانية من أصول أوروبية ومعهما طفلان رائعان جمعا بين ملامح الأب والأم في تمازج قلما نراه في بلداننا.

هو درس آخر تعلمته في هذه المدينة، وأنا القادمة من مدرسة مجتمعية لا تكتفي بالتفريق بين الناس على أساس لونهم أو دينهم أو حتى عرقهم، بل إن اسم قبيلتك ونسبها هو مجال رحب للفرقة بينك وبين من تحب، فالحب في بلادي مكبل بأغلال لا يملك مفاتيحها حتى من صنعها، حب بات يخشى حتى الولادة، لأنه سيولد لقيطاً لا أب له أو أم، وسينال بعدها من سياط العذاب قسطاً يتكفل بدفنه وهو في مهده.

هي مدينة الحب والأساطير، ما ظلمها من أطلق عليها هذا الوصف، ولم يبخسها حقها من حج إليها كل عام، ولا من اختارها قبلة

لشهر عسله، عله يرتشف وعروسه من رحيق أزهارها، ما يكفيهما لبدء حياة يزينها ذاك العشق الممنوع الذي تنبض دقاته في كل زاوية من هذه المدينة.

كنت مثل كل فتاة عربية عندما تسأل عن المدينة التي ترغب في أن تمضي فيها شهر عسلها، وأجزم بأن تسعاً وتسعين بالمائة منهن تجيب بملء جوارحها «باريس»، وأنا أمامكم اليوم وبعد عشر سنوات في هذه المدينة أعلنها صريحة بأني لن أجرؤ على التفكير من مكان آخر لقضاء هذه المناسبة، فهو المكان الذي يحمل للغرباء بين طياته معاني الحب والرومانسية، فماذا لو امتزج في ذاكرة فتاة مثلي بمفهوم البيت الذي ألفتني أرجاؤه وعرفتني أحجاره، وقد يجمعني يوماً بمن أحب كما وعدني عندما كنت أختلس النظر في عديد المرات لعاشقين يسترقان القبل بين أركانه.

ذات يوم اقترح عليّ زميل في الإذاعة أن أكتب كتاباً، أسرد فيه يومياتي وذكرياتي في هذه المدينة، واقترح علي أن أسميه «مذكرات سعودية في باريس»، شارحاً لي كيف أن كتاباً من هذه النوع قد يحطم سلّم الأرقام القياسية، فالناس هنا تتهافت على كل ما يحمل اسم السعودية، ولاسيما إن كان الأمر متعلقاً بالنساء، اللواتي والكلام دوماً لهذا الزميل يعشن خلف أسوار مغلقة وأبواب موصدة، وإن لتجاربهن في الخارج حتماً طعماً مختلفاً.

استهوتني الفكرة بادئ ذي بدء، لكنني وفي غمرة استغراقي في شرب فنجان قهوتي اليومي، متأملة حبات المطر على شباك المقهى الذي اعتدت الجلوس فيه، بدأت أتساءل، هل ثمة ما يمكن أن أرويه عن حكايتي هنا؟ هل ثمة قصة مختلفة قد أحملها في جعبتي لمن سيتهافت على شراء هذا الكتاب؟ في الحقيقة لم أجد ما هو مختلف عن قصة أية فتاة جاءت إلى هنا بحثاً عن حياة جديدة، حياة لم تبخل بها باريس على كل من قصدها طلباً للعلم أو العمل، ناشداً الحلم أو حتى الأمل.

تعويذة

حتما ســـأبالغ إن قلت بأنني قد شعرت بالغربة أو بالاختلاف في هذه المدينة رغم صعوبة اللغـــة وتباين الثقافة، ففي باريس هناك تعويذة ســـحرية، يمســـك بمفاعيلها ساحر يقبع ربما في أعلى برج الجرس التابع لكنيسة نوتردام، ســـحر يستنشقه في رائحة البخور الذي يجوب أركان الكنيســـة كل من يزورها للمرة الأولى، وما عليك بعدها إلا أن تقضي بضع ســـاعات في أزقة الحي اللاتيني المجاور لها، حتى تشـــعر بأنك قد اســـتحلت باريسياً بكل ما تحمله هذه الكلمة مـــن معانٍ وليس معنى واحداً فقط.

معانٍ كثيرة تلك التي زرعتها باريس في داخلي خلال عشـــر ســـنوات مضت، معانٍ تتجاوز مفهوم الاغتراب وتدمر كل الحواجز النفســـية التي أوجدتها رغماً عني لحظات الوداع والفرقة وتلك الحرقة التي لمحتها في عيون أقرب الناس إلي وهم يســـاعدونني على حزم حقائبي ويصطحبونني إلى المطار، وكل ما فيهم يشـــعرني برغبة في البقاء وكره لذلك المجهول الـــذي ينتظرني خلف البحار الســـبعة، لكن ما أسرع أن تحول هذا المجهول إلى توأم روح لا أقوى على فراقه، واســـتحال هذا الكره إلى قصة عشق أبدية لا مناص منها ولا خلاص.

هناك بالقرب من جســـر Pont des Arts حيث يتحلق العشـــاق لوضع أقفال تجسد حباً، ســـيكتب له الخلود في اللحظة التي ســـيلقون فيها بمفتاح القفل في قعر نهر الســـين، وقفت يوماً، وجاء أحدهم ليقنعني بشـــراء أحد أقفاله، ابتسمت له وقلت: هل تراني برفقة عاشـــق ولهان لتعرض علي بضاعتك الكاسدة؟...
فرد عليّ قائلاً: ســـيدتي، ليس من الضروري أن نحب لنشتري قفلاً!

وعلى ذكر الخلود، أســـتذكر هنا خلود صديقة خليجية زارتني في باريس يوماً، وكنا لم نلتق منذ ســـنوات، وفي المطار كانت تتلفت يمنة ويســـرة فيما كنت ألوح لها بذراعيّ، حينئذ باغتتني بالقول: إيمان لم أعرفك للوهلة الأولى، أصبحت فرنســـية لا بل تشـــبهين الفرنســـيين إلى حد كبير، في البداية لم آخذ كلماتها على محمل الجد، لكنني ســـرعان ما بـــدأت بالتأمل في معانيها حالما عدت إلى مرآتي الكلاســـيكية المعلقة على أحد جدران شقتي المتواضعة، فهل تغيـــرت إلى هذا الحد؟ هل ذبت في باريس إلى هذه الدرجة؟ أم هل اختارت هـــي الذوبان في داخلي وتحويلي إلى شخص آخر؟ شخص يشـــبهها ربما، وأظنه أجمل وأكثر قدرة على التعبير عن مكنونات نفسه.

وعلى ذكر الخلود، اســـتذكر هنا خلود صديقة خليجية زارتني في باريس يوما، وكنا لم نلتق لســـنوات، وفي المطار كانت تتلفت يمنة ويســـرة فيما كنت ألوح لهـــا بذراعاي، حينها باغتتني بالقول: إيمان لم أعرفك للوهلة الأولى، أصبحت فرنســـية لا بل تشـــبهين الفرنســـيين إلى حد كبير، في البداية لم أخذ كلماتها على محمل الجد، لكنني ســـرعان ما بدأت بالتأمـــل في معانيها حالما عدت إلى مرآتي الكلاســـيكية المعلقة على احد جدران شقتي المتواضعة، فهل تغيرت إلى هـــذا الحد؟ هل ذبت في باريس إلى هذه الدرجة ؟ أم هل اختارت هي الذوبان في داخلي وتحويلي إلى شـــخص آخر؟ شخص يشـــبهها ربما، و أظنه أجمل وأكثر قدرة على التعبير عن مكنونات نفسه.

أســـئلة لم تملك أختاي الصغيرتان إجابات عنها، وهما اللتان قضتا ثماني ســـنوات في لندن، لكنهما بقيتـــا كما هما، وكأن بينهما وبين تلك المدينة برزخاً مـــن الخلاف والاختلاف، كنت أتردد كثيراً لزيارتهما، وكانتا تصحبانني برفقـــة بعض الصديقات إلى الهايد

بارك لاحتساء القهوة الســـعودية التي تتناوب الفتيات على إعدادها في كل مرة، هنا تجلى الفـــرق، فمدينة الضباب لم تملك يوماً ذاك الســـحر الذي يحيلك إلى جزء لا يتجزأ منهـــا، لها محبون... نعم، لديها مريدون... أكيد، لكنها لم تكن يوماً بحجم ذاك العشـــق الذي لمسته في باريس، تلك الفاتنة لاتـــكل ولا تمل من التراقص أمام عينيك، كازميرالدا الغجرية التي ســـحرت أحدب نوتردام في رائعة فيكتور هوغو، بتنورتها القوس قزحيـــة، الممتزجة بألوان تجمع التاريخ والحداثة.

لا يمكن لمن يزور باريـــس إلا أن يقع في غرامها من النظرة الأولى ولاســـيما إن كان هذا الزائر عربياً، ففي بائها غنج بيروت ودلع بغداد، وفي ألفها شـــموخ القاهرة، وفي رائها بهاء رياض نجد، وفي يائها عراقة يمن ويمامة، وفي ســـينها سمو ما تبقى من أرض العرب، وبين حرفيهـــا الأول والأخير جمعت المجد من أطرافه وسطرت الحب بكل ألوانه وأشـــكاله، فكيف لا تنهار عاشقاً أمام سحرها الأخاذ؟!

الذاكرة

أتراني مغرمة؟ ربما أكون كذلك، وربما قد يفســـر هذا الغرام رغبتي في البقاء في كنفهـــا، جاهلة أو متجاهلة كل الفرص التي تطرق بابي بين الحين والآخـــر، فرص قد لا تتكرر، لكنها لن تعوضني خســـارتها، لن تجبر خاطري المكسور حين التفت ولا أجدها بقربي، أســـمعها تناديني للسير في شوارعها، ولاحتساء القهوة في مقاهيها، وفي ســـبر أغـــوار مكتباتها العتيقة، أو حتى في مراقبة تلك المراكب التي تخوض غمار ســـينها محملة بالمزيد من عشاقها.

هي أشياء لا تشـــترى كما يقول الشاعر... أشياء بسيطة لن يشـــعر بقيمتها إلا من حالفه الحظ بالارتماء في أحضانها، هناك في حدائق لوكسمبورغ حيث تشـــرق شمس دافئة في أشهر الصيف، أشعتها تغريك بالاســـتلقاء تحت ظل شجرة وارفة وفي يدك كتاب أو ربما مذكرة تســـطر فيه ما لن يخطر ببالك من مشاعر، غريبة هي الطاقة الإيجابية التي أشعر بها شـــخصياً في هذا المكان، طاقة تبث في جوارحي حنين الوطن، لكنها في الوقت نفســـه تغرس في داخلي جذوراً من الانتماء إلى هذه الأرض، جذور يترســـخ عمقها كلما مررت بتلك الشـــجرة وكلما اســـتلقيت تحت ظلالها، متسائلة عن عمرها الذي لن تبوح لي به حتماً، ليس لأنها تخشـــى الإفصاح عن ذلك، ولكنها حتماً نسيت كم من الســـنين مضت وهي تقبع شامخة في هذا المكان.

كلُّ التماثيل في باريسَ تعرفُنا

وباعةُ الورد، والأكشَاكُ، والمَطَرُ

حتّى النوافيرُ في (الكونكُورد) تذكُرُنا

ما كنتُ أعرفُ أن الماءَ يَفْتكِرُ...

هذا ما قاله نزار قباني لمعشـــوقته في باريس، أبياته هذه تختصر الكثير مما حاولت أن أعبّر عنه من أفكار في أســـطري، فللمكان ذاكرة لا يختزلها الزمان ولا يجرؤ على محوها، أشـــعر أحياناً بأن لتماثيل نزار أرواحاً فعـــلاً، تعرف كل من مر بها، وتحتفظ له بذكرى وجوده فيها، ومـــا عليك فقط إلا أن تعاود المرور بها، حتى تلقي إليك بســـحر الذكرى، حتى لو كانت تلك الذكرى مؤلمة، حتى لو كنت قد نســـيتها ولا تريد لأحد أن يفتش في أوراق ذاكرتك، تأبى هي إلّا أن تفعل ذلك، ليس عن ســـبق إصرار أو خبث نية، بل

هي تريد أن تعطيك درســاً في الحياة، مفاده بأن الحياة ستستمر، وتعدك بتعويضك عن تلك الذكرى المؤلمة بأخرى جميلة تغســل الآلام وتمحو الأحزان، ذكرى تتحرر من قيود الزمان، لكنها ســتبقى حتمــاً على ارتباط وثيق بهذا المكان.

Paris, je t'aime

قناعي

ما من وسيلة للنفاذ إلى مدينة مثل المنفى . أقيم في الحي اللاتيني
دائماً عند نزولي إلى باريس . سان ميشيل قديس معروف ومنطقة شهيرة تذكرنا بالحي
أعرف الشوارع والأزقة والبيوت منذ ابدأ المنفى الى نهر السين القريب . و أ
الى الحي اللاتيني مروراً الذي وصفه الشيخ رفاعة بد
منه حديثه عن قناطر باريس أعطا وقتاً في حديقة النباتات . أمر
بالسان ميشيل . كنيسة الى ميدان الكونكورد .
من أكبر ميادين العالم تلك المسلة المصرية
قلبه . أظن أنها ذهبت إلى الديار المصرية .
نقلت من مكانها أمام باشا . و أهداها
إلى شارل العاشر ملك . و أقيمت في مكانها
الحالي زمن الملك لويس وعشرين لمنا من الجرا
عاد الشيخ رفاعة إلى مصر أقامة أمتدت حوالى ست
سنوات . لم تكن المسلة والاكان وصفها و
أمرها . من الذي تجرى مصر وفرنسا في صحائف
براه .
على قاعدتها رسوم عبد البحر . المد
مركز المدينة . قوس النصر سنجد
يقعان على خط واحد أمام المسلة
و بينهما
في متحف اللوفر
الواقع

قناعي الفرعوني في متحف اللوفر

جمال الغيطاني

روائي وصحافي عمل مراسلاً عسكرياً ومؤسس ورئيس تحرير صحيفة أخبار الأدب الأسبوعية المصرية. صاحب مشروع روائي استلهم فيه التراث المصري ليخلق عالماً روائياً عجيباً يعد اليوم من أكثر التجارب الروائية نضجاً.
لعب تأثره بأستاذه وصديقه نجيب محفوظ دوراً أساسياً في اطلاعه الموسوعي على الأدب القديم وفي إحياء النصوص العربية المنسية وإعادة اكتشافها برؤية معاصرة وجادة. شارك في السنوات الأخيرة في المجال التلفزيوني وكشف النقاب عن عالم آخر يعيش بيننا. من المعمار والناس. رواياته تعتبر الأكثر انتشاراً على الشبكة العنكبوتية وهي مترجمة إلى العشرات من اللغات العالمية وخصوصاً الفرنسية. كان مثابراً على زيارة باريس دورياً منذ أكثر من ربع قرن وحاضر فيها وشارك في مؤتمراتها... حاصل على العديد من الجوائز الأدبية. توفي قبيل صدور هذا الكتاب جراء نوبة قلبية حادة.

ما من وسيلة للنفاذ إلى مدينة مثل المشي، أقيم في الحي اللاتيني دائماً عند نزولي في باريس، سان ميشال قديس معروف ومنطقة شهية تذكرنا بالحسين، أعرف الشوارع والأزقة والبيوت، منه أبدأ المشي إلى نهر السين القريب وأتجه إلى الحي اللاتيني مروراً بجسر أوسترليتز الذي وصفه الشيخ رفاعة الطهطاوي بدقة ضمن حديثه عن قناطر باريس. أمضي وقتاً في حديقة النباتات. أمر بالسان ميشال، كنيسة نوتردام، وأصل إلى ميدان الكونكورد. إنه من أكبر ميادين العالم. ما يمنحه الخصوصية تلك المسلة المصرية في قلبه. أظن أنها نصبت بعد عودة الشيخ رفاعة إلى الديار المصرية. لقد نقلت من مكانها أمام معبد الأقصر في عهد محمد علي باشا وأهداها إلى شارل العاشر ملك فرنسا عام 1829. وأقيمت في مكانها الحالي في زمن الملك لوي فيليب. تزن مائتين وعشرين طناً من الغرانيت. عاد الشيخ رفاعة إلى مصر عام 1831 بعد إقامة امتدت حوالى 6 سنوات. لم تكن المسلة قد ذهبت بعد وإلّا كان وصفها ودقق أمرها. هو الذي تجري المقارنة دائماً بين مصر وفرنسا في سائر ما يراه.

على قاعدتها رسم مذهب يوضح الطريقة التي نقلت بها عبر البحر. المسلة مركز المدينة. إذا وقفنا خلفها وتطلعنا إلى قوس النصر سنجد أنهما يقعان على خط واحد. يبدأ الطريق صعوده من أمام المسلة. وينتهي عند قوس النصر أو العكس.

في متحف اللوفر أمضي في كل زيارة وقتاً في قسم المصريات. أتأمل أجدادي الراقدين في لفائف الكتان هؤلاء الراحلين في مصر منذ آلاف السنين. سعوا إلى الخلود. هل كان هذا أو ذاك يظن أنه سيعرض يوماً في باريس أو لندن أو نيويورك أو تورينو أو بودابست أو هنا أو هناك. هنا المومياءات أثارت شجني ومن يدري؟... ربما كنت أنحدر من صلب أحدها؟! في القسم الخاص بالأبدية قناع لكم يشبهني!

لي طقوسي التي لا أحيد عنها، رغم وصولي إلى باريس متأخراً لم أنل حظي من النوم. إلّا أنني وضعت حقيبتي في مقر إقامتي في الحي اللاتيني، واتجهت على الفور إلى متحف اللوفر وأول ما أقوم به زيارة قناعي. أقف أمامه بعض الوقت، رغم الزحام إلّا أنني أدخل مباشرة إلى المتحف عبر باب جانبي مخصص للصحفيين. أبرز بطاقة صحفية دولية استخرجها من النقابة مقابل عشرين جنيهاً. هذه البطاقة توفر لي مئات الجنيهات... تسمح لي بدخول المعارض والمتاحف والمواقع الأثرية كافة في جميع أنحاء العالم. كما أنها تمنحنا كصحفيين الأولوية. بطاقة الصحافي في أوروبا والولايات المتحدة لها هيبة. أعرف طريقي مباشرة إلى الجناح المصري. أمام المدخل تمثال لمصري قديم عندما رأته ابنتي لأول مرة منذ سنوات: إنه يركع مثلنا مثل المسلمين. أطلعتها أيضاً على السجدة. مصري من فناني قرية دير المدينة. (سنجر رع) يسجد في جوار نهر في حقول بارو (اسم الجنة عند المصريين القدماء) اجتاز المدخل مباشرة إلى القسم الخاص بأدوات الموت. ما كان يستخدم من أجل التحنيط، في الفاترينة التي تتصدر القاعة.

قناع كلون بشرتي

قناع من خشب. تماماً كلون بشرتي. ربما لا تتفق ملامحه معي، لكن النظرة نظرة نابعة مني. عينان تحدقان إلى اللانقطة. إلى حيث لا يمكن التحديد، إلى ما وراء كل مرئي. تلك نظرتي. هكذا يصير حالي عندما أتخلص من كل شائبة تتعلق بي. الشفتان مضمومتان. تماماً كما أفعل عندما يستفزني حالي. دائماً ألتقط صورة إلى جواره. أبادله النظر. يترسخ يقيني أنه يمت إليّ بشكل ما. أعلق صورته في مكتبتي في بيتي لقطة نجح محمد ابني في تجنب انعكاس زجاج الفاترينة عليها. أبدو كانني أقف في مرآة.

للأقنعة عندي حديث طويل. إنه آخر ما كان يوضع فوق المومياء. إنها ملامح الراحل ترحل بدونه عبر الأزمنة التي لن يوجد فيها. قمة فن البورتريه في العالم نجدها في أقنعة البورتريه الشهيرة. لكن ملامحي الداخلية وجدتها في هذا القناع الذي عاش صاحبه في فترة الأسرة الثامنة عشرة، أي منذ حوالى ثلاثة آلاف وستمائة سنة، هل يمكن أن يكون لأحد الأجداد البعيدين الذين فقدت الصلة بهم. لا بد أن جدي كان يسعى في هذا العصر في موضوع ما في مكان ما لكل إنسان جدود لكل إنسان أصل ناءٍ غير معروف أتأمل وأتأمل وأكاد أنطق: من تكون؟ من؟ بعد زيارتي تلك يمكنني أن أبدأ برنامجي في باريس.

بعد زيارة اللوفر وبعد شراء مجلة اسمها «باريسكوب» تتضمن العروض الفنية كافة خلال أسبوع في المسرح، في السينما، في الفن التشكيلي، أقرأها بدقة وأحدد ما أرغب في مشاهدته طبقاً للوقت المتاح. قبل أن أشرع أبدأ بزيارة المكتبات، معرفتي باللغة الفرنسية ضعيفة. لكنها تكفي كي ألمّ بالعناوين. إضافة إلى خلفيتي الثقافية بمعنى أنني عندما أرى مجلداً يتضمن رسائل مارسيل بروست أدرك أهميته لأنني قرات «البحث عن الزمن الضائع» وأعتبرها من أهم الروايات في تاريخ الإنسانية، مكتبات باريس عالم قائم بذاته، هناك المكتبات العريقة العتيقة، التي تعرض الحديث في كل الفروع، وهناك المكتبات متعددة الفروع مثل «جيبير» وهناك المكتبات المتخصصة في باريس أربع مكتبات لا تعرض إلّا كتب الفوتوغرافيا أشهرها في شارع سان سولبيس في الحي اللاتيني وفن الفوتوغرافيا اكتشفت أهميته في باريس. إنه مواز للفن التشكيلي. وقد حملت العديد من أشهر مؤلفاته في حقيبة يدي وعبر عشر سنوات أصبح لأخبار الأدب مكتبة ثرية في هذا الفن يمكن أن نرى آثارها أسبوعياً في الجريدة. بالقرب من جريدة لوموند في شارع المدارس (رو دي زيكول) مكتبة متخصصة في المؤلفات الخاصة في السينما، العجيب أنني وجدت فيها العديد من أفيشات السينما المصرية في الأربعينات. الإعلانات التي

كانت تطالعنا فيها الحواري والدروب في القاهرة القديمة، الأفيش يباع بحوالي عشرة يورو فقط. كيف وصل إلى هنا؟ كيف احتفظت بها المكتبة؟ كيف نجد مثل هذه الإعلانات في باريس ولا نجدها في القاهرة؟ أسئلة لا إجابة عنها. يمضي التخصص في مكتبات الطب، في الهندسة، في مؤلفات وخرائط البحار، في العمارة. في السان ميشال مكتبة متخصصة في الكتب التي تتضمن دراسات وصوراً ولوحات للقباب وللوحات أخرى متخصصة بتصميمات الحقائب، الوقت الأطول أمضيه في تلك الخاصة بالفن التشكيلي.

في جوار مقهى الفلور ومقهى الدوماجو مقر المثقفين. خصوصاً سارتر وسيمون دو بوفوار وهمنغواي وأبولينير عرفت ذلك من صورهم المعلقة. ولافتات نحاسية صغيرة حفر على كل منها الاسم والفترة الزمنية التي كان يجلس فيها. ما بين الفلور والديماجو تقع مكتبة «هين» إنها من المكتبات الشهيرة بكتب الفن. الطابق الثاني فيها مخصص لأحدث ما صدر في مجالات الفن التشكيلي والفوتوغرافيا. إلى جوار مقهى الفلور مكتبة أخرى قديمة داخلها قسم كبير لكتب الفن، ثمة مكتبات لهذه النوعية فقط، أعرفها واحدة واحدة. خصوصاً تلك الواقعة في شارع السين ومكتباته. في شارع قريب أقف أمام الأرفف متأملاً المجلدات الضخمة حيث التعرف هنا أسهل لأن ما يعنيني هو اللوحات وخاصة الفن الحديث. أحب عنواناً لمجلد ضخم عنوانه «سنوات الجنون»، المقصود الفن التشكيلي الحديث بدءاً من بول سيزان وفان غوغ إلى الحركة السوريالية وما وراء الواقع وسائر هذه الاتجاهات. لا أميل كثيراً إلى فن العصور الوسطى لأن طابعه ديني اثنان فقط تعلقت بهما، من القرن التاسع عشر، كلاهما ينتميان إلى القرن السادس عشر، الأول هو جيروم بوتس من بلاد الفلمنك (هولندا) رائد بحق عوالمه تمتّ إلى الأحلام، إلى ما وراء الواقع، سوريالية قبل ظهور المذهب السوريالي في القرن العشرين. الفنان الثاني الأقرب إلى قلبي وذوقي هو بيتر بروجل عاش بعد بوتس في هولندا أيضاً لفت نظري إليه الأديب علاء

الديب عندما كتب عن روايتي «وقائع حارة الزعفراني» في مجلة صباح الخير وقال إنها بشخصياتها تشبه لوحات بروجل. بدأت أبحث عن بروجل وكان ذلك بداية علاقة حميمة بيني وبين هذا الفنان الذي يرسم لوحات مليئة بعشرات الشخصيات ذات التكوين الخاص. واقعي ولا واقعي. من خلال الكتب التي اقتنيتها عنه عرفت أماكن وجود لوحاته. وكلما نزلت بلداً تضم متاحفه إحدى لوحاته أو بعضها، في بودابست، في متحف الفنون الجميلة رأيت لوحتين لم أجدهما في كتاب عنه اللوحة الأولى عن صلب المسيح. ليست لوحة تقليدية إنما لوحة بطريقة بروجل ورؤيته التي تسودها روح أقرب إلى السخرية، اللوحة الأخرى عن يوحنا المعمدان، الاثنتان نادرتان لأن بروجل كان يرسم الحياة اليومية بكل تفاصيلها. ولحسن حظي أثناء زيارتي لسويسرا عام اثنين وتسعين من القرن الماضي رأيت في جنيف معرضاً لتخطيطات ورسوم بروجل بالأبيض والأسود. لا شيء يعادل رؤية الأصل مهما بلغت دقة طباعة الكتب وبراعتها. أي كتاب عن بروجل أجده أقتنيه فوراً، وهذا شأني مع فنان بلجيكي آخر من عصرنا هو رينيه ماجريت الذي عرفت القراء بأعماله لأول مرة في جريدة (أخبار الأدب). مئات الكيلوغرامات من كتب الفن الضخمة حملتها في حقيبتي التي فصّلها لي خصوصاً الحاج أحمد شفاه الله لتكون أشبه برف متحرك. معظم هذه الكتب اقتنيتها من مكتبات (الصولد) في باريس.

في باريس، في سائر المدن الفرنسية، مكتبات متخصصة في بيع الكتب التي صدرت في الأعوام السابقة، ليست كتباً مستعملة، لكنها المرتجع الذي يكلف مبالغ كبيرة، عندئذ تشتريها شركات متخصصة.

الدرس

الحي اللاتيني. باريس. المركز الثقافي والروحي لفرنسا. حيث جامعة السوربون والكوليج دو فرانس. والبانتيون حيث يرقد عظماء فرنسا إلى الأبد. والمكتبات الشهيرة ومعاهد العلم والأبحاث. منطقة تذكرنا

بالقاهرة القديمة أحرص على الإقامة فيها والعيش خلال أزقتها وشوارعها الضيقة باستمرار كلما نزلت باريس.

في شارع هوشيت يوجد مسرح يحمل الإسم نفسه، ذو واجهة صغيرة تعلن استمرار مسرحية الكراسي ليوجين يونسكو.

كاتب المسرح الروماني الأصل، أحد أقطاب موجة اللامعقول في المسرح. تعلن اللافتة استمرارها للعام الثاني والخمسين. استمرار المسرحية أكثر من نصف قرن لمما يثير الفضول. لا يتغير المتفرجون عبر الأجيال فحسب بل الممثلون والفنانون أيضاً أي كل من لهم صلة بالعرض. كثيراً ما توقفت أمام نافذة التذاكر متردداً. أتأمل صور العروض والمقالات المنشورة عنها عبر نصف قرن وفي كل مرة أسال نفسي كيف سأفهم وأنا لا أتقن اللغة الفرنسية إلى أن حزمت أمري الأسبوع الماضي عند زيارتي باريس وقررت أن أشهد العرض مدفوعاً بحبي ليونسكو الذي أقرأ بعض أعماله في كل سنة مرة. تماماً مثل قصص تشيخوف ومبي ديك لهرمان ملفيل والقضية لكافكا وجسر على نهر درينا لايفو أندرييتش والجريمة والعقاب لدويستوفسكي. قليلون أولئك الكتّاب الذين اقتربوا من الحياة الإنسانية ونفذوا إلى معناها الدقيق الخفي... بالتأكيد يونسكو أحدهم. لحسن الحظ أعماله في متناول القارئ العربي ترجمها الدكتور حمادة إبراهيم المتخصص في أدبه ثم صدرت في مجلدين عن الهيئة العامة المصرية للكتاب هكذا صحبت معي النص مترجماً إلى اللغة العربية. قرأت مرتين في الطائرة. وعند وصولي ثم اتجهت إلى المسرح لأحجز مكاناً في حفلة الغد (الاثنين). أصبحت أحفظ النص تقريباً بالعربية بحيث يمكنني متابعة العرض وفهم ما يجري على خشبة المسرح باللغة الفرنسية التي لا أتقنها.

انتظمت في طابور صغير يتكون من حوالى خمسة عشر شخصاً كان بينهم رجل عجوز ربما تجاوز التسعين ولحسن الحظ لم يكن هناك مطر إذ سبق في صباح اليوم نفسه أن وقفت منتظراً في طابور امتد أكثر

من كلم لكي أصل إلى مدخل متحف أورسيه للفن الحديث الذي كان في الأصل محطة للقطار وتم تحويلها إلى متحف من أحدث متاحف العالم اضطررت للوقوف أكثر من ساعة ونصف الساعة حتى أصل إلى المدخل لأدخل ببطاقتي الصحفية وكان المطر غزيراً حاولت الاحتماء منه بالمظلة. كذلك كان الأمر عندما اضطررت إلى الانتظار وقتاً أقل في الفناء الفسيح المؤدي إلى متحف بيكاسو حيث كان المطر غزيراً أيضاً. الطوابير في باريس أمام المتاحف وأمام صناديق الدفع في المكتبات... عقبى لنا.

على أية حال لم يكن هناك مطر في ذلك المساء لكن الانتظار طال أمام النافذة الضيقة جداً رغم محدودية عدد الواقفين وعندما أبديت الدهشة وخاطبت أول الواقفين بالانجليزية ابتسم وأشار إلى النافذة قائلاً إن السيدة تتحدث بالهاتف استأذنت الواقف خلفي وتقدمت لأرى كانت السيدة متقدمة في السن تتحدث عبر الهاتف بلا انقطاع وخلال حديثها لا تكف يدها عن الحركة بدا لي الأمر وكأنه جزء من مسرح يونسكو خصوصاً أن حديثها طال أكثر من نصف ساعة أخيراً تحرك الطابور وعندما وصلت إلى النافذة سألت عن إمكانية حجز مقعد مساء اليوم نفسه فقالت لي إن ذلك ممكن بعد أقل من ساعة فتح الباب الذي رسم عليه لوحة من الأبيض والأسود لجنود من سكوتلانديار لافتة ولوحة لم تتغير منذ سنوات.

دخلت إلى قاعة المسرح كأنني انتقلت إلى زمن آخر كل ما في المسرح يذكر بالقرون الوسطى الجدران مغطاة بزخارف يغلب عليها اللون القرمزي كذلك.

الأستاذ: كم يساوي واحد وواحد؟

التلميذة: واحد وواحد يساوي اثنين.

الأستاذ: (مندهشاً من معرفة التلميذة) أوه شيء عظيم إنني أرى أنك متقدمة جداً في دراستك سوف تحصلين بسهولة على الدكتوراه الكلية يا آنسة.

التلميذة: إنني سعيدة جداً. ولاسيما أنك أنت أستاذي يقول ذلك.

الأستاذ: نتقدم قليلاً. كم يساوي اثنان وواحد؟
التلميذة: ثلاثة.
الأستاذ: أربعة وواحد؟
التلميذة: خمسة
الأستاذ: خمسة وواحد؟
التلميذة: ستة.

يســـتمر الحوار هكذا حتى يقول الأستاذ:
هائل أنت هائلة أنت مرموقة. أهنئك. بحرارة. لا داعي للاستمرار. بالنسبة إلى الجميع فأنت رائعة. والآن إلى الطرح. قولي لي شرط ألّا تكوني متعبة كم يساوي أربعة ناقص ثلاثة؟

يســـتمر الحوار في التصاعد المتوتر وتضطرب الإجابات بقدر اضطراب الأســـئلة بينما يبدو الأستاذ عصبياً. تمتزج نظراته تجاه التلميذة بالقســـوة والرغبة معاً. تشتبك النظرات وتفترق. تبدو التلميذة مرهقة متعبة.
التلميذة: خمســـة... إذا كان ثلاثة وواحد يساوي أربعة فإن أربعة وواحداً يساوي خمسة.
الأســـتاذ: ليس كذلك. ليس كذلك أبداً. إنك تميلين دائماً إلى الجمع ولكن يجب أيضـــاً أن تطرحي. لا ينبغي دائماً أن ندمج يجب أيضاً أن نفصل هذه ستارة المســـرح يتسع لحوالي أربعين متفرجاً المكان صغير وكانه أحد المســـارح التجريبية. لا توجد أرقام محددة للجلوس. بل يحق لكل متفرج الجلوس حيثما يشـــاء. اخترت مقعداً في منتصف المســـافة حتى يمكن لي رؤية المنظر العام. أغلق الباب ولم يكن هناك مكان خال. خفتت الأضواء بالتدريج ثم ارتفع الســـتار. حالة بيت الثاث يوحـــي بالقدم. مكتب بدون أدراج. إلى جانبه مقعدان. ثمة بابان في الجدار لفترة غير قصيرة يظل المقعد خالياً. ثم نســـمع صوت الخادمة آتياً مـــن الخلفي تجيب بعد رنين الجرس: حاضر... حالاً...

النطق بالفرنسية يستدعي النص الذي قرأته بالعربية. تظهر الخادمة امرأة متينة البنيان. جسورة النظرات. لا أدري لماذا تذكرت «ريا» في مسرحية ريا وسكينة وهي التي تفتح الباب وتدخل التلميذة.
في المسرحية يحدد يونسكو عمرها بثمانية عشر عاماً. لكن الممثلة التي ظهرت على خشبة المسرح تتجاوز الأربعين غير أن ثيابها مدرسية وترتدي جوروباً قصيراً وتمسك حقيبة صغيرة من حقائب التلميذات الصغيرات.
التناقض بين هيئة التلميذة وملامح الوجه المتقدم في العمر. يبدو أنه إضافة من المخرج. إذ لا يوجد أثر لهذا في النص. بعد أن تجلس التلميذة في المقعد الأيمن تخرج الخادمة لاستدعاء الأستاذ. في هذا الوقت تتصرف التلميذة وكأنها إنسان آليّ وتخرج كراسة تتلو بعضاً مما دون فيها. الصوت سريع وكأنه صادر عن أسطوانة تدور بأسرع مما قرر لها. يظهر الأستاذ. إنه ضخم. طويل القامة. متقدم في العمر. يرتدي حلة من طراز سموكنغ. الممثل حضوره قوي.

الأستاذ: صباح الخير يا آنسة... أنت. أنت طبعاً التلميذة الجديدة أليس كذلك؟
التلميذة: (تلتفت في حيوية بادية الرشاقة في انطلاقة الفتاة الاجتماعية. تنهض تتقدم نحو الأستاذ. وتمد يدها) نعم... لم أحب أن أصل متأخرة.
هذا ما جاء في النص المكتوب فوق خشبة المسرح. التلميذة تبدو مبتسمة دائماً ولكن في لحظة معينة تغير هذه الابتسامة خصوصاً مع تصاعد الحوار وبدء الدرس الذي يبدأ عادياً. ثم يتعمق ويتطور. وتتحول ملامح وجهها إلى خوف. ثم إلى إرهاق. ثم إلى ذعر في النهاية يسأل المدرس: هي الحياة وهذه فلسفتها وهذا هو العلم وهذا هو التقدم والحضارة.
التلميذة: نعم يا سيدي.

خلال الدرس تدخل الخادمة تتطلع إلى الأستاذ بقسوة واحتقار معاً وسيطرة إنها تمارس عليه تأثيراً ما شيئاً فشيئاً تصبح التلميذة مرهقة إلى درجة الانهيار وعندما تسقط فوق المقعد. يتقدم المدرس ليطعنها

بالسكين وتأتي الخادمة لتحمل جثتها إلى الخارج يقف المدرس منهكاً ويخرج. وتخلو الخشبة عدة دقائق ثم يرن الجرس. وتظهر الخادمة لتفتح الباب لتلميذة جديدة وليبدأ درس جديد وينتهي مصير.

كان التمثيل رائعاً. ثلاثة. المدرس والتلميذة والخادمة. سيطروا تماماً على المسرح وعلى المتفرجين. وبالنسبة إلي كانت تجربة هي الأولى في نوعها أن أتابع عرضاً مسرحياً بلغته وأن أتلقاه بلغة أخرى في رأسي. تكرر التصفيق الحار. وتكرر رفع الستار وإسداله. وعندما خرجت كان العرض قد ترك عندي أسئلة عديدة. أبسطها إلى ماذا يرمز المدرس؟ والخادمة والتلميذة؟ لماذا الموت المفاجئ؟ أي درس هذا؟ كنت مزدحماً بالأسئلة. وهذا جوهر الفن العظيم أن يطرح من الأسئلة ما يدفعنا إلى محاولة التوصل إلى أجوبة. أما العرض نفسه فقد ترك أثراً عميقاً مؤكداً الفرق الشاسع بين أن تقرأ النص المسرحي وبين أن تشاهده.

مـــازلت أرى عينيـــــك في أرجائهـــا

سامي كليب

من مواليد لبنان حامل الجنسيتين اللبنانية والفرنسية. حاصل على ليسانس إعلام من الجامعة اللبنانية، وماجستير ثم دبلوم دراسات عليا من السوربون الفرنسية حيث درس التحليل البراغماتي للخطاب السياسي والإعلامي. عمل في مؤسسات إعلامية عديدة منذ عام 1989 أبرزها: رئيس تحرير في إذاعتي فرنسا الدولية ومونت كارلو الدولية، مستشار رئاسي لرئيس الهولدينغ الإعلامي الذي يضم فرانس 24 وإذاعتي فرنسا الدولية ومونت كارلو الدولية. مدير مكتب ومراسل صحيفة السفير اللبنانية في باريس ومندوبها إلى دول عديدة. مراسل متجول لتلفزيون LBC مقدم برنامجي زيارة خاصة والملف على قناة الجزيرة، كاتب في صحف ودوريات عربية وأجنبية مختلفة حيث غطى معظم أحداث وحروب أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي. ومنذ عام 2011 مدير أخبار ومقدم برنامج لعبة الأمم على قناة الميادين.

عينان لَمَعَتا للمرة الأخيرة ثم أغمضتا إلى الأبد، كانتا سبب هجرتي إلى باريس. كلمة هجرة تليق أكثر من رحلة. الأولى دائمة والثانية موقتة. كان الموقت هدفاً، فصار الدائم محتوماً. كانت باريس صورة في روايات طفولتنا فغدت موطناً بديلاً بعيداً عن القصف والاقتتال والدماء في بيروت.

لم تكن باريس طارئة على خيالي. كل قصص الأطفال في مدارس الراهبات حكت لنا عنها. كل أمثلة وحكايات معلماتنا في مدارس طفولتي ومراهقتي دارت حول جمالها وحضارة أهلها. لم أعرف جدنا أبا الطيب المتنبي إلا متأخراً. لم أتعاطف مع عذرية حب جميل بثينة وغزل وإباحية عمر بن أبي ربيعة إلّا في سنوات لاحقة. تعلَّمت أن الشِعر الفرنسي أرقى وأن أدب بلاد موليير وراسين وأراغون وكامو ودوراس أعمق وأجمل. اعتقدت أن لا ثقافة راقية في العالم أكثر من ثقافة فرنسا. ولا أدب يستحق هذا الاسم إلّا في فرنسا. انتظرت أكثر من ربع قرن لأكتشف أن الشاعر الفرنسي النبيل ألفونس دو لامارتين الذي التحف لاحقاً قضايا الفقراء والعبيد، الشاعر الذي عشق الشرق وهام بقُدسه، لم يتغزل فقط بحبيبته عبر قصيدته الشهيرة «البحيرة» التي حفظناها عن ظهر قلب في المدارس الفرنسية الاتجاه، وإنما أبدع نصوصاً كثيرة أخرى عن شرقنا. بين تلك النصوص واحد عن رسول الإسلام عنوانه «مَن أعظم منك يا محمد». جاء فيه، وفق الترجمة الراقية للعلامة الموريتاني المبدع د. محمد المختار ولد أباه: «فمن ذا الذي يتجاسر أن يقارن محمداً بأي عظيم من عظماء التاريخ؟».

قلت في نفسي بعد ربع قرن: «ومن كان بيننا يتجاسر ليقول ونحن على مقاعد الراهبات أن ثمة مدينة في العالم أجمل من باريس؟». ضحكت وفي قلبي حب كبير لأولئك الراهبات اللواتي بفضلهن اكتسبت ما فتح لي طريقاً جيداً صوب المستقبل، وسهَّل أمامي سبيل الوصول إلى باريس. آه يا باريس ما أجملك في حنانك، وما أقساك في برودك، فأنت كطقسك، تارة صافية وأخرى راعدة، لكنك في الحالتين تبقين الحبيبة

الأجمل بين مدن الغرب. هكذا كنت أحدثها كلما عدت إليها من سفر أثناء دراستي في جامعاتها الراقية. وهكذا كنت ألاقيها مع كل رجعة إليها بعد مهمة صحافية إلى بؤر النار في العالم. وهكذا كنت أجدها، فاتحة لي ذراعيها مع كل عودة من مدينتي الأولى وحبي الأول بيروت، حاملاً صور المدينة المحترقة بجور أهلها عليها وتقاتل الآخرين على أرضها.
ومن بيروت كنت أحمل ذكرى تينك العينين اللتين من أجلهما هاجرت إلى فرنسا.

الديك الرمز

كان يضحكني وأنا طفل على مقاعد مدارس الراهبات أن «الديك» هو رمز من رموز بلدي الجديد، فرنسا. تقفز إلى مخيلتي، فجأةً، دجاجاتُ عمَّتي في قريتنا الجبلية. تلمع عيناي وأنا أراقب الديك يجري خلف الدجاجات. لا أفهم لماذا ينقر الدجاجة في رقبتها كلما مارس الجنس معها وفوقها. تُهرول الدجاجات هاربة يمنةً ويسرة بين العشب الأخضر اللامع في حقل عمتي. تستكين واحدة منها، في كل مرة، تحت سطوة الديك. توحي الدجاجة المسكينة، بأنها تمارس الجنس مرغمة، ثم تنفض ريشها وتهرب. فيركض الديك صوب أُخرى. غالباً ما ربطنا هذا الرمز الفرنسي بما اعتقدناه عن إباحية الحياة الفرنسية. كان الأمر يغرينا نحن الفتيان الصغار في مدارس الراهبات فنحلم بالسفر يوماً إلى فرنسا لنصبح ديكة باريس.
تقمعنا الراهبة إذا ما تضاحكنا، وتضربنا بالعصا السميكة والمسطحة (المِسْطَرة) على أيادينا إذا لم نفسر لها سبب الضحك. وكيف نستطيع أن نفسِّر لها تلك الأفكار الشيطانية

كنا نخاطبها بالفرنسية. هي اللغة الوحيدة المسموحُ لنا استخدامُها للتخاطب فيما بيننا ومع معلماتنا في مدارس الراهبات، فكيف إذا كان المُخَاطَب بصرامة «الأخت متّى»؟ لم نكن نعرف اسمَها الكامل. مجرَّدُ ذكر اسمها على نحوه الراهن كان كفيلاً بإنزال الرُعب في رُكَبِنا. نهرع أمامها إلى

صفوفنا كالدجاج وهي تلاحقنا بصوتها كديكٍ غاضب. والأنكى، إنه حتى في الخوف والهرب ممنوعٌ علينا التعبير بالعربية. من «يخطئ» ويتحدث بلغة الضاد عليه أن يأخذ مكعَّباً خشبياً صغيراً يضعه في جيبه اسمه «Signal». يبقى المكعَّب معه حتى يسمع تلميذاً آخر يتحدث العربية فيعطيه السينيال، ومن يستقر المكعَّب في جيبه آخر النهار يكن نصيبه عقاب الراهبة متَّى. مع ذلك فتلك «الأخت الكبيرة» كما كنا نسمِّيها، كانت حنونة تحبنا كأولادها الذين لم تنجبهم. فلا تتردد في أخذ الواحد منا إلى ديرها مع الراهبات لمشاركتهن في طعامهن. كنا نبادلُها الحبَ والخوفَ بالإسراع صوبها وتقبيلِ الصليب الخشبي المتدلي فوق ثيابها.

لم أر ديَكاً ولا راهبةً ولا أطفالاً حين وصلت إلى باريس. هجر الباريسيون كنائسهم منذ زمن طويل. هم يفاخرون بعلمانيتهم المقاربة حدود الإلحاد. غالباً ما كنت أرى قرب بيتي الباريسي، كل مساء سبت أو ظهر أحد، صفوفاً طويلة من الباريسيين أمام باب المسرح، بينما الكنيسة المجاورة خالية إلّا من بعض المتقدمين بالسن. كانت الكنيسة تبدو كسيدة هرمة هجرها عشاقها لتقدُّمِ العمر.

وصلت إلى باريس في المرة الأولى يوم أحد. كان الطريق من مطار شارل ديغول إلى قلب العاصمة يمرُّ بين حقول القمح والذرة والخضار. تستلقي الأشكال الهندسية الجميلة في تلك الحقول الرائعة غير آبهة لشيء. تراوح الألوان بين الأصفر والأخضر والبني والأحمر. أُبدِّلُ ناظريّ بين اليمين واليسار. كل شيء أنيق وهادئ. كل شيء يختزل عقوداً طويلة من السعادة. تجتاح مخيلتي صور آخر القذائف المنفجرة قرب بيتي في كورنيش المزرعة ببيروت. أحاول أن أُبعد الصور القاتمة لأتمتع بما أرى الآن. أراقب بشيء من الدهشة دواليب الهواء دون أن أعرف سرَّها. تنساب من مذياع التاكسي أغنية لذاك الفنان الإنساني النبيل جورج براسينز. له أغنية كنا نحفظها منذ مراهقتنا. تتحدث عن العشاق الذين يتبادلون القبلات كالطيور على المقاعد العامة (les amoureux des

bancs publics). أتذكر الديـ. يغيِّر السائق محطة المذياع صوب أخرى تصدح بأغانٍ أفريقية الوقع. تناقضُ سحنُته السمراء الشديدة، تلك الصور التي حفظتها في روايات طفولتي في مدارس الراهبات عن أهل باريس ذوي الشعر الأشقر والبشرة الناصعة والعيون الزرق. لم يحدثني سائقي الأفريقي طوال الطريق سوى للسؤال عن مقصدي. أستغرب لغته الفرنسية الغريبة عن تلك التي عهدتها في مدارس طفولتي. أفكر بأنه تطبع بالطباع الباردة لأهل باريس لكن لهجته بقيت عصيَّة على التطبيع.

ليس في الطريق ما يثير القلق. هنا لا قذائف، ولا رصاصة طائشة، ولا حاجزاً للمقيمين والطارئين. وحده ذاك الديك الحديدي الواقف مزهواً فوق عمود وتحته حرفا «O» و«E» للإشارة إلى اتجاهي الغرب والشرق يُعيدني إلى ابتسامات رفاقي في مدارس الراهبات. أدركت لاحقاً أن «الديك هو من أكثر الرموز شعبية في التاريخ الفرنسي». كان الرومان يرون فيه تجسيداً لأهل بلاد الغال (هكذا كان اسم الفرنسيين). وفي القرن السابع راح الكتَّاب يصفون الملكين لويس السابع وفيليب أوغوست بالديك. وفي عصر النهضة بات الديك رمزاً لعدد من ملوك فرنسا، ثم غاب عن الألسن في عصور الأنوار ليعود أقوى في خلال الثورة الفرنسية، لكن نابوليون استبدله بالنسر، ولويس-فيليب وضعه على العلم وأزرار الثياب العسكرية للحرس الوطني قبل أن يصبح شعار الجمهورية الفرنسية الثالثة. لماذا لم تحدثنا الأخت متى عن الديك؟ ربما بقرارة نفسها كانت تعتبره أقل قيمة من عظمة فرنسا.

كان الغرور بالنسبة إلى البعض، والعنفوان والأرض بالنسبة إلى الآخرين، سبب التركيز على الديك شعاراً. حين وصلت إلى الغرفة التي استأجرتها في الدائرة 16 في باريس، وهي دائرة راقية بين الدوائر العشرين للعاصمة، حملقت بي السيدة السبعينية العمر كأنما تتفحص كل خليَّة في جسدي وثيابي. اقتربت مني موحية بشيء من الاستعلاء، وقالت كمن يلقي خطاباً: «تعرف شروط الإقامة هنا، لا ضجة، ولا ضيوف، ولا إسراف

في استخدام المياه، وتسديد الإيجار يتم قبل يوم من آخر كل شهر».
أوحيت بالموافقة على كل ما تفوَّهت به. شكرتها بلطف وابتسامة، وحملت حقيبتيَّ الثقيلتين أجرُّهما صوب الغرفة. وضعت المفتاح في الباب النظيف وابتسمت. قلت: «يبدو أن النساء أيضاً ديكة في هذا البلد»... لم تمض أشهر قليلة حتى صرت رفيق النزهة اليومية لصاحبة الغرفة، ومَوئلها كلما ألمَّ بها مرضٌ، وسميرها لو قرع على باب قلبها ملل. رأيت فيها شيئاً من أمي التي تركت دمعتها تخونها وهي تلوح لي مودِّعةً ومتكئةً على باب بيتنا الحجري الجميل، وهي رأت فيَّ أنيسَ وحشتها.

قاربت الساعة التاسعة ليلاً في ذاك اليوم المودِّع شهر آب/ أغسطس. لم تكن الشمس قد غابت تماماً. لايزال ضوء النهار ودفئه يُرخيان بهيبتهما على باريس. نزلت على الدرج الخشبي المغطى بسجادة حمراء من نوع «الموكيت» وحافة ذهبية لامعة. فوق كل درجة قضيبٌ أصفر يحمي النازل من السقوط. شكلُ الدرج وأناقةُ السجادة يشجعان على النزول من فوقه وليس بالمصعد. نزلت الهوينا متأثراً بخطاب صاحبة الغرفة وأوامرها «لا ضجة هنا».

لا أدري لماذا تذكرت أيضاً معلقة الأعشى يقول:

تسمعُ للحَلي وسواساً إذا انصَرَفَتْ كما اســـتعانَ بريحٍ عِشـــرِقٌ زَجِلُ
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراهـــا لســـرّ الجـــار تختتـــلُ

ضحكت وأنا أتخيل الفرق بين سيدة الأعشى وسيدتي الفرنسية. أقفلت الباب خلفي برفق وربما بكثير من المغالاة في الرفق كي لا أثير غضبها وخرجت استنشق للمرة الأولى روعة المدينة.

تمتد الدائرة 16 من نهر «السين» حتى حدود الشانزليزيه.
أنا إذاً بين اثنين من أجمل معالم العاصمة. فرحت. استنشقت الهواء ملء الرئتين غير آبه بأن أشجار العاصمة لا تحميها من التلوث. كيف لا أفرح

وأنا تارك خلفي بيوتاً مدمرة ونفوساً مدمرة واقتتالاً شرساً بين رفاق الأمس في بيروت. اختلط الحابل بالنابل في منتصف الثمانينيات. قاتل الرفاق الرفاق. انهمرت القذائف فوق البيوت والأبرياء. لم يعد القتل يأتي من الاقتتال الدموي الضروس بين شقي العاصمة وإنما صارت القضايا تنحسر شيئاً فشيئاً لتضيع على مذابح ومصالح أكبر من لبنان وأهله.

حبّ فوق «السين»

كانت غرفتي في تلك الدائرة الفرنسية تقع على مقربة من ساحة «تروكاديرو». هكذا شاءت الصدف، أول اسم ساحة يصادفني في فرنسا يَرِنُّ تاريخاً من الحروب وويلاتها. أخذت الساحة اسمها من انتصار الحملة العسكرية الفرنسية على ثوريي إسبانيا في حصن تروكاديرو الشهير. أعقب الانتصارَ، ترسيخُ الحكم المطلق للملك فرديناند السابع. الدماء وحدها هي التي تكتب التاريخ وتصنع الساحات وتبني مجد الطغاة. سرعان ما لفتني قصر «شايو» وعليه إعلان لمعرض منحوتات أفريقية دعماً للمناضل-الأسطورة نلسون مانديلا. قرب المعرض، إعلانُ حقوق الإنسان يرتفع بزهو فوق صرح مجاور. التاريخ إذاً هنا، خليط من الدماء والثقافة والحرية والفن. ممتاز. بَدَت رحلتي من مطلعها أكثر جاذبية مما ظننت. قررتُ أن أذهبَ صوب نهر «السين» القريب. أريد التحقق من صدق روايات قرأتها في مدارس الراهبات والإرساليات الأجنبية المسيحية عن جمال النهر وسعادة العابرين فوقه والمقيمين عند ضفتيه.

قارب الليل منتصفه حين وصلت إلى النهر. بهرتني مراكب السياح الضاجة ببهجة راكبيها. تَمخُرُ المراكبُ الكبيرة عبابَ النهر. تخترقه فيزبُد عند جانبيها. ينتشر ضوؤها فوق الماء. يمتزج الضوء مع صوت الدليل السياحي وبعض موسيقى جاك بريل وشارل أزنافور وأديت بياف وجورج موستاكي وميشال ساردو وداليدا. يصل انعكاس الضوء إلى وجهي. أغمِضِ عينيَّ قليلاً لأحجب شيئاً من قوة الضوء. يُلوِّح السياح لي وللآخرين

مثلي عند حافة النهر بالتحية من على المركب. نرد التحية بمثلها. أفكر في نهر الموت في بيروت. كم من الجثث تجمعت في قعره لأجل اللاشيء هناك، وكم من العشق يتجمع في قعر هذا النهر الفرنسي هنا. نقتل الحب في أوطاننا فنذهب للبحث عنه في أوطان الآخرين. أفكّر في تينك العينين اللتين لأجلهما جئت إلى فرنسا.

«هل تحمل سجائر؟» تسأل الشقراء الفرنسية المغناج بشيء من اللامبالاة. تفضح لكنتُها أصلَها. هي من منطقة «بروتانيّ» الفرنسية التي يحافظ أهلها على لغتهم وثقافتهم وهويتهم الخاصة. يحلم بعضهم حتى اليوم بالانفصال. تذكرت إحدى معلماتنا الفرنسيات في لبنان كانت من تلك المنطقة وكانت أكثر حناناً وحرارة من بقية الفرنسيات.

معظم فتيات منطقة «بروتانيّ» شقراوات ومبتسمات. طباعُهُنَّ تناقض طباعَ الباريسيات اللواتي كجُلِّ أهل باريس لا يبتسمون إلا في المناسبات السعيدة، أو حول مائدة وقنينة نبيذ. هي حياة المدن لا شك، لكن في عاصمة الفرح، الحياة والتأفف صنوان. «BOF» كلمة أو بالأحرى صوت يسمعه الأجنبي الواصل حديثاً إلى باريس فلا يفهمه. سرعان ما يُضطر لفهمه واستخدامه. في هذا الصوت ما يجمع الاستياء باللامبالاة. لكن فيه أيضاً ما هو أكثر احتراماً من كلمات كثيرة أخرى يكررها الباريسيون تحمل دلالات عديدة على استيائهم لكنها لو تُرجمت لصَدَمَت الواصلَ حديثاً، في مقدمها مثلاً كلمة «Merde» (غائط).

أتأمل الشقراء قليلاً عند حافة النهر. تكاد تختزل كل الصور الجميلة التي حفظتها من الروايات الفرنسية في مدارس الراهبات. أنظر قليلاً صوب عينيها المختلط فيهما فعل الكحول بلونهما الأخضر. أعتذر منها لكوني غير مدخن ولا أحمل سيجارة. يظهر بعض من ثدييها خلف القميص الشفاف المشقوق حتى منتصف البطن. أستعيد صورة دجاجات جدتي. أبتسم، تبتسم لسبب آخر حتماً، وتعود إلى مكانها مع

صحبها. يرتفع صوت جاك بريل. تقول الأغنية «دعيني أكون ظل كلبك... لا تتركيني». أكتشف بعد سنوات أن حب الباريسيين للكلاب والقطط الأليفة قد يوازي حبهم لأولادهم. تضم فرنسا أكثر من 18 مليون كلب. لا تتردد في وسم بعضهم بالنياشين في أعيادها الوطنية. هل يجرؤ عربي أن يقول لحبيبته «دعيني أكون ظلاً لكلبك؟ »... قد يكون الحب عندنا أعمق لكنه في باريس حتماً أصدق وأكثر صراحة. نقتل الصراحة في أوطاننا.

بيروت - باريس الفرح والحزن صنوان

لا تفسير لاختلاط مشاعر الفرح بالحزن في تلك الليلة الصيفية الجميلة عند حافة نهر السين. ثمة نقطة قائمة بين الفرح والحزن تشبه إلى حد بعيد المنطقة الفارغة في الفضاء. لحظة الصفاء هي، أم هي لحظة اللاشيء، أم لحظة كل شيء. ليس مهماً. الأهم أنها لحظة لا يشعر معها المرء بشيء من حوله وكأنما التقاء الأضداد يخلق العدم. لعل رغبة في العدم كانت تدغدغني لأنسى بلداً مدمراً هَجَرتُه واستقبلَ حُلُماً جميلاً حملته إلى باريس.

لم أحدّث أحداً في تلك الليلة سوى العجوز صاحبة الغرفة الواقفة عند حفافي العمر، وهذه الحسناء الشقراء المقبلة على وهج الحياة عند حافة «السين». لم أفعل شيئاً غير السير في باريس والتمتع بنهر السين وبكل ما صادفني في طريق من بشر وحجر. انتبهت لتربع القمر في قرص السماء. تذكرت كيف يتربع القمر فوق الجبل في قريتي.
تراءت لي النجوم هناك قريبة إلى حد كنت أخال وأنا فتى بأني قادر على التقاطها لو نزلت قليلاً بعد. جلست عند حافة النهر وتركت قدميّ تتدليان صوب مائه دون ملامسته.

كانت رحلتي الأولى إلى باريس محض صدفة. اشتدت وطأة الحرب في بيروت. شعرت بسقوط القضايا وانهيار القيم. وقفت على

شرفة منزلنا ونظرت إلى العاصمة. طرحت سؤالاً واحداً من فوق المدينة المحترقة: «ألم تيأسوا بعد؟». لم أوجه سؤالي إلى شخصٍ محدد. أردت أن أسجِّله للتاريخ.

كانت العاصمة تحترق. الطوائف تنهش الطوائف على مزابل الحاضر. الإيديولوجيات تقتل الإيديولوجيات فوق جثث التاريخ. القضايا تصبح عاهرات عند مفترقات الطرق. تسقط الجغرافيا في فخاخ التآمر، تسقط الأحلام في مجارير المدينة.

«آه يا مدينتي الجميلة كم أحببتك وكم أكرهك». أتمتم على شرفة المنزل المطل على الطريق. تعبر أمامي سياراتٌ قليلة ومسرعة خوفاً من رصاصة قناص أو قذيفة طائشة. تعبر مخيلتي أسئلة أكثر. كلها مقلقة ومضرَّجة بالخوف واللامبالاة. لامبالاة العدم حين ينتصف الطريق بين الموت والحياة. كلاهما جميل وكلاهما بشع.

تضيق المدينة بالليل الطويل. يمر بائع الترمس في منتصف الليل عائداً ككل يوم إلى منزله. يبدو غير آبه لرصاصات القناصة المتقطعة في منتصف المسافة بين الليل والنهار. ربما يؤثر الموت على العودة دون محصول لأولاده، هذا إذا كان عنده أولاد، وإذا كان أولاده بخير.

أتابع حركة بائع الترمس، حركة ثقيلة ولكنها متواصلة على بطء رغم استواء الطريق. تأكل المدينة فقراءها. أقرر الرحيل.

في طريق العودة من نهر السين عند الثانية فجراً، كان متسوِّل يرتشف آخر نقطة من قنينة النبيذ. توحي سحنته أنه من أوروبا الشرقية. لم يكن الاتحاد السوفياتي قد تفكك بعد ولا بيريسترويكا ميخائيل غورباتشوف قد حطت رحالها. يجلس فوق فراش من الإسفنج وحوله بعض المأكول منثور بفوضى عارمة، وشيء من النبيذ وربما البول يجاور الفراش. هو لا يرى شيئاً من كل هذا، يكتفي بقول شعر بلكنة فرنسية

مفككة. يضحك على صوت عال ويلعن الحياة والناس والعاصمة. ليست مدن الحروب فقط هي التي تأكل أبناءها إذاً. شعرت بشيء من البرد رغم ذاك اليوم الصيفي الدافئ. أسرعت الخطى في طريق العودة. لم يكن برداً، ربما هكذا خُيِّل إلي. خفت أن تختبئ لي الحياة هنا بعض صورها القاتمة. فكرت في العينين اللتين من أجلهما جئت إلى باريس.

شحاذ باريس أم قنابل بيروت

ليست الحرية في باريس مقصدي ولا هي هدفي. بيروتنا الجريحة فيها من الحرية ما يفيض. لا بل قل فيها من الفوضى ما جعل للحرية بيئة خصبة تنمو وتكبر فيها بطريقة قلّ نظيرها في العالم. كانت الراهبة في مدارسنا الابتدائية تقول: «إن الحرية لا تعني فقط حرية الكلام والمعتقد والعادات الاجتماعية، وهي لا تعني مطلقاً الغرق في الفوضى، وإنما حرية الفرد تتوقف عند حرية الآخرين». مرت سنوات كثيرة قبل أن أفهم وأتفهم أن يُترك متسول عربيد في شوارع باريس يغالب الليالي الطوال ويتربع فوق فوهات قطار الأنفاق «المترو» ليحصل على شيء من دفء البخار المتسلل عبر شبكتها الحديدية. لا أحد هنا يستطيع أن يجبره على الذهاب إلى مأوى أو إلى أحد المطاعم الخيرية طالما أنه قادر على التحرك واتخاذ القرار. أنام في ليلتي الأولى هانئاً. هذه المرة الأولى منذ سنوات طويلة لم أسمع أزيز الرصاص وأصوات القذائف.

تمضي ليلتي سريعة. أو هكذا يُخيَّلُ إليَّ. ينهمر المطر على باريس. تنزلق حبيباته على نافذة غرفتي المطلة على نهر السين. تتساقط حبيبات أخرى فوق مياه النهر ثم ترتفع كأنها تتمرن على القفز فوقه أو كأنها في عرض راقص. يغسل المشهد الجميل شيئاً من ذكريات الحروب عندنا. تتوسط شرطية السير التقاطع تحت نافذتي. توقف السيارات ليعبر طلاب المدارس. يحييها أحد الأطفال بعبارات عفريتية محببة. ترد بالابتسام دون أن تنزل يدها التي تدعو فيها السيارات للعبور.

بين نافذتي ونهر السين شجرة كستناء. ربما ليست كستناء ولكني هكذا قررت تسميتها لأنها تشبه الكستناء. شجرة شامخة تصل إلى الطابق الثالث. تحجب أوراقها الخضراء الآخذة بالاصفرار مع شهر أيلول بعض الرؤية. تحضرني سيدة الغناء عندنا فيروز «ورقو الأصفر شهر أيلول».

كل شهر تقريباً ترسل بلدية باريس عمالاً يشذبون أغصان شجرتي الباسقة. ما إن تقع أطراف الأغصان على الأرض حتى يسارع عمال آخرون إلى جمعها. لا يبرر هذه النظافة والدقة في العمل غير الضرائب التي ندفعها جميعاً للبلدية. ضرائب تشذّب الشجر وتنظف الطرقات وتضيء الشوارع وتحافظ على الهندسة الراقية للمدينة وتثقل كاهل المواطن.

لابأس فهو يعيش دون هم ولا غم. تقفز إلى ذهني أرقام البطالة والجهل والأمية في أوطاننا. لماذا تركنا التسلط والفساد والدكتاتورية والمافيات تقتل الإنسان بذريعة بناء الأوطان؟ أتذكر أن نصف شعوب بعض دولنا على حافة الفقر. أفكر بأن العربي لا يقرأ اكثر من ٦ دقائق في العام الواحد. تغير الحال لاحقاً مع شبكات التواصل الاجتماعي. لكن القراءة تبقى سطحية وعابرة. من يقرأ كتباً فهو استثناء.

في باريس من لا يقرأ هو استثناء. تنتشر الكتب في كل مكان. لايزال تقليد الباعة أمام صناديقهم الخشبية عند الضفة اليسرى لنهر السين أحد معالم العاصمة. يتوزع القراء في المقاهي والباصات. لا يتردد الباريسي في قراءة كتاب وهو ينتظر دوره لشراء الخبز أو بطاقة سينما أو في المصارف والإدارات. تضم باريس أكثر من 374 مكتبة، وفيها 554 نقطة بيع للكتب. هنا الكاتب يعيش من ريع كتابه، في بعض دولنا العربية، يموت الكاتب بسبب عبارات كتابه. هنا الكتاب خير أنيس وجليس، هناك الكتاب قد يكون أسوأ الكوابيس.

لا يعكر صفو المشهد من نافذتي سوى رجل رث الثياب ضخم الجثة أحمر الوجنتين بفعل الخمرة. يجتاز الطريق فتصرخ به الشرطية...

لكنه يعبر. تصرخ لأن إشارة المشاة حمراء. لا يأبه. يضحك ويعبر. يشتمها فتغض الطرف. يشتمها مرة ثانية فتهدِّده. يصمت ثم يستأنف تمتمة الكلام وحده. جسده ينحني صوب الأرض. يرتفع معطفه قليلاً فوق قفاه الضخمة. عيناه الغارقتان خلف خطوط العمر تراقبان حبيبات المطر وهي تصطدم بالشارع عند قدميه. ربما لم ير السماء في حياته. لا ينظر أبداً إلى فوق. ربما لأنه لا ينظر إلى السماء، حاله هكذا. كيف له أن يرى الله؟

لا تاريخ له ولا حاضر. مستقبله آيل إلى الموت بطريقة ستكون حتماً مذلة أو مثيرة للشفقة. ينهش من الخبز نهشاً. يشرب من قنينة نبيذ بخسة الثمن. الخبز الفرنسي واحد من أطايب المطبخ هنا. يعرف باسم «باغيت» (العصا) لأن شكله يشبهها. من عاش في باريس ولم يتمتع بالباغيت وبأكثر من 360 نوعاً من الجبنة فهو لن يعرفها. ينهش الشحاذ الباغيت بنهم الجائع. يَدبُّ ويسير. يترنَّح ويضحك. يقع ويقوم. يقع ويقوم ثانية ثم يرتمي على جانب الرصيف. تأتي سيارة الشرطة لتأخذه إلى مكان دافئ وآمن فيرفض. القانون يجيز له الرفض.

أقف خلف نافذتي. تنزلق حبيبات المطر راسمة خطوطاً كثيرة مستقيمة على زجاجها. أمسح بعض البخار الذي تجمع على الزجاج. أرى الشحاذ مستلقياً على الأرض ببطنه المنتفخ وحاضره الأجوف. أفكر كيف ضيَّع تاريخه وكيف يقتل مستقبله. يضحك فينزلق النبيذ من حفافي فمه. يسيل على ثيابه الرثة المتعفنة. يعرِّج حول بطنه المتكور. يتجمع قرب جثته الحية الميتة. تخيفني باريس. في أقل من 24 ساعة يصادفني شحَّاذان. تركت بيروت في أوج حربها ولم أر فيها شحّاذين. ربما قتلتهم الحرب، أو صاروا رفاقاً في بعض الأحزاب يقتلون من أحسن إليهم يوماً. هل الموت تحت القصف أرحم أم الموت متسولاً في باريس؟ لا بد أن في العاصمة خيارات أخرى.

أفكر في تاريخ هذا الشحاذ وحاضره. أتذكر تاريخنا وحاضرنا. قبائل تنهض من تحت غبار التاريخ تتقاتل على مزابل الحاضر. تترنح وتقع. مسلمون يقتلون مسلمين. يبسملون ويحمدلون ويذبحون ويضحكون. مسيحيون يهاجرون لأن الحاضر يقتلهم بأسنان التخلف. أفكر في بعض دولنا وفي بعض القادة العرب. يحضرني اجتياح بيروت وضياع فلسطين وحرب السودان وتناحر العرب على مقاعد جامعتهم... يحضرني هيكل عظمي اسمه إنسان يتضور جوعاً في الصومال. تتراءى لي مخالب الأمم تنهش ما بقي من حلمنا العاري ولحمنا العاري. أمسح الضباب عن نافذتي لأرى أفضل... كيف سأرى أفضل وأنا القادم إلى مدينة غريبة أبحث فيها عن أمل وشيء من دفء؟

واقعنا يسير فيترنح. يقوم فيقع. قتلنا تاريخنا بمساوئ الحاضر. ماذا يفرقنا عن الشحاذ تحت نافذتي...

فكرت بأن الإنسان مثلنا البعيد عن وطنه وأهله وحرارة الناس والأقارب والأصدقاء قد يموت على رصيف باريسي دون أن ينتبه إليه أحد. أقلق، فتتراءى لي العينان اللتان لأجلهما جئت إلى فرنسا.

إخوة ومساواة

حين قامت الثورة الفرنسية كانت كلمات «حرية، مساواة، إخاء» أحد أبرز شعاراتها. كان يضاف إليها كلمات أخرى مثل «إحسان، صدق، إخلاص...». عام 1970 اقترح السياسي والمحامي اللامع ماكسميليان روبيسبيير أن توضع الكلمات الثلاث الأولى وكذلك عبارة «الشعب الفرنسي» على العلم الرسمي وأن تزيِّن ثياب الحرس الوطني. بعيد اندلاع الثورة راح الباريسيون يشاهدون عبارات جديدة ترتفع على جدرانهم: «نعم للوحدة، لا لتقسيم الجمهورية» و«حرية، مساواة، إخاء، أو الموت»، لكن الفرنسيين انتظروا حتى عام 1848 ليجدوا أن في دستورهم الجديد شعار

«حرية، مساواة، إخاء» قد بات أحد أسس الجمهورية، ويتصدر الصروح والتماثيل. تجدَّد ترسيخ الشعار في دستور عام 1958.

قامت 5 جمهوريات في فرنسا بينما لبنان يغالب جمهوريته الأولى التي أورثه إياها الفرنسيون قبل الجلاء عنه. هي فرصة إذاً أن أتعلم في باريس الحرية الحقيقية الملتزمة والمقوننة، وأن أمارس قناعاتي بالأخوة بين البشر والمساواة بين كل أجناسهم وصنوفهم وألوانهم وأعراقهم. ها إني في مدينة مفتوحة على ثقافات العالم وحضاراته. ها إني في مدينة تضم 173 متحفاً، و208 مسارح وكاباريه، و3 أوبرا، و14 مدفناً للعظماء وغيرهم و108 عين ماء، و464 حديقة عامة، و31 نصباً تذكارياً، و73 جسراً، و171 كنيسة ومعبداً. وفي المتاحف كثير من تاريخنا العربي الإسلامي المسيحي. بعض ذاك التاريخ كان لا يزال قابعاً في الطوابق السفلى لمتحف اللوفر. الحمدلله أنه قبع هناك كي لا يضيع أو يُقتل أو يُباع. هكذا قلت في نفسي. هكذا علمتنا الأخت متى عن جدنا «الفاتح نابوليون».

السوربون حلمي الباريسي

ما إن حل الخريف، حتى قصدت جامعة السوربون. هي حلم الطفولة. كان مجرد ذكر اسمها يدغدغ مخيلتي ويفتح عيني أبي واسعتين ويجعل ابتسامة فخره تزيِّن محيَّاه. ترجَّلت من الباص قرب حديقة لوكسمبورغ. لا يزال الوقت باكراً للقائي أستاذي المقبل. شيء من القلق المجبول بالأمل يساورني. كان الروائي اللبناني الصديق الياس خوري قد أوكل أمري إلى مترجمة روايته الأولى «الجبل الصغير». تمنى عليها أن ترافقني إلى الجامعة وترشدني إلى ما علي فعله للتسجيل في ذاك العالم الغريب. كانت هي الأخرى طالبة دكتوراه وتعمل في إحدى دور النشر وتترجم روايات الياس خوري واعتقد أنها كانت تحضر دكتوراه عنه أيضاً. فتاة مغربية متوسطة الجمال عميقة الفكر واسعة المعرفة والثقافة. كان لها الفضل الأكبر لفتح عيني على الأدب المغاربي والفرنسي. غمرتني

بمحبة لم أعهدها سوى بين أهلي ورفاق الدرب. ساعدتني في السير على طريق الثقافة والمعرفة. هي والصديق الصحراوي المغاربي النبيل الكاتب والسياسي الراحل الباهي محمد فتحا لي أفقاً واسعاً صوب المغرب العربي من باريس. اكتشفت كم أننا نحن المشرقيين غافلون عن ذاك العالم الواسع من وطننا العربي الزاخر بالتاريخ والحضارة والثقافة والفن والإبداع والمعرفة والعلم والمحبة. كنت كل يوم جمعة ألتقي الباهي محمد حول مائدة الغداء، يأتي حاملاً أكياساً من الكتب وتاريخاً من المعرفة يلقيها علي في كل جلسة. لا يناقض شكله البدوي سوى أناقة وعمق وسعة معارفه في المجالات كافة. منه تعلمت في باريس، تفاصيل وخفايا كثيرة عن المغرب وأهله وسياسته وحضارته. كان الباهي محمد يحفظ جل الأدب الفرنسي والقاموس الفرنسي العربي كاملاً، وكان يحفظ أيضاً القرآن الكريم ومعلقات الشعر العربي ومعظم أدبنا. منه أيقنت أن العربي قادر على أن يفخر بتاريخه وحضارته وأن يعشق حضارة وثقافة أخرى. صرت أشعر بأني أنا العربي أكثر عروبة في باريس، وأنا الباريسي أكثر انفتاحاً على حضارات العالم في بيروت. فهمت أن تلاقح الحضارات والثقافات نعمة، واقتتالها يولد الحقد والإرهاب والدماء والدموع.

كان الوقت باكراً بعد لقاء أستاذي في السوربون، اقتَرَحَتْ عليّ صديقتي ومرشدتي المغربية أن ندخل إلى حديقة لوكسمبورغ. أدهشتني أناقة أشجارها وشجيراتها المنتشرة حول البحيرة النظيفة الهادئة. بدت كل نبتة فيها كأنما قد لامستها يد فنان، ودغدغتها مخيلة حبيب وراقصتها أنامل عاشق. تتعدد حول البحيرة أشكال الشجر وألوانه وقاماته. تتمدد حولها قامات الفرنسيين والفرنسيات في مطلع الخريف الذي يضفي رونقاً خيالياً بأوراقه المتساقطة فوق العشاق.

سرنا طويلاً في الحديقة المجاورة لجامعة السوربون ومجلس الشيوخ. كان النهار موحياً بشيء من سعادة تدخل مباشرة إلى الرئتين. ثم عبرنا الطريق نزولاً صوب الجامعة العريقة. ينتصب أمامنا صرح تاريخي

وحضاري جميل. ينفتح باب عال بين عمودين يوحيان بأنهما من عهد الرومان ولكنهما ليسا كذلك. أخذت الجامعة اسمها من روبير دو سوربون راهب الملك لويس التاسع وكاتم أسراره الحميمة. صارت أحد أهم صروح المعرفة المتعددة من أدب وفنون وعلوم وطب وغيرها. باتت منارة للعلم والثقافة والسياحة قرب الحي اللاتيني العريق. هنا إذاً سأتعلم.

لا شيء يناقض فخامة الشكل الهندسي الخارجي، سوى بساطة الداخل الذي يشبه كثيراً أي جامعة عادية في لبنان وغيره. كانت ماري-بيير الفرنسية الشقراء، تنتظرنا في بهو الجامعة. هي صديقة مرشدتي المغربية. كلَّفتها الحصول على الأوراق الإدارية قبل الدخول على البروفسور. أرافق الشابة الفرنسية إلى المكتب المتوسط ممر الطابق الثاني. يسارع الأستاذ الجالس خلف مكتبه إلى الطلب إلينا بأن نجلس أمامه. لا ابتسامة ولا ترحيب ولا أي مجاملة. يسألني من أي جامعة جئت وما هو عنوان بحثي. قبل أن أكمل الشرح، يقطع حديثي مُعلِّقاً: «لكن في بيروت الغربية مستوى اللغة الفرنسية ليس جيداً وأنت تتحدثها بشكل جيد...» الرسالة واضحة. شرحت له أين تعلمت وأن الفرنسية كانت لغتي الأولى في مدارس الراهبات. أوضحت أن كتبه الثلاثة عن الإعلام أحفظها عن ظهر قلب. ارتاحت أساريره. أرجَعَ كرسيه قليلاً إلى الوراء. أسنَدَ ظهره إلى الحائط. أعاد النظر إلى طلبي. رفع نظّارتيه عن عينيه. تفحَّص شكلي قليلاً، ثم سألني: «ماذا لفتك في كتبي؟». فهمت أن خلف السؤال تشكيكاً. شرحت دون استفاضة. أرضى شرحي غروره ولعله أثبت له أني صادق. الفرنسيون مطبوعون على الصدق حتى ولو كان جارحاً. ابتسم قليلاً. أخذ قلمه ووقَّع لي قبولي في الجامعة. ما إن خرجنا من عنده، حتى مالت الصديقة الفرنسية صوبي وقبلتني ورفعت طلب القبول عالياً تعبيراً عن الفرح. كانت تلك أول قبلة فرنسية حميمة منذ وصولي. تذكرت ديك ودجاجات عمتي. بدت لي باريس أجمل وأكثر إثارة. لكني عدت أفكر في تينك العينين اللتين لأجلهما جئت إلى هنا، ولأجلهما قررت إكمال

دراساتي العليا. تذكرت كذلك قبلة أمي ويدها المصابة بشظية قذيفة. كانت كلما دخلت إلى المطبخ لتطهو لنا، يعتصرني ألم في معدتي وحزن في قلبي. كيف لهذا القلب الكبير الذي تملكه أن يقفز فوق الألم والحزن وبقايا الشظية والجراح لتطهو لنا بكل هذا الحب، ولتغمرنا بكل ذاك الدفء وهي المحتاجة أكثر منا جميعاً إلى الحب والدفء؟

لم يفقدني برد باريس ولا برودة العلاقات بين أهلها شيئاً من حبنا الشرقي وتآلف أهلنا في قرانا رغم الحروب التي تنهش الوطن عند حفافي القرى والجبال أو تلك التي شوهت رونق الطبيعة بلون الدم الطائفي النازف لأجل اللاشيء. ففي باريس يكاد الحب ينحصر بين العاشقين. أما العلاقات بين الأولاد وأهلهم فهي موسمية ترتفع حرارتها حول مائدة عيد الميلاد، ثم تتقهقر لتخبو في معظم فصول العام. هنا يتقلب الحب كما تقلبات الطبيعة، لكنه في كل أحواله يبقى صادقاً. فالفرنسي أكان باريسياً أم ريفياً يفعل ما يقول. يحب حين يريد ويهجر الحبيب حين يشاء لكنه في الحالتين يبقى متصالحاً مع نفسه. في بلادنا يقول الحبيب ما لا يفعل أو يفعل عكس ما يقول... لعل باريس علمتني أن أحب بصوت عال وأحزن بصمت. أن أشارك الناس في فرحي وأغالب حزني وألمي لو مرضت وحيداً. لكني في كل الحالات كنت أتصالح مع نفسي. تمر الفصول والسنوات، تمر المشاعر والقصص، تصفر أوراق الشجر وتتساقط، يعود الشجر إلى اخضراره وتزهر الورود فتفرح الوريقات وتلمع. يتقلب وجه باريس لكنه يبقى جميلاً. أو هكذا كنت أريده.

أقفال الحب وجسره

هذا يوم خريفي آخر لكنه زاخر بالدفء. هذا يوم آخر بعد سنوات طويلة من إقامتي في باريس. عبرت منها صوب بؤر النار في العالم صحافياً، واستقررت فيها بعيداً عن النار إنساناً. فتحت لي باريس أبوابها. وصلت فيها إلى ما لم أستطع حتى الحلم به يوماً. وصلتها طالباً وصرت فيها

مديراً لواحدة من أكبر شبكاتها الإعلامية. وفيها نسجت صداقات، وعبرها عبرت صوت ثقافات العالم وحضاراته ومدنه. فكيف لا أحبها.

يبشّر الصباح منذ ساعاته الأولى بأنه سيكون جميلاً في باريس. تنساب أشعة الشمس من بين أغصان الأشجار الخضراء الشامخة أمام غرفتي. تتسلل كشقاوة المحب صوب غرفة نومي. تحت النافذة عازف ينشد أغاني فرنسية عريقة. يستخدم في عزفه صندوقاً خشبياً قديماً. يغني ويعزف عبر حركة دائرية لآلته كمن يطحن البن. كل شيء يوحي إذاً بأن شرب فنجان نسكافيه في أحد مقاهي الأرصفة أفضل من البقاء في المنزل. مقاهي الأرصفة وباريس صنوان. لا ذكرى للأولى بدون الثانية. صارت المقاهي جزءاً من التراث والثقافة. لم يتغير فيها سوى غلاء الأسعار وتأفف الباريسيين بعد أن توقفت عملتهم الوطنية «الفرنك» لمصلحة «اليورو» الأوروبي بعد قيام الاتحاد الأوروبي.

إلى أين نذهب هذا الصباح؟ كل الخيارات في باريس جميلة عادة، فكيف إذا كان الطقس يرسل منذ الساعات الأولى بشائر فرح؟

«لماذا لا تذهب إلى جسر الفنون يا سيدي؟» قال نادل المقهى. هذا جسر تاريخي رائع بني في المرة الأولى قبل ثلاثة قرون. تم تعديله مرات عديدة. وانهار ثم قام بأجمل مما كان وصار قبلة للفنانين والمبدعين من كل أصقاع الأرض فأخذ اسمه من فنهم.

لا حاجة إلى سيارة تاكسي. منذ سنوات قليلة اخترعت بلدية باريس وسائل أجمل للتنزه. صار في كل منطقة مواقف للدراجات الهوائية. يستأجرها المواطن أو الزائر ثم يركنها أينما وصل. هكذا أيضاً بالنسبة إلى السيارات الكهربائية الصغيرة. رسمت البلدية خطوطاً خاصة بالدراجات. صارت قيادتها ممتعة وغير خطيرة ذلك أن خطوط سيرها تختلف عموماً عن خطوط سير السيارات. بات المقيم في باريس قادراً على التنزه بالدراجة أو بسيارة دون حاجة إلى أي إجراءات إدارية معقدة أو لتوتر زحمة السير.

أُدخل بطاقتي المصرفية في العلبة الإلكترونية. أقرأ كل التعليمات وبينها مثلاً ضرورة حماية الرأس. أتذكر كم ربيع عمر ينتحر في بلادنا على الدراجات النارية بسبب قلة التربية وفساد السلطات وعجزها. أسحب دراجة وأتوجه صوب الطريق المحاذي لنهر السين. أسير بين النهر المستيقظ توّاً بعد صخب الليل وغناء سياح المراكب، وبين الأشجار الخضراء الوارفة الظلال على حفافي النهر. كل من يسير حولي أو في جواري أو بالاتجاه المعاكس يبتسم. هي الشمس لا شك. النسيم الصباحي دافئ ومنعش. أشعر بأنه يتسلل مباشرة إلى رئتي كتسلل أشعة الشمس إلى غرفتي. أشكر الله.

لا أدري لماذا صرت كلما شـــكرته أتذكر أولئك الذين يستخدمون اســـمه للقتل والذبح في بلادنا. أقرر ألا أفكر في بلادنا في هـــذه اللحظة. أتوقف قليلاً. أُنزل رجلاً واحدة على الأرض. أضع سماعة الهاتف على أذني وأســـتمتع بأغنية حبيبتي في غربتي السيدة فيروز «بكتب اســـمك يا حبيبي». لم أتعمد هذه الأغنية. والله جاءت مصادفة. أردت فقط الاســـتماع إلى صوت فيروز. صوتها كما هي لا يزالان صافيين في محيطنا العربي القاتم. نســـيت كثيراً من الأغاني المشـــرقية في باريس، إلا هي. تضم مكتبتي معظم موسيقى العالم بفضل رحلاتي العديدة، لكـــن أميرة الغناء الملائكي بقيت تتصدر كل الموســـيقى والأغاني. بقيت فريدة. كانت هي والشيخ عبد الباسط عبد الصمد مجـــوِّداً القرآن، والراهبة المبدعة الأخت ماري كيروز مرتلة الإنجيل، مقيمين دائماً قرب ســـريري إلى جانب عشرات الكتب التي علمتني باريس أن أحبهـــا وأعاملها كما يعامل المحب حبيبته.

أســـير أقل من ربع ساعة في جوار نهر السين. أجاور متحف «اللوفر». أفكر في وجه الموناليزا يبتســـم للناظر إليه إن كان مبتسماً ويحزن إن كان الناظر حزيناً. يشـــبه وجهُها صوتَ فيروز.

منذ زمن طويل لم أصل إلى جسر الفنون. زحمة السياح تزيده حياة وفرحاً. تختلط هنا ألوان البشر وأعراقهم. يجمعهم حب السياحة والمعرفة. يستلقي الجسر ملتوياً فوق نهر السين. يكاد يشبه سيدة مغناجاً ملتوية فوق ماء النهر. كل ما يحيط به تحفة. يكاد يوحي بنفسه وبما يجاوره بأنه لوحة فنية من لوحات اللوفر المجاور.

كل هذا جميل لكن عليه أيضاً ما هو أجمل: على طول الجسر عشرات آلاف الأقفال الحديدية معلقة ومتكدسة بعضها فوق بعض. أقفال فوق وتحت وفي الوسط. أقفال على اليمن والشمال. أقفال في أعلى الجسر وفي أسفله. كل قفل يختصر قصة حب أو زواج أو أمل. هنا يأتي العاشقان بقفل، يكتبان عليه اسميهما أو تاريخ حبهما أو زواجهما، يعلقان القفل على الجسر ويرميان مفتاحه في النهر. يعتقدان بأن القفل سيحمي حبهما إلى الأبد. لم أفكر يوماً بأن أضع قفلاً. ربما أخطأت.

لم تكن فرنسا المبادرة إلى هذا التعبير الغرامي الجميل. لا أحد بالضبط يعرف من أين جاءت هذه الفكرة. ثمة من يعتقد أنها ألمانية الأصل، آخرون يقولون إن روسيا هي الأساس وأن ثمة جسوراً لا بل أشجاراً في روسيا تحمل أقفالاً كثيرة. يؤكد الإيطاليون أن روما مدينة العشق هي التي أسست للأمر. أما الهنغاريون فمصرُّون على أنهم هم من اخترع القصة عام 1980 حين ربطوا كاتدرائية مسيحية بمسجد عبر سلسلة وقفل بغية التقريب بين الدينين. أحببت هذا التفسير الأخير أكثر من غيره، قررت تبنِّيه. كيف لا أتبناه وأنا القادم من شرق التقاتل الطائفي، ومن أوطان التناحر المذهبي على موائد الجهل والتخلف؟

ليس مهماً التاريخ. كل القصص جميلة فوق الجسر. الأهم أن الناس يؤمنون بما يفعلون. بعضهم يريد أن يحمي حبه. البعض الآخر يكتب اسمه على القفل لينجح في امتحان. البعض الثالث لكي يستمر الزواج مدى العمر. مدى العمر؟؟؟ وفي باريس؟؟ صعب ولكنه غير مستحيل.

تعددت قصص الحب وكثرت الأقفال. انهار جزء من الشبكة الحديدية الحامية للجسر. تقدم بعض الناس بشكوى لوقف هذه الظاهرة التي تهدد الجسور. تمددت أقفال الحب إلى جسور أخرى. اضطرت سلطات روما لفرض غرامة مالية بنحو 70 دولاراً لمن يضع أقفالاً. رفضت باريس فرض غرامات مماثلة. هنا الحب مباح فكيف يعاقب؟ لا تزال قصص الحب تُروى بالأقفال. كأنما العاشقون يخافون على حبهم فيقفلون أبواب هروبه. هل يصمد الحب بقوة السجن؟ هل يصلح القفل لعاصمة الحب والإباحية والحرية باريس؟

سِرتُ بين الأقفال نصف ساعة. قرأت بعض الأسماء والتواريخ عليها. توقفت في منتصف الجسر. ألقيت جسدي قليلاً فوق حافته. نظرت إلى قعر المياه صوب آلاف المفاتيح. نظرت صوب السماء التي تقاوم ببعض زرقتها اجتياح بعض الغيمات فوق البيوت الرائعة. ركبت الدراجة وعبرت بين الشبان والشابات. كل الشابات تقريباً شبه عاريات توديعاً للشمس. كأنما بين الأجساد والشمس قصص لا يعرفها إلّا هن. جلست في المقهى المجاور. قررت هذا اليوم أن لا أقرأ أي خبر عن بلادنا. فتشت فقط عن أغاني الحب عند السيدة فيروز. هنا جسور مهددة بأقفال الحب. وعندنا دول تنهار بأقفال العقول. كان يوماً باريسياً ممتعاً. تراءت لي عينا من جئت لأجله إلى غربتي الباريسية. مرت السنوات وما عدت أشعر بالغربة. تآلفت مع باريس وتفاصيلها. وفي التفاصيل قصص كثيرة، وبين القصص تلك المتعلقة بجاري الروسي.

العازف الروسي والسائق الجزائري

على جاري عادته كل صباح، يصدح صوته بالغناء. ما إن تدق الساعة التاسعة صباحاً حتى يجتاح صوته طوابق البناية. يجتاحها بقوته وصفائه. صاحب صوت الـ«آلتو» شاب روسي في مقتبل العمر يجاورني في شقتي الباريسية منذ ٣ سنوات. قبله كان نباح كلب جارتي الأرستقراطية

الفرنسية العجوز يملأ المكان. وجدوها جثة باردة كالصقيع الفرنسي في عز الشتاء. لم تنفعها كل النياشين التي طالما زيَّنت صدرها في الاحتفالات الرسمية. ماتت وحيدة فبكى كلبها. أو هكذا أوحى بصوته المتهدج قرب الجثة. غالباً ما يموت الكلب حزناً بعد موت سيده. الوفاء في غريزته. فقد البشرُ الوفاءَ وجنحوا صوب الغرائز. صدق جدنا المتنبي حين قال:

فلمـــا صـــار ود النـــاس خِبًّـــا جزيـــت علـــى ابتســـام بابتســـامِ
وصـــرت أشـــك فيمن أصطفيـــه لعلمـــي أنـــه بعـــض الأنـــام

لم أسألها يوماً عن سبب نياشينها والأوسمة. مرة واحدة قالت بحسرة العارف بقُربِ الرحيل: «لم يبق من تاريخي غير ما يزين صدري». لعلها كانت طبيبة في الحرب العالمية الثانية، أو أنها كانت مجرد ممرضة أو مقاومة. ليس للأمر أهمية. بقيت منتصبة القامة وهي تودع الرابعة والثمانين حولاً. تتكىء على عكَّازها وتنظر إلى الأعلى كأنها تتحدى الزمن. لا يناقض عنفوانها سوى ضعفها ووهن الجسد حين تمرض. كان أنينها يجذبني لطرق بابها. تفتح وتبتسم رغم الألم وتدعوني للدخول. تشدُّ الشالَ الصوفيَ على كتفيها وتتكور على نفسها. أقترحُ عليها الذهاب إلى طبيبها فترجوني ألّا أفعل. تقول لي «ابق معي قليلاً لو سمحت. حدثني فأصبح أفضل». كانت فعلاً، تصبح أفضل. تبتسم فوق الألم وتسألني سؤالها السرمدي: «متى سأفرح بعروسك يا أميري الشرقي؟». تشرب شيئاً من زهوراتنا المشرقية. تغمض عينها كمن يتلذذ بما يشرب. تعيد فتحهما وتشكرني بكلمات حنان قلَّ سماعُهُا وسط برودة الناس هنا. أشعر أنها تعافت قليلاً. أحدثها عن آخر رحلة لي. تبتسم. تتثاقل عيناها تعباً ومرضاً. أساعدها لتستلقي على سريرها. أضع أدويتها وكوباً من الماء قربها وأغلق بابها. ماتت جارتي الأرستقراطية الجميلة الطيبة وأنا على سفر. ربما لم تشأ أن أراها تموت. كنت السبب الوحيد لفرحها. لعلها لم ترد أن تكون السبب الأخير لحزني.

هكذا يموت الناس في عواصم الغرب. هنا كل شيء متوافر إلا بعض إنسانية تدفئ العجوز في ليالي الشتاء. أفكر في مرض أمي، يعتصر قلبي وتكاد عيني تدمع. أستمع إلى الشيخ عبد الباسط. أغفو ربما هرباً من فكرة أن تموت أمي يوماً.

دعوت جاري الروسي لشرب قهوة الصباح. اعتَذَر عن صوته العالي. ابتسمت وقلت لابأس فصوتك أقل إزعاجاً من نباح الكلب. ضحكنا. في بيتي آلات موسيقية عديدة. راح يتفحصها واحدة بعد الأخرى. أخبرته عن جارتي المرحومة فشاركني في بعض حزني. أخبرته عن أمي المريضة. لم أشأ أن أعكر صباحه. تركته يحدثني عن جديده. تلمع عيناه حين يروي حبه لباريس. هو لم يخترها فقط لدراسة الموسيقى والغناء الأوبرالي، ففي بلاده المعاهد أهم. اختارها لأن جدته الفرنسية زرعت في قلبه شوقاً إلى مدينة الأنوار لم يقو يوماً على مقاومته. تلمع عيناه أكثر حين يتحدث عن فلاديمير بوتين. يستوي في جلسته. يضع كوب القهوة على المنضدة. يوحي بأنه يستعد لإلقاء خطاب. نعم رئيسنا أعاد لنا مجدنا وتحدى العالم. فلاديمير وضع الأطلسي كله أمام خيارين: إما يقبل الندِّية وليس التبعية وإما ليتحمل وِزرَ المواجهة. الرفيق فلاديمير رفع شأن المواطن الروسي وحسّن اقتصاده. وافقته لكني سألته: «طالما أنك تحب فلاديميرك إلى هذا الحد لماذا جئت تعيش في ربوع الأطلسي؟». ضحك بصوته الآلتو وقال: «إنها جدتي اللعينة زرعت سوسة باريس في قلبي، وحين جئت إلى هنا، تعلقت بهذه المدينة أكثر مما ظننت، ثمة شيء غريب وسري يدفعك للتعلق بها لا تفسير له، ثم هل أفضل من باريس للممارسة الموسيقى والتمتع بها». فعلاً ثمة شيء يدفعك للتعلق بها لا تعرف سره.

ينهمر مطر خفيف على باريس. تتناغم الحبيبات على النافذة كأنها نغمات معزوفة للموسيقي الرائع أريك ساتي. أستمتع بالنغمتين، المطر وساتي. يحث المشاة الخطى. يلتصق الأولاد بأمهاتهن تحت المظلات الواقية. يتجمع بعض المشاة حول طاولات مقاهي الأرصفة. تلمع وريقات

الأشجار كأنها خارجة تواً من حمام مغربي. تبدو المدينة النظيفة أصلاً أكثر رونقاً بعد حمامها الأول في هذا الربيع. يلمع القرميد الأسود فوق السطوح. لا مجال للسير على الأقدام رغم سحر السير تحت المطر. يتوقف التاكسي. يلعن المطر وزحمة السير.

الزحمة التي تزعجه هي عبارة عن ٥ سيارات تدافعت بسبب المطر. فكرت في بيروت والقاهرة وضحكت. فهمت من لكنته الفرنسية المفخمة الأحرف ومن سحنته السمراء أنه مغاربي الأصل. علمني السفر أن أميِّز بين عشرات اللهجات. سألته «أنت جزائري أليس كذلك؟» سارع قبل أن أنهي السؤال «لا أنا قبائلي». هو من أمازيغ الجزائر من منطقة القبائل الكبرى. أهل الشرق يعرفونهم باسم «البربر» وهم لا يحبون هذا الاسم. أعرف حساسية السؤال الثاني لكني تعمدت طرحه: «يا أخي أنت جزائري وتحمل جنسية بلدك فلماذا تقول إنك أمازيغي ولست جزائرياً». سمعت منه ما أسمعه منذ سنوات. نقمة على العرب. ونقمة على التهميش في بلاده. ونقمة على السلطة. ورغبة في التمايز. يشعر الأمازيغي المتعصب لأمازيغيته أن في هذا التمايز ما يجعله أقرب للغرب الذي يعيش فيه. ربما الغرب يعزز مثل هذا الشعور لكن الأكيد أن هذا الوطن العربي ما عاد يعرف كيف يحتضن أهله. الأمازيغ يريدون دولة. الأكراد يريدون دولة. جنوب السودان انسلخ عنه بخيراته الطبيعية والنفطية. جنوب اليمن آيل للانفصال. شبح الفدراليات والتقسيم يخيم على ليبيا والعراق وسوريا واليمن. جزيرة مايوت انسلخت عن جزر القمر والتحقت بفرنسا... والحبل على الجرار. تتسع باريس للجميع، لكن في ضواحيها كثيراً من أبناء المغرب العربي، وبين هؤلاء من صار أكثر أمازيغية مما كان عليه شأن أهله، وصار أكثر تطرفاً مناقضاً تسامح أهله، وصار أكثر توقاً للعودة إلى التشدد الإسلامي مما لو كان حاله لو أنه في بلاده وبين أهله.

هل ستبقى باريس موئلاً لقاصديها من المغرب أم تزيد تهميشهم فيزدادون تطرفاً؟ هل يحبونها فعلاً لتبادلهم الحب؟ وهل تحبهم فعلاً

ليبادلوها الحب؟ . فكرت في مثالين فيها، روائي جزائري فذ اسمه عزوز بغاغ أنصفته باريس فصار وزيراً، وشاب جزائري فقير أغضبته العنصرية اسمه خالد قلقال فصار إرهابياً وقتلته شرطة باريس. في فرنسا 7 ملايين مسلم. هل تنصفهم باريس أم تنبذهم؟ ترجلت من التاكسي وأنا أسأل نفسي: لماذا يعتز الروسي ببلاده ونحن نخجل بأوطاننا؟ فكرت في اعتزاز العينين اللتين لأجلهما جئت إلى باريس.

زنبقة الوادي وعيد العمال

ها قد عاد الأول من أيار/ مايو. لا داعي للاستيقاظ باكراً. إنه عيد العمال. منذ الصباح الباكر تنتشر الطاولات الصغيرة في الشوارع والأحياء والأزقة الفرنسية. تنتشر فوقها باقات صغيرة من وردة بيضاء. اسم الوردة «زنبقة الوادي». يسمونها في فرنسا muguet. تعرف في بريطانيا بـ lily of the valley. شكلها يشبه الجرس المقلوب ورائحتها زكية.

وحدها هذه الوردة تدفع الشبان الفرنسيين للاستيقاظ باكراً في كل يوم مماثل من العام. يهدونها إلى الحبيبة أو الزوجة أو الخليلة أو زميلة العمل. باتت زنبقة الوادي صنواً لهذا العيد. تزرع البهجة في باريس منذ الصباح الباكر فيما نسبة البطالة تكدر حياة أكثر من ٥ ملايين فرنسي. الرقم كبير لكن العاطل من العمل في فرنسا يعيش. الدولة تؤمن له مدخولاً شهرياً حتى يجد عملاً. مع ذلك هناك فقراء.

الجميع يحتفل. العامل ورب العمل والذي لا عمل له. لا يسمح الفرنسيون لشيء بأن يكدر احتفالاتهم. يعملون طوال العام لكي يحتفلوا في الأعياد والإجازات. لا هم عندهم لجمع مال ولا هموم طبابة وتعليم. الدولة تتكفل بذلك لكن الدولة لم تمنع وجود فقراء ومهمشين.

طبع الباريسي ميَّال إلى التأفف والنق. وحدها زنبقة الوادي تنعش صباحه. تضيف الشمس كثيراً من البهجة الصباحية فيخرج الفرنسيون إلى

طاولات الزنبق. يلامسونها برفق. يشمون أريجها ويغمضون العيون. تمتعاً بأريجها.

تتعدد الروايات حول أصل هذه العادة. يقال إن أحد ملوك فرنسا تلقاها هدية كباعثة على الأمل. أهداها إلى زوجته ثم عمَّمها على نساء البلاط. انتشرت في ربوع فرنسا. كل ما كان يفعله الملك، كان يُعمَّم ويقدَّس وينفَّذ بحذافيره. حين كان الملك مثلاً يغطس في البركة لأخذ حمام، تسارع حاشيته إلى الغطس معه معتبرة أن في الأمر تضحية. كانت النظافة تضحية. كان بعض الملوك كالديكتاتوريات في العالم الثالث أو أسوأ. كل ما يقوله الملك ملزم. من لا يلتزم فالمقصلة جاهزة.

ما لنا ومال المقصلة في هذا الصباح الجميل؟ . لنعد إلى زنبقة الوادي. يقال أيضاً إن هذه الوردة الجميلة جاءت من اليابان إلى أوروبا في القرون الوسطى. كانت عربوناً للفرح والحب. يقال كذلك إنها وزعت بكثرة في الأول من أيار حين تضامنت النقابات العمالية الفرنسية مع ثورة العمال في شيكاغو عام 1886.

يقال الكثير، والكثير لا يقال. تمر العقود. تتغير الأنظمة. تتعدد التظاهرات لكن زنبقة الوادي تبقى هنا. تستمر عنواناً للراحة والفرح والحب. ترافق كل الأحداث والتطورات والتقلبات. تنزل أميرة كل صباح 1 أيار/ مايو على شوارع وأحياء وأزقة الفرنسيين فتستقر في القلوب.

هي هدية بخسة الثمن. ممتاز. هذا عامل إضافي لإهدائها إلى الحبيبة. طبع الباريسي أكثر ميلاً للتقتير. قلما يهدي إلا في المناسبات. قد يترك حبيبته تدفع ثمن ما أكلت وهو يدفع ثمن ما أكل. هذه عادات تعززت مع المساواة الاجتماعية. ليست هنا عنواناً للبخل. يكفي أن يجوع الصومال لكي يسارع الباريسيون للتبرع وإرسال القوافل. يبقى الشعور الإنساني عالياً وكذلك الثقافة العامة عند هذا الشعب المثقف والعريق حتى ولو كانت للثقافة والعراقة سقطات مميتة كما حصل في استعمار الجزائر.

لا تزال زنبقة الوادي سيدة صباحات عيد العمال والحب والمحبة. يستمر الجدل حول أصلها وحول من قرر أن يكون ١ أيار/ مايو هو يوم البطالة. ثمة من يؤكد أن حكومة فيشي التي تعاملت مع الاحتلال النازي هي التي أقرته عيداً رسمياً. لا داعي لنكء التاريخ الأسود. بياض الزنبقة يجُبُّ كل ما قبله. الأهم أن لا يدفع الفلسطينيون والعرب ثمن التكفير عن أخطاء التاريخ الأوروبي حيال اليهود...

سأشتري زنبقة هذا الصباح وأضعها في غرفتي، ليس عندي أجمل من أمي أفكر فيها، وليس عندي أجمل من الذي لأجله جئت إلى هنا باحثاً عن أمل جديد في باريس أضع الزنبقة قرب صورته.

باريس وأهلي

حين هوت القذيفة على منزلنا الجبلي الجميل، انهارت حجارته فوق جسد أبي الممزق بالشظايا. نزف الدم من القلب والأطراف، حملته بين يدي، نظر إلي بحنان الأب المدرك أنه يودع كل شيء. أغمضهما فأسدل ستار الفرح على حياة عائلتنا الهانئة. وضع مقتل أبي الجميل الأنيق المرح خاتمة محزنة لقصة حب جمعته وأمي صاحبة العينين الخضراوين والقلب الكبير الذي نجا بأعجوبة من شظايا مماثلة مزقت جسدها وحبها لكنها بقيت على قيد الحياة.

كانت عينا أبي تلمعان فرحاً حين يحدثني عن مستقبلي العلمي وكيف سيرسلني إلى باريس لأكمل دراستي. وكنت أحلم بأن أعود إليه حاملاً شهاداتي وأحلامي لأضعها عند قدميه. عدت بالشهادات والأحلام وبحبي لباريس ووضعت كل شيء... عند قبره.

عدت أرافق أمي بسنوات مرضها وموتها البطيء. رحلت لتنضم إلى أبي وفي قلبها قصة حب كبيرة وغصة أكبر. ربما لأجلهما أحببت باريس التي فتحت لي أفقاً علمياً ومهنياً كبيراً. ربما بهما كنت أفكر

كلما تقدمت خطوة صوب النجاح. ولعل باريس أحبتني أيضاً بقدر ما أحببتها. لعلها رأت في قلبي عيني أبي وقلب أمي. صار عندي وطنان، لبنان وباريس.

كأنها خبأت في ليلها نجمة

طراد حمادة

وزير لبناني سابق وأستاذ جامعي وكاتب وصحافي وقاص وشاعر كان وزيراً للزراعة والعمل في حكومة الرئيس عمر ميقاتي عام 2005 ووزيراً للعمل في وزارة الرئيس فؤاد السنيورة بين عام 2005 وعام 2008.
حاصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون الأولى وهو أستاذ محاضر في عدد من الجامعات اللبنانية وفي الجامعة الإسلامية في بريطانيا ومشرف على رسائل الدكتوراه في غير جامعة محلية وخارجية. عمل في الصحافة في باريس خلال إقامته فيها فترة تزيد على عشر سنوات.
من مؤلفاته في الشعر « المصابيح والمنازل » ودووواين أخرى وفي الفلسفة « مباحث في الفلسفة الإسلامية المعاصرة » وفي الرواية « مشهد البحر » وقد نشر في هذه الأبواب أكثر من 30 كتاباً.

كانت ريم تعزفُ في مترو الأنفاقْ
وكنتُ أتابعُ أروقةَ العزفِ
أعلو وأهبطُ،
جسدي نغمةُ روحي
وريم،
تعزفُ في بهوِ الفندقِ
تستوحي حركاتِ
الرقصِ في الحلمِ
وكانتْ تجذبها
آهات النسوةِ
تتصاعدُ مع كل ذراعٍ
تعلو،
كان صراخُ الغاباتِ
يلاحقها حتّى
أقصى حضاراتِ الدنيا
يا هذي الدنيا
من أين صنعتِ
عجائبك السبع؟
وكيف تسترخي
الصرخةُ في أجسادِ
نساءِ أوروبا
وهل من يشرحُ
هذا الخدرَ،
يصاحبُ رقصَ

الحلمِ،
نعاسٌ يتمدّد
فوق أسرّة
مدنِ الثلجِ
ومدنِ الريحْ
الغاباتُ المعلّقةُ
على جسورِ السين
وأعمدةُ قلاع
التيبر في روما
والآتية تباعاً
من أقصى حضاراتِ العالم
في شرقِ الصين
وفي معارجِ بابِ المقدسْ
ومحيطِ بحر عمان
النغمُ الذي تعزفه
ريم ما بعدَ صلاةِ
الظهرِ، يحملُ حزناً
مقتلعاً من رملِ
الطفِّ، يطوفُ
على هضباتِ
جبالِ الأوراسْ
من أقصى حضاراتِ
العالمِ، في بهو الفندقِ
كانتْ ريم تعزفُ

والجمعُ الراقصُ

يتقرّى صمتَ الطربِ

الضاربِ في أعماقِ

النفْسِ ويغشى

* * * *

نساءُ باريس مثلُ

كلّ النساءِ، يُسرعنَ

الخطى إلى حدائقِ الحواسْ

مترعاتٍ بسرّ المذاقِ

ورائحةِ وردةِ السحرِ

ولونِ الضوءِ في العتمِ

ولمسةِ الأنسِ

على حريرِ الجسدْ

نساءٌ قادماتٌ

من قديمِ اللذائذِ

مسرعاتِ الخطى

إلى فضاءِ الخيالِ

المتوالدِ كدفعةِ

الريحِ، المتجمّعِ

قطيعَ غيومِ المددْ

مطرٌ نازلٌ

مطرٌ صاعدٌ

مثلَ ماءِ الجسدْ

* * * *

نساءُ باريس
سمراءُ تُشقي
وهي غزالةُ روحي
وأين تقيمُ سمراءْ
لألحقَ هذا المساءْ
بأنفاسها، تبعثُ
الدفءَ في عروقِ
السماءْ
نساءٌ نساءْ
يتواعدْنَ مع القادمين
من الشرقِ
مثلما يفعلُ في الوجودِ الضياءْ

* * * *

في صبيحةِ يومِ الأحدْ
وجدتُ نفسي وحيداً
في زاويةِ المقهى
من محلةِ مونبرناسْ
الطقسُ ظليلٌ
وحضورٌ نادرٌ، يتشبّهُ
في حالي، يتوحّدُ كلٌّ
مع نفسهِ، يجمعُنا
مقهى محلةِ مونبرناسْ
صبيحةَ يومَ الأحدْ
لكنْ لا نعرفُ

من أينَ
وكيفَ
ومتى يخرجُ كلّ منّا
من عزلتهِ
يتقدّم خطواتٍ نحو
الجهةِ الأخرى

* * * *

الساحةُ مجمعُ طرقٍ
ومجمعُ عشاقٍ
والجو ظليلٌ
في شهرِ العطلةِ
بعدَ نهاراتِ القيظِ
ما الذي ينتابُ الشاعرَ
في اختلاطِ المدنِ
مع شتى صنوفِ الناسْ
أحوالٌ يتحدّث عنها
أهل الحالِ
ولا يتّسعُ لوصفِ الحالِ
مقالي
لا يرقى
ويبقى حيث يبقى

* * * *

ومدينةُ باريس
كأني لا أعرفها
كانتْ تحضنني

وتملأني شعوراً
بالحرّية،
صارتْ تُبعدني
حتى آخرِ غاباتِ الدنيا
وأعمقِ أوديةِ الجان
ما عادتْ تسكنها
امرأةٌ تستوفي
خصَالَ الحُبِّ
تجذبُ قلبي
لا تجذبُ قلبي

* * * *

الوردةُ في باريس
تطيبُ إذا كانتْ تعبى
الخمرةُ في باريس
تُطربُ لو صدحتْ
أنغامُ الليلْ
فنجانُ القهوةِ
صبيحة يوم الأحدِ
في زاويةِ المقهى
من محلّة مونبرناس
يوقظُ أوقاتَ
السيرِ إلى مسارحِ
فضاءاتِ النورْ

* * * *

ما تركتكِ يا امرأةً
اقتربي مني
خلّي أنفاسكِ
تشربُ أنفاسي
لا وقتَ لنفترق الآن
ما بعدُ منَ الأيامِ
لا يكفيهِ البُعدُ

ما تركتكِ يا امرأةً
وكنتُ أعرفُ
أن لعينيكِ ما يتركهُ
النورُ من الألوانِ
على الأشياءْ
وأن لعينيكِ سلطانَ
الحبِّ،
وأن لقلبي ما لا يُحكى
حتى أني لا أسمعُ
قلبي،

ما تركتكِ يا امرأةً
وأنا أبحثُ عن كلِّ
نساءِ الدنيا
عمّا أدعوه الجوهرَ
وسرّ الأنثى

ولماذا خلقَ الله

العالمَ زوجينْ

ولماذا جعلنا نحن اثنين

وكيف إذا تُركتْ

كل الطرقِ بلا حراسْ

تقرعُ في الجسدِ الأجراسْ

ما تركتكِ يا امرأة

ومن يتركُ سفنَ

نجاةِ العشاقِ

إذا فاضَ النيلْ

وهاجَ البحرُ الأبيضْ

عصفت أنواءُ

شمالِ الصين

وغنجتْ حدائقُ شيرازَ من الألوانْ

أفيقُ معكِ على

حبٍّ آخرْ

أطيرُ بأجنحتي

التعبى

صوبَ جهاتِ الحبِّ

أنظرُ كأني أشاهدُ

ما بعد العالمْ

أذوقُ كأني

شاركتُ آدمَ

في حواءْ،
أمزجةَ التفاحْ
أتنفّسُ ملءَ هبوبِ
نسائمِ جنةِ عدنٍ
تحملهُ الريحُ
تهتزُّ سفائنُ
بلقيسَ على الشطآنْ
ولمستُ قماشةَ
خصركِ
يرتفعُ مزاجُ الخصرِ
ويختلجُ الوجدان

* * * *

مثلما تعبرُ الريحُ طريقَ
الهضابِ وتوغلُ
حتى أقاصي انحدارِ
القممْ،
وتحملُ على ظهرها الريحُ
ما صنعتِ منَ
الحبِّ هذا الصباحْ
وعندما كنتُ
مستمعاً في باريس
إلى عزفِ ريمٍ
عبرتْ غزالاتُ
مراعي الشمالْ

إلى حديقةِ داري
وهل تتسعُ الروحُ
لأكثرَ من منزلِ
وادي قرى
وكيفَ يشعلُ
قناديلَ التذكّرِ
كيفَ ينسى
ولا من يذكِّر بالحبِّ
غيرَ الغزالةْ
ولا من يذكِّر بالصمتِ
غيرَ الغناءْ

* * * *

وغيرتُ عاداتي
بعيداً عن الفنّ
وكان يقضي أن أُسْلِمَ روحي
لصدى أوتاركِ
الصاخبةْ
أنامُ على موجِ
السكونِ تتابعَ
في حركاتِ الصدى
وأفيقُ على ضربةٍ
عند سلّمِ القلبِ
أوتارُه
مشدودةٌ

مثلَ حبالِ

السفنِ الغاربهْ

تعجّلتُ القدومَ

هذا الصباح

وقلتُ ينتظرني

البلبلُ، على الغصنِ

يوردُ أشعارهُ

وردةٌ عبثتْ

طيلةَ الليلِ

بطعمِ القمرْ

وقلتُ، سماءُ

باريسَ صافيةُ

اللونِ

وعيونُ النساءِ، زرقاءُ

خضراءُ، حتى كأنّ

الشجرةَ العاليةْ

والشجرةَ المغطاةَ

بأغصانِها

في حدائقَ شاتوبريان

مرآتُها الصافيةْ

* * * *

إني أعدّ الفضائلَ

في الحبِّ، أعلّمُ

أصنافَ عشقي

وأشرحُ ملءَ
صدري، ما الذي تعنيه التجاربُ
والكلماتْ
وأقصدُ أني
ما عرفتُ غيرَ ما عرفتُ
حضوري في حضرةِ
العلمِ
حضورُ العلمِ في
الشيءْ،
عندَ التقاءِ
الهيولى بصورةِ
العشقِ
وما أصنعُ في مهنتي
سوى أني أقيمُ المرايا
قبالةَ هذا
الوجودْ
وأمدحُ ظلي

* * * *

عزمتُ في باريسَ
أن أقطعَ الدربَ
جرياً على العشبِ
الذي لا تراهُ
إلاّ في خاطرِ المدينةِ
العاشقةْ

وأصحبُ حريتي
وليسَ معي،
من جميلاتِ
هذا الوجودِ
سواها
وأصحبُ صرختي
وليسَ معي،
من طرائقِ النطقِ
والصمتِ
أفصحُ، حتى
أَبينْ
وأصحبُ رقصتي
في شوارعِ القاهرة
وسلطانُ قلبي
على العاشقينْ

وإذا لامني عاذلٌ
صفحْتُ وقلتُ
سيعرفُ من بعدُ
أني، طرقتُ
بابَ الحقائقِ
وسكنتُ منزلَ
العشقِ
وإذا أشرقتِ

الشمسُ، عندَ
موعدِ حبي
ملأتُ قلبي
بكلّ ضحكاتِ النهارْ
وإذا صارَ أنّي
غلبتُ على الأمرِ
أنسى،
وأبعدُ
ولكنّ من كانَ
مثلي قريباً
وأنتِ مني كحبلِ
الوريدْ

وإذا أفصحَ شيخي
وقالَ : سأطلقُ
هذا المريدْ
إلى خانقاه
التأمّل
عزمتُ على السفرِ
المتّصلْ
وقلتُ : من
منّا يصلْ

كأن المدينة
مرتاحةٌ لهبوبِ
النسائمِ
تلامسُ شعرَ
ريم المدوّرِ
مثل رقائقِ
محاقِ القمرْ

كأن باريس
خبّأت في ليلِها
نجمةً، مثلما
ريم غزالةُ الروحْ

كأن ريم
تأتي وتذهبُ
لا كما هندُ تأتي
وليلى تروحْ

مدينةٌ
أكثر ما يكتبُ فيها
ما يكتبُ عنها
مثلما الوصلةُ
ساحرةُ الوصلِ
بين لونِ المساءِ

وذوقِ الغناءْ

وريمُ تعزفُ

لحنَها، تتابعُ

طرقَ مترو الأنفاق

تتابعهُ ولا

تهتدي

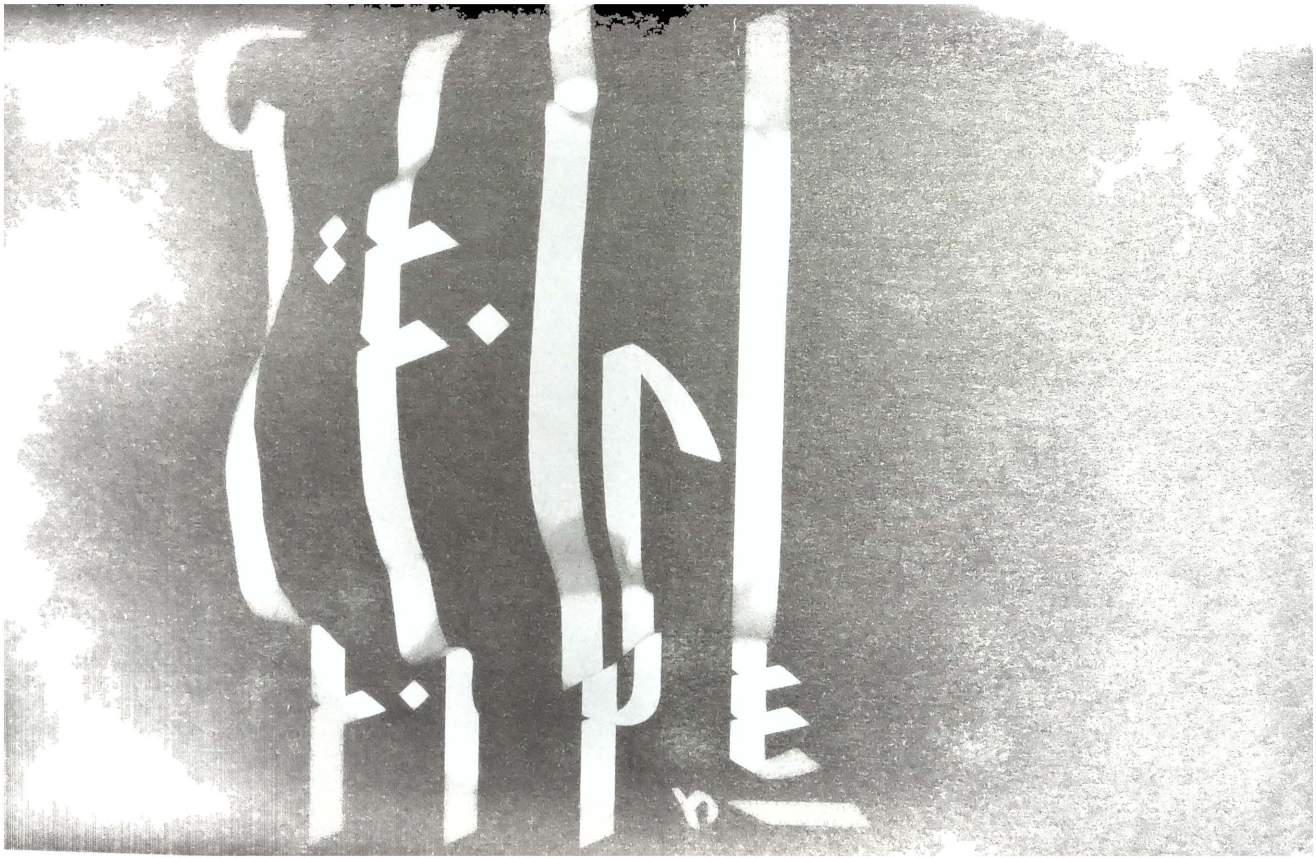

لم تسكنّـي بـعد... أحبهـا فقـــط

عمار مرياش

شاعر ورسام يقيم في فرنسا ويشتغل بالتكنولوجيات الجديدة
له عدة دواوين، منها « الحبشة »، « لا يا أستاذ »، « اكتشاف العادي »
ترجمت بعض قصائده إلى عدة لغات: الفرنسية والإسبانية والإيطالية
والكردية مؤسس مجلة « القصيدة لدى الجاحظية » 1990 الجزائر،
وموقع « كلمات » الثقافية الإلكتروني بباريس 2014 شارك في عدة
تظاهرات ومهرجانات شعرية في العالم: الجزائر، المغرب، تونس، فرنسا،
إسبانيا، بلجيكا.

لست سائحاً هنا، باريس مدينتي منذ وقت، صرت أعرفها قليلاً، مدينتي التي تحتضن أبله سلوكاتي وتوسوس أجمل أحلامي في آن، مدينتي التي تشردني ككلب ضال كلما خسرت نقودي أو ثقلت قدماي، ومدينتي التي تدللني كنبي زنابق وردية في الإبداع وحالات العشق، وتمنحني آذانها الناعسة لقراءة شعري العربي في أمسيات «الصلام - SLAM»، باريس أنيقة باستمرار، تمنح نفسها بيسر وتتجبر كملكة أسطورية في الحظة نفسها.

* * * *

باريس، لا أعرف ماذا أكتب عنك، سأرسمك، وسأرسمك بلونين فقط حتى لا أتشتت ولا تبددني الألوان، القلب يخفق بتأن لكن الحنين يشدني بقوة، لست قادراً على الذهاب في ضياع أبدي، أحب أن أضع رأسي على نهديك وأنام كرضيع معتوه في يوم حار، أحب أن أرتاح، لست مثقفاً، لقد أعلنت هذا في بروكسل قبل سنوات، أي فور اكتشاف هذا الاستثناء المدهش، عمار مرياش شاعر غير مثقف، رائع، لقد وجدت نفسي، قبلتي قلبي، أنى أتجه، صليت له، سأكتشف نفسي من جديد.

* * * *

ولدت في الجزائر، كبرت فيها وأقمت معها علاقة حب استثنائية، بدأت جنوني معها بزرع النقود وسقيها منتظراً أن تعطيني أشجار نقود، مثلما كانت تفعل أمي مع حبات الفول، لكن لا، تنبت حبات الفول وتكبر وتبقى قطع تقودي غائصة في الطين لا تعطي شيئاً، لقد كانت الجزائر أمي ومرضعتي وعشيقاتي وكنت حبيبها الأبله، قطعت مراهقتي في الجري وراء جميلاتها من رأس ديدوش مراد إلى ذيل العربي بن مهيدي مروراً بحسيبة بن بوعلي أو تليملي، لم أهدأ حتى طردتني، أو حتى نهشتني كلابها المسعورة، عرفت بعد ذلك أن شعراء كثيرين عاشوا حالتي من امرئ القيس إلى أبو الياس مروراً برامبو الفرنسي طبعاً، وكمن يعثر على عشيقة جديدة بعد أن يفارق

حبيبته الأولى، هكذا اصطدم قلبي بعيني باريس تماماً كما اصطدمت عينا باريس بجسد هيلين المتفتق جمالاً وروعة في ملحمة هوميروس العتيقة.

* * * *

ألقت إيريس (الهة النزاع) تفاحة ذهبية مكتوب عليها (للأجمل) بين المدعوين إلى عرس ثيتس لتثير النزاع بين الآلهة هيرا وأثينا وافروديت، وقام النزاع فعلاً بين الألهات الثلاث / أيهن أحق بهذه التفاحة. وحتى يحسم النزاع، قرر زيوس (كبير الآلهة) أن يلجأ إلى تحكيم (أجمل البشر) من الرجال ألا وهو باريس ابن ملك طروادة الذي حكم بالتفاحة لأفروديت التي وعدته بأجمل نساء العالم، وساعدته بغواية هيلين زوجة ملك إسبرطة حتى الهروب بها إلى طروادة، تقوم الحرب الشهيرة طبعاً صانعة الملاحم والثكالى وتنتهي بدمار طروادة واكتشاف نقطة ضعف آشيل الوحيدة، قدم آشيل.

* * * *

ليت لي قدم آشيل فحسب، إن روحي كلها نقاط ضعف لن تستطيع الآلهة لها شيئاً، جسدي ربما أشد قليلاً ولكن قلبي هو بكل تأكيد هوة ضعف لا نهاية لها، لا أعرف ماذا يقول التاريخ، ولكنني أحس أن مدينة باريس أخذت اسمها من باريس هذا، ففي باريس تشعر في كل شبر بثقل التاريخ، تشعر بتجذرالأشياء، تشعر بالحروب، بالانتصارات والهزائم، وتقابل آشيل، هكتور، أجاكس وهلين في ساحة الأمة، في الجمهورية وفي الشانزليزيه طبعاً، وحين ترى الباريسيين اليوم تتحقق أنهم امتداد لصراع الآلهة وحروب الفانين وأنصاف الآلهة، الفرنسيون يمتازون بنرجسية كبيرة، ولديهم اعتزاز أصم وأعمى بمنجزاتهم، فأجمل شارع في العالم هو شارع الشانزليزيه وأكبرسوق في أوروبا هي فال دوروب وأشهر قاعة في العالم هي الطاحونة الحمراء وأجمل سيارة هي ستروان وأجمل امرأة في العالم هي بريجيت باردو ويؤمنون بالاستثناء الثقافي الفرنسي إيماناً أعمى، إن أبناء ديكارت المعروفين بموضوعيتهم المتقدمة وتجردهم المذهل صاروا في السنوات الأخيرة يميلون

إلى الأولوية الوطنية وهذا غريب، ولكنهم مازالوا يعطون لكل شيء قيمة مهما كان بسيطاً، بل يخلقون له قصة ويؤسطرونه أحياناً، حتى ليشعر الواحد مثلي من الذين في ثقافاتهم لا يعطون قيمة لأي شيء بالمبالغة الفائقة، ويحس أنه لو جلس على بقايا صخرة مهشمة في شارع مجهول وضيق فربما جاءه بعد لحظات دليل سياحي يقود مجموعة من السيّاح ليقول لهم إن نابليون بونابرت جلس على هذه الصخرة نفس عام كذا وكذا وقال مقولته الشهيرة كذا وكذا.

* * * *

إذا أردت أن تحافظ على حبك لامرأة لا تتزوجها، ستكتشف دائماً وباستمرار أنك آخر من يعلم فعلاً، كما في المقولة الشهيرة، وإذا أدرت أن تكتشف مدينة مثل باريس لا تسكنها، ستكتشف باستمرار أنك آخر من يعرفها، إنني أكتشف باستمرار أن أي سائح يعرف باريس أحسن مني، هل هذه خاصيتي فقط؟ لدي أصدقاء ولدوا في باريس وكبروا فيها يعرفون بورا بورا أكثر مما يعرفون باريس. أسكن باريس منذ خمس عشرة سنة ومازلت أتوق إلى صعود برج إيفل كما يتصور سائح أجنبي غير ثري يزور باريس لأول مرة، برج إيفل لم أصعده حتى الآن، لم أصعد برج مونبرناس أيضاً ولا قوس النصر، أم لأن هذه المعالم هي للسيّاح أولاً؟ وما دمت لست سائحاً فسيأتي حتماً اليوم الذي سأزورها فيه، لِمَ العجلة؟ هي مدينتي وسأكتشفها ببطء، هكذا يفكر قلبي كل مرة، سأبقى إذن أراوح بين مركز جورج بومبيدو الثقافي ومعهد العالم العربي مروراً بـ«نوتردام» والحي اللاتيني عبر ضفتي نهر السين حيث الشباب الباريسيون والسيّاح والعاطلون عن العمل والطلبة يسهرون كل مساء مالئين الدنيا صخباً، موسيقى، قبلاً، لعباً، غناء، عناقاً وصراخاً أيضاً، ثمة شعر ورقص جماعي أحياناً وفرق موسيقية ورسامون وشامون وفي جو طفولي خالص تخترقه من حين إلى آخر بواخر صغيرة هي في النهاية مطاعم أو حانات متنقلة مشعة بألوان زاهية.

* * * *

منذ البداية لم أشعر أن باريس غربة، على الرغم من أنني عربي اللسان ولم أكن أفهم الفرنسية إلا قليلاً جداً، لم أشعر بالغربة، فباريس كلها علامات، وإشارات واتجاهات وخرائط جيدة الصنع، لا يمكنك أن تضيع أبداً مادامت المعلومات متوافرة بكم مذهل وسهلة الفهم وبسيطة، باريس دليل سياحي مصور، وكل شيئ مرقم ومسعر ولديه هوية، ثم إن هندسة المدينة واضحة وقوانينها أيضاً، ربما لهذا السبب لا تشعر بالاغتراب في باريس، ونادراً ما حدثني صديق أو زائر عن شعوره بالاغتراب هنا، فمادامت هناك خرائط وعلامات وإشارات واضحة فأنت تعرف المكان جيداً وتألفه بسرعة ولكن ألا يشكل وزن الاسم انفعالاً لديك: باريس؟

* * * *

أنظر إلى باريس كمدينة شارك آبائي في تحريرها من النازيين الألمان مرتين، أكثر مما أنظر إليها كرمز لإمبراطورية احتلال حطم شخصيتي الجزائرية ونهب خيرات بلادي، أحب أن أرى الزجاجة نصف ملأى على أن أراها نصف فارغة، هذه المسألة حسمتها في الجزائر منذ زمن، الاستعمار حاربناه وانتهى الأمر، علاقتنا بباريس ينبغي أن تكون علاقة مستقبل وليست علاقة ماض، ولا أفهم عندما التقي بعض الأقدام السوداء وترى حنينهم الزائد إلى الجزائر، بعضهم يبكي كأنه فقد أمه قبل ساعة، أقول الجزائر مستقلة منذ أكثر من خمسين سنة، ينبغي أن تفيقوا، نحن المسلمون طردنا من إسبانيا بعد ثمانية قرون، إنها وطننا ووطن أجدادنا واجدادهم، هل نتشبث بالأطلال ونبكي؟ صفحات الكتاب طويت وانتهى الأمر، ينبغي النظر إلى غد بقلب نقي وعيون صافية، غداً لن يكون العالم بهذا الشكل، ستزول الدول بسرعة فاسحة في المجال أمام أشكال أخرى للحياة، والتجارة والثقافة والحوار، أشكال أخرى للعلاقات الإنسانية والتعايش على الأرض.

* * * *

لم تسكنني باريس بعد، أحبها وكفى، أنا أعيش الآن مدينة افتراضية هي مزيج من الجزائر ووهران وبشار وسوسة ودمشق وبروكسل وروتردام ومونبيليه وبوردو وبيربينيو وقصائد شعر وبقايا جراح قديمة وذكريات مرعبة وأحلام لازوردية وأمانٍ وأحلام قد لا تتحقق أبداً، أتراني أحب أيضاً امرأة افتراضية هي مزيج من حميدة وليلى ونواديا ونورا ونجاة ومليكة وباتريسيا وإيمان وقصائد شعر وبقايا جراح قديمة وذكريات مرعبة وأحلام لازوردية وأمانٍ وأحلام قد لا تتحقق أبداً؟

* * * *

باريس هي موضوعياً قلب العالم وليس بيربينيو كما يعتقد صديقنا الرسام الشهير سلفادور دالي، يسارها يقطنه اليسار ويمينها يقطنه اليمين، أصحاب الأموال والسيادة يسكنون المركز بينما الفقراء والعمال والمهمشون يسكنون المحيط، وتتشكل دوائرها العشرون انطلاقاً من قلب الدائرة الأولى «شاتلي» إلى ذيل الدائرة العشرين «بوابة فانسان» في شكل حلزوني واضح، يفصل نهر السين بين شمالها الغني وجنوبها الفقير، وتنطلق منها أغلب الطرق السريعة التي تتجه إلى المدن الفرنسية والأوروبية، وأحبها إلي هو الطريق السريع أربعة، ربما بسبب ألفته حيث أسلكه باستمرار منذ سنوات. وهذه الهندسة البسيطة والعملية للمدينة تمتد أيضاً إلى «إيل دو فرانس» كلها، حيث يشكل العرب، الأفارقة، الفقراء وذوو العقيدة اليسارية أغلبية سكان المقاطعة الثالثة والتسعين شمال شرقي باريس، بينما يهيمن اليمينيون والأثرياء وأصحاب النفوذ والفقراء على شمال غربي وغرب باريس بكثافة.

* * * *

باريس مدينة جميلة ومنظمة تقوم حيويتها على أساس التخصص الوظيفي أو العرقي فالصينيون يوجدون بكثافة في الدائرتين الثالثة عشرة والحادية عشرة وفي نقاط مهمة أخرى من باريس، وهم شعب يبدي

هدوءاً متميزاً، شعب ذو ثقافة عملية وميكانيكية من ابتسامة الترحيب إلى تكشيرة خدمات ما بعد البيع، فيما تتراجع هيمنة اليهود على الدائرة الثالثة على ما يبدو، ويتراجع أيضاً الحضور الجزائري والمغاربي عموماً في ملكية المطاعم والحانات، فيما تتكاثر المجازر الإسلامية، هكذا يسمونها «مجزرة إسلامية» وتعني أن اللحم هنا مذبوح وحلال، الحلال يتزايد بشكل عام أقله مظهرياً. الصينيون يسيطرون أيضاً على تجارة الإعلام الآلي حول «سيركوف» بالدائرة الثانية عشرة وهي دائرة متخصصة تقريباً بتجارة الكومبيوتر والإعلام الآلي وتقع جغرافياً في الجهة الشرقية إلى الجنوبية الشرقية. في الشمال نميز بسرعة الدائرة الثامنة عشرة التي توجد بها «مونمارتر» وحي «بيغال» الشهير والطاحونة الحمراء المعروفة عالمياً وكذا قاعة العروض «الزيز» وقاعة «البالونة السوداء» ويوجد بالحي أكبر عدد من متاجر الجنس ومتحف للجنس أيضاً، ولكن البؤس يسيطر على الحي في هذا الوقت. ولم تعد أقبية اللذة في بيغال - حسب تعبير نزار قباني - سوى أقبية، أو متاحف حية لبقايا لذات سنوات الرفاهية السالفة، وتعيش تجارة الجنس في باريس وضعاً رديئاً للغاية وبائساً جداً. بصفة عامة الفقر يبدو صارخاً وعدد المشردين تضاعف بعشرات المرات خلال العشرية الأخيرة، طبعاً أتحدث من خلال تقديراتي إذ ليست لدي إحصائيات ولكن تدني مستوى المعيشة واضح جداً جداً وتنامي العنصرية قوي جداً أيضاً، وتزايد انغلاق الباريسيين على أنفسهم واضح جداً أيضاً وعلى أعلى المستويات حيث نظم الحزب الحاكم قبل أشهر حواراً وطنياً خصصه لمناقشة الهوية الوطنية. ضحكت بأسى لهذه المهزلة التي ذكرتني بعض ندواتها بالندوات البائسة التي كان ينظمها اتحاد الكتّاب الجزائريين للحديث عن العلاقة بين المثقف والسلطة، ودور المثقف في خدمة التنمية وكذا وكذا. طبعاً في مثل هذه الظروف يكون ممتعاً أن يرن هاتفك ليقترح عليك أحد أصدقائك من الرسامين أو النحاتين أن ترافقه لتدشين معرضه الجديد بالدائرة السادسة ويدعوك قبل ذلك إلى مقهى الفيلسوف جون بول سارتر نفسه ويحدثك عن ثورة الثامن والستين فتحس بكثير

من الارتياح والطمأنينة. بعد الافتتاح، ستكتشف بسرعة أن الحي مكتظ بمعارض الفنون التشكيلية، ثم تكتشف أيضاً قاعات سينما ومسارح فتسميها دائرة الفن والثقافة، طبعاً إذا مشيت عكس اتجاه نهر السين تصادف حتماً مسجد باريس وهو أحد أهم المعالم الإسلامية في عاصمة الثقافة هذه، لوجه الله لا تتناول شربة رمضان هناك مع زوجتك، ستتألم حتماً إذ تكتشف أن الشربة توزع على الرجال قبل النساء ولن تعود إليه أبداً، بل اختر لك مكاناً في قاعة شايه، هناك حيث العصافير الصغيرة تلعب مع السائحات الإنجليزيات والألمانيات الجميلات، ستحتفظ بذكرى أجمل عن مسجد باريس وترى أحلاماً لذيذة في منامك هذه الليلة، غداً ستزور حي «لاديفونس» لزيارة معرض للتكنولوجيات الجديدة.

* * * *

تتعايش في باريس جنسيات كثيرة ذات ثقافات متنوعة وعصور متباعدة، مشكلة في تقطعاتها مجالات كثيرة، لكل منها لغاته، طقوسه، أهله وعلاماته، فحركة العامة في قلب باريس «شاتلي» الشبانية عموماً هي أكثر تسارعاً من حركة العامة في الدائرة السادسة عشرة المعروفة بأثريائها، وحيوية حي «بارباس» المغاربية الإفريقية لا علاقة لها بديناميكية حي «لاديفونس» المعرفية والتكنولوجية، هنا كل شيئ رشيق وأنيق ومثير وشفاف، البنايات الزجاجية شامخة، المتاجر شفافة، المقاهي والمطاعم شفافة أيضاً، والنساء رشيقات جداً وطويلات كعارضات أزياء، الرجال أيضاً رشيقون كانهم أبطال رياضة من الدرجة الأولى، النظافة ويسر الحال باديان على الجميع، حركة الخلق هنا سريعة جداً ومواعيدهم مضبوطة بالبكسل – وحدة قياس في الكومبيوتر. هنا تدرك أن الجميع يتجاوزك وأنك قديم وسمين ومهترئ، هكذا تتراجع في طلب صديقتك باتريسيا عبر الهاتف، وتحس بكراهية واحتقار للكتّاب العرب الذين يتشدقون بالحديث عن الغرب قبل أن تقرر نسيانهم إلى الأبد، ستشعر بعقدة النقص لأول مرة في باريس وتحس أنك لست في المستوى وأنه عليك أن تمارس الرياضة

ابتداءً من الآن، وتقرر أن تبدأ هذا غداً صباحاً. قبل ذلك سيشدك الحنين ثانية إلى الحي اللاتيني لتمر فوق جسر العشاق حيث الأقفال المتعددة الحجوم والألوان والأشكال وتتمنى أن تعقد قفلاً لك معهم، ذات يوم عندما تعثر على امرأة تحبها وتحبك.

بازدید

استبعتني فصرت فخوراً بهويتي العربية وصارت جديرة... بـ«قُدَّاس»

فيصل جلول

باحث وكاتب وصحافي لبناني مقيم في باريس منذ أكثر من ربع قرن. عمل في الصحافة وفي مراكز الأبحاث ونشر مقالات ودراسات بلغات عربية وأجنبية مختلفة. حائز دبلوماً في الدراسات المعمقة في العلوم الاجتماعية وليسانس في الجغرافيا.
من مؤلفاته المنشورة «حوار المشرق والمغرب» و «الجندي المستعرب» و «نقد السلاح الفلسطيني» و «مصر بعيون الفرنسيس» و «اليمن، الثورتان، الجمهوريتان، الوحدة» و «معنى أن تكون عربياً اليوم» . عضو مؤسس ومسؤول في عدد من المنظمات والمؤتمرات والجمعيات العربية. معلق غير منتظم في عدد من الفضائيات والإذاعات العربية والأجنبية.

كانت كما تخيلتها. أوراق خريف صفراء تتدرج ألوانها نحو البني المحروق بحسب نوع الأشجار في حديقة «لوكسمبورغ» الواقعة في دائرة باريس السادسة على مقربة من جامعة السوربون. كنت أمشي بهدوء لأسمع حفيفها المتكسر تحت قدمي. لفرط مشيتي البطيئة كنت أميز بين صدى خطواتي على الأوراق التي لم تجمع بعد. كنت مصراً على أن أؤكد لنفسي أنني صرت حقاً في مدينة دافئة وضاجة بالأنوار لكن عتمتها ساحرة أيضاً. مطرها جذاب وثراؤها فاحش لكنه ليس عدوانياً... وذلك وغيره يقطع مع بيروت الحرب والظلام والموت التي غادرتها «أمس الأول» في ظروف شديدة الخطورة.

كانت قذائف الهاون تتساقط بحساب هندسي دائري ومركز حول منزلي في ضاحية بيروت الجنوبية. تفصل بينها أمتار قليلة، ودقائق أقل من خمس على ما أظن. كان القصف منهجياً. خمنت أنه يستهدفني ذلك لأنني قد نشرت ملفاً في جريدة «السفير» عن ضاحية بيروت الجنوبية وبعد مضي أشهر قليلة تعرض صاحب الجريدة الأستاذ طلال سلمان لمحاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة. كانت الضاحية حينذاك مجمعاً سكنياً ضخماً يراد هدمه وتهجير سكانه إلى أماكن أخرى لأهداف طائفية وسياسية.

نشأت في هذا المكان المستهدف وفيه كنت أعيش وأهلي يقيمون ورفاقي وأصدقائي والثورة الفلسطينية واليسار اللبناني. كان ينبغي ألّا ترتكب جريمة هدمها وقد ساهمت ومجموعة من أصدقائي في التعريف للمرة الأولى بها أي بمجتمع ساحل المتن الجنوبي وفق التصنيف الإداري الرسمي في لبنان الذي سيعرف بعد نشر ملفنا بـ «ضاحية بيروت الجنوبية».

كان نظام الرئيس الأسبق أمين الجميّل قد حصل على موافقة الولايات المتحدة وفرنسا على هدم الضاحية باعتبارها مجمعاً عشوائياً يضم بضعة آلاف من السكان و«بؤرة إرهابية» تعيق السيطرة المحكمة

على المدينة وتتيح انكشاف مخيمات الفلسطينيين في برج البراجنة وصبرا وشاتيلا فإذا بملف «السفير» يكشف النقاب بمنهج علمي وبراهين قوية عن وجود ربع سكان لبنان في هذه المنطقة الصغيرة.

التقطت السفارات الأجنبية معلومات الملف واكتشفت هول مشروع الجميّل وكفت عن تغطية الجريمة ليس لأسباب أخلاقية وإنما لأنها ما كانت قادرة على مباركة تشريد ربع سكان لبنان وهي التي تمنح الشرعية لرئيس تلك الفترة.

فشلت الجريمة المدبرة فانتقم مدبرها على طريقته وكان قد خرج على الفور من مكتب ميليشيا «الكتائب» إلى القصر الجمهوري. في تلك الظروف انهمرت قذائف الهاون على منزلي من كل الجهات وشاءت الصدف المؤلمة أن تتسبب إحداها بقتل طفلتين في مبنى ملاصق لبيتنا. كنا نسمع صراخ والدتهما وهي تطلب النجدة وما كنا قادرين على نجدتها لأن حريقاً اشتعل في ست سيارات أمام مدخل بنايتنا وكان ينبغي معالجته حتى لا يأتي علينا جميعاً.

في نهاية ذلك اليوم انتقلنا إلى ملجأ المبنى المجاور لبيتنا خوفاً من تجدد القصف حيث أمضيت الليل ساهراً حتى لا تهاجم الجرذان طفلتي وكانت في عامها الأول. ليلتئذ رسمت في مخيلتي سيناريو الإقامة في باريس مدة عام أحضر خلاله أطروحة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية في جامعة السوربون حيث كنا زوجتي وأنا قد انتسبنا إليها العام الفائت بعد تخرجنا في معهد العلوم الاجتماعية في بيروت.

حلم لوكسمبورغ

في تلك الليلة تخيلت سيناريو أوراق الخريف أسمع أصواتها تتكسر تحت قدمي في الحديقة التي أسستها قبل 400 عام الدوقة «ماري دو ميديسيس» المتحدرة من توسكانة لتكون فضاءً أخضر لقصرها الجميل

الذي صار اليوم مقراً لمجلس الشيوخ. تخيلتني أمشي هنا وأحلم بعشرات المشاريع والأفكار ومن ثم أعود إلى مقهى الحديقة حيث نايلة تنفث دخان سيجارتها وترشف كعادتها آخر نقطة قهوة تائهة في عمق فنجانها.

في اليوم التالي لليلة الملجأ القذر كانت الصدفة حليفتي في طريقي إلى السفارة الفرنسية لطلب تأشيرة السفر دون أمل كبير في الحصول عليها. فوجئت بالصديق مروان فارس يومئ من شباك سيارته لأن أتبعه إلى مكتبه القريب في فردان. لم أكن أعرف أنه صديق للسفير الفرنسي وأن بوسعه الحصول على التأشيرة بواسطة الهاتف الأمر الذي كان أشبه بالمعجزة في حينه.. في اليوم الثالث كنا في طريقنا إلى دمشق بسبب إقفال مطار بيروت ومنها إلى باريس التي ما زلنا نقيم فيها نايلة وحلا وميسة التي ولدت في المدينة وأنا منذ أكثر من ربع قرن.

بعد شهور اكتشفت أنني لن أتمكن من تغطية تكاليف إقامة أطول وأنه لا بد من العمل والدراسة معاً، وكانت صدفة سعيدة أخرى إذ تلقيت عرضاً من الصديق بلال الحسن صاحب مجلة «اليوم السابع» عبر الزميل والصديق الراحل جوزف سماحة فكنت من المجموعة التأسيسية التي أصدرت العدد الأول من الصحيفة وحتى العدد الأخير بعد حرب الخليج الأولى عام 1991.

في «اليوم السابع» اقترحت على رئيس التحرير أن أعود إلى بيروت لإعداد ملف موسع حول المقاومة اللبنانية التعددية ضد الاحتلال الإسرائيلي فيكون عملاً تأسيسياً للصحيفة في غرة صدورها. وبما أن مطار بيروت كان ما زال مقفلاً فقد غامرت بالسفر بحراً من قبرص إلى الحمام العسكري في الشطر الغربي من العاصمة اللبنانية في رحلة استغرقت 11 ساعة على متن مركب صغير كدت خلالها أفقد حياتي.

وإذا كانت قذائف السهور الماضية قد حملتني على التخطيط للإقامة عاماً واحداً أو عامين في باريس فإن عودتي إلى بيروت ستحملني على التفكير في الإقامة الدائمة في عاصمة الفرنسيين ذلك أنني ما أن انتهيت من إعداد ملف «المقاومة اللبنانية» حتى تقدمت بطلب تجديد جواز سفري اللبناني فاشترطت الإدارة الواقعة في القسم الشرقي من العاصمة أن أحضر لاستجوابي لأسباب سياسية وما زلت أحتفظ بإضبارة الاستدعاء حتى اليوم. رفضت بطبيعة الحال لأن ذلك يعني القتل المباح وفق مقاييس الحرب الأهلية وبدأت مساعي طويلة للتوسط اكتشفت خلالها أن جهة أمنية ما قد نسبت إلي الارتباط بكل الأحزاب اليسارية والقومية والفلسطينية المعادية لآل الجميّل فضلاً عن إشاعات أخلاقية قميئة كنا نسخر منها يومياً في جلسات «السفير» الصباحية.

في وقت لاحق باشرت ضغوطاً حقوقية وإعلامية أفضت إلى إرسال جواز السفر مع ضابط لبناني كبير كان يسكن في بلدة حارة حريك المجاورة من حينا. خاطبني بعد أن سلمني الجواز في صالون بيته قائلاً «كلنا نعرف أن ملفك خال من المخالفات لكن المخابرات التافهة في العالم الثالث تسعى للإساءة إلى الإعلاميين عبر الإشاعات الكاذبة. أنصحك بأن تبقى في باريس حتى ينتهي عهد "الجميل"» وهو ما حدث حرفياً فلم أرجع إلى بيروت إلا في العام 1991 بعد أن زال ذلك العهد السيىء بنظر غالبية اللبنانيين. بيد أن البقاء سبع سنوات متواصلة في باريس دون العودة إلى بيروت كان يشي إلى جانب الحرب الأهلية المستمرة بإقامة طويلة.

أدخل من هذا الباب إلى باريس التي تستقبل آلاف الهاربين مثلي من الملاحقة والقمع والاستبداد والحروب من مختلف القارات وتستقبل أيضاً عشرات الألوف من المهاجرين لأسباب اقتصادية من الذين يديرون خدماتها اليومية.

باريس التي تخيلتها في بيروت هي غير تلك التي عشت فيها وتعرفت إليها وتحدثت بلغتها أو ليست هي تماماً. تصوري عنها لم يكن مجرداً من النظرة المسبقة أو سوء الفهم والأحكام القيمية أو الأوصاف السريعة. تبدلت في ذهني وجوه المدينة تماماً خلال إقامتي الطويلة وأحياناً عدة مرات.

مضى وقت طويل قبل أن أعرف أن الحي اللاتيني في باريس ليس منسوباً إلى مقيمين من أميركا اللاتينية كما كنت أتخيل وإنما لأن سكانه كانوا يتحدثون اللغة اللاتينية. عرفت ذلك من حوليات الثورة الفرنسية أن صفة الحي وافدة من سكانه القدماء وأن السوربون التي ترمز اليوم إلى التنوير كانت معهداً كاثوليكياً يمارس الرقابة على المصنفات المنشورة. ومرة أخرى وبعد وقت أطول علمت أن باريس سميت بمدينة الأنوار لأنها كانت أول مدينة أوروبية تضاء بمصابيح «الكيروسان» عام 1828م وكنت أعتقد كما يعتقد كثيرون في العالم العربي وربما في أمكنة أخرى إنها مدينة الأنوار الفلسفية التي أضاءت «ظلام» عوالم الاستبداد في فرنسا وافتراضاً في كل مكان.

جئت إلى المدينة وأنا أتخيل أثار فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو ومونتاني وديدرو وزولا وبلزاك وهيغو ودوما.. معظمة في الشوارع والساحات فكان أن زرت منزل الأول في جنيف وعثرت على الثاني في وقت متأخر في مسرحية روسو — فولتير وعلى أثر الرابع في جادة تحمل اسمه كنت أمر فيها يومياً دون أن أنتبه لسنوات طويلة في طريقي إلى مقر عملي.

وكنت أظن أيضاً أن المدينة تبجل روبسبيير ورفاقه اليعاقبة الذين أصروا على قطع رأس الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت فإذا بأسمائهم مهمشة ومنعزلة فالأول اسمه مرفق بمحطة هامشية في

النقل المشترك وحتى الآن لم أعثر على جادة أو بولفار يحمل اسم «مارا» أو «سان جوست» الذي اقتصر ذكره على شارع صغير في الدائرة 17 في حين استقر اسم «كاميل دومولان» في ضاحية ملاصقة للعاصمة حيث تقع فضائية فرانس 24. وسأعرف من خلال استفتاء أجري على هامش المئوية الثانية للثورة الفرنسية أن فرنسيي اليوم بغالبيتهم الساحقة لا يؤيدون قطع رأس الملك وزوجته ويعتبرون اليعاقبة إرهابيين ودمويين إلا فئة من الشخصيات الراديكالية كالسيد «جان بيار شوفنمان» وزير الداخلية الاشتراكي الأسبق الذي سمعته يوماً يقول: «شكراً لليعاقبة الذين جعلونا نعيش حتى اليوم في نعيم العلمانية» في حين كان «بول كيليس» وزير الدفاع الاشتراكي الأسبق أيضاً يتحدث بلغتهم في أحد مؤتمرات الحزب الاشتراكي عشية انتصار فرانسوا ميتران في رئاسيات العام 1981 إذ يقول: «يجب ألا نكتفي بمقولة روبسبيير وسان جوست حول قطع رؤوس قادة النظام القديم علينا أن نحدد الآن ما هي الرؤوس الجديرة بالمقصلة» والمقصود هنا المقصلة السياسية بطبيعة الحال. لن يستمع فرنسوا ميتران إلى نصائح وزير دفاعه المقبل فقد ألغى قانون الإعدام للمرة الأولى في التاريخ الفرنسي وأرسل المقصلة إلى مزبلة التاريخ ...

وفي باريس سأتعرف أكثر إلى وقائع طبعت ثقافتي السياسية في فترة المراهقة وبالتالي على وجه مختلف لـ«ماري أنطوانيت» التي يشكك مؤرخون في عبارتها الشهيرة عن الجوعى «فليأكلوا بسكويت» وما نسب إليها ظلماً من تحرش بابنها القاصر. ولا أدري كيف يمكن نعت حياتها الزوجية بعد أن انتظرت سبع سنوات ليتمكن لويس السادس عشر من فض بكارتها بعد عشرات المحاولات الفاشلة، ما يفسر ربما جانباً من الصخب الذي أشيع حول حياتها ونشرته الثورة الفرنسية على «أسطح باريس» ومنها إلى العالم أجمع.

وغالباً ما مشيت على الأقدام متأملاً الأماكن التي كانت مسرحاً للثورة الفرنسية فقد سكنت عامين بالقرب من ساحة الباستيل وفي شارع

يطل على «فوبور سانت أنطوان» ومنه تتفرع زواريب وأزقة الحرفيين الذين شاركوا بحماسة في تدمير «سجن الباستيل». مازالت تلك الأزقة قائمة حتى اليوم ولكن من دون اقتصادها الحرفي. سأعرف من بعد أن المتظاهرين ما كانوا يريدون تدميره الذي نجم عن سوء تفهم بين قائد حاميته ووفد من المتظاهرين جاء ليفاوض قائد الحامية باتفاق مسبق وأن مسؤول الحرس ارتأى بعفوية تامة أن يخرج المدافع إلى أبراج القلعة لتنظيفها خلال وجود الوفد في حين أقفل الحرس مدخل السجن الخارجي فظن المتظاهرون أن فخاً نصب للوفد وانطلقوا يبحثون عن أسلحة في المدينة لمهاجمته وتهديمه، والراجح أنه لولا سوء التفاهم لبقي «الباستيل» حتى يومنا هذا علماً أنه لم يكن في آخر أيامه يضج بالسجناء حيث تم إحصاء سبعة منهم فقط عشية سقوطه.

وفي وقت آخر عملت بالقرب من ساحة الكونكورد أي الوئام وكانت من قبل ساحة الثورة ومن قبل ساحة لويس الخامس عشر. هنا التاريخ يتعاقب بوضوح في الأماكن نفسها ويتيح تكوين ذاكرة جمعية هي من أركان جاذبية هذه المدينة. كنت أدخل من الساحة إلى حديقة الـ«تويلري» حيث أمضى لويس السادس عشر وماري أنطوانيت آخر أيام حكمهما في قصر هدمه ثوار «العامية» سنة 1871 ولم يبق منه سوى جناح صغير يسمى الـ«اورنجيري» وهو مخصص اليوم للفن التشكيلي في أوائل القرن العشرين. هنا وعلى الأرصفة نفسها كان الفقراء عشية الثورة ينتظرون أن يرمي أحد سكان القصر بقية تفاحة «فلا تصل إلى الأرض» على ما تفيد حوليات تلك الفترة.

ما من شارع محايد في هذه المدينة التي تضم عمراناً من الخامس والسابع عشر والقرون التالية بما يشبه تعاقب التاريخ. فعلى هذا الرصيف كان مهندس ينتظر مرور نابليون بونابرت ليكرمه فيرد عليه قائلاً: سيدي إن أفضل تكريم لي هو أن تحمل زوجتي طفلاً منك. وفي أمكنة أبعد، بالقرب من مبنى البلدية، كان الجنرال «سان أرنو» جزار قسنطينة

الجزائرية يرتكب مجزرة أخرى في عاصمة النور قضت على الجمهورية الثانية ومهدت لتنصيب «نابليون المسخرة» على ما يشير كارل ماركس إمبراطوراً على الفرنسيين.

وإن جلست على رصيف مقهى في ساحة الكلية الحربية سيحشر التاريخ أنفه في الجلسة فتسأله ويسألك فتعيد النظر بما تعرف وما عرفت هنا في هذا المكان الرمزي كنت أظن أن «قضية دريفوس» ثانوية في مصير فلسطين فإذا بي أكتشف مع الاحتفال بالمئوية الأولى للقضية وإعادة تركيب مجرياتها أن تيودور هرتزل الذي كان صحافياً سويسرياً يغطي وقائع المحاكمة قرر في ذلك الحين الدعوة لإنشاء وطن قومي لليهود. ومن هذا المكان تذهب بخيالك مباشرة إلى فلسطين والى حضور القضية الفلسطينية المركزي في بلدك وعالمك العربي.

وفي بيروت كنت أظن أن ميراي ماتيو هي المطربة الأكثر شعبية في فرنسا وأن أنريكو ماسياس معبود الجماهير فإذا بي أصاب بذهول جراء سخرية النقاد الجادين منها وبأن ماسياس الذي ما انفك يحب الصهاينة ويدافع عن إسرائيل التي اجتاحت بلدي تواً ومازالت تحتله وانه يحمل في بعض أغانيه حنيناً إلى الجزائر حين كانت مستعمرة فرنسية وأنه يعبّر عن حنين جزء معتبر من اليهود الفرنسيين الذين اندمجوا في المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر وخرجوا مع المستعمر بعد رحيله.

وكنت أعتقد سنوات طويلة أن الجزء الأهم من باريس الراهنة يدين للجمهورية التي حدثت هذه المدينة وطبعتها بطابعها فإذا بي أكتشف أن الحدث العمراني الأهم فيها هو من تخطيط الإمبراطور نابليون الثالث والبارون جورج هوسمان. وفي هذا السياق يمكن القول إن ثرواتها الفنية في مختلف المجالات تراكمت في العهود الملكية.

وكنت أظن أن المدينة تفخر بـ«برج إيفل» الذي تتجه إليه أنظار كل سياح العالم وأنه من المقدسات الباريسية وروائعها إلى أن عرفت أنه

كان رمزاً معدنياً مكروهاً للثورة الصناعية الأوروبية في القرن التاسع عشر ونهض في المعرض العالمي الذي أقيم في المدينة بعد مضي قرن على الثورة البورجوازية. ولعل مصيره كان أفضل من مصير لويس السادس عشر فقد أنقذه صوت واحد في اجتماع للمجلس البلدي خصص للبحث في مصيره بعد المعرض العالمي فانقسم الأعضاء إلى قسم يريد الاحتفاظ به وآخر يرى وجوب تدميره وانتصر القسم الأول في التصويت برجاحة صوت واحد.

وكنت أظن أيضاً أن التحاقي بجامعة السوربون يعطيني أفضلية على بقية الأجانب في نظر الفرنسيين. وكان سوء تفاهم آخر بيني وبين المدينة التي تضج بالمهاجرين ويعتقد رهط واسع من سكانها أن طلاب السوربون وغيرها من الجامعات مهاجرون متنكرون بالدراسة وأنهم سيضافون إلى ذلك الحجم الكبير من الأجانب الراغبين في البقاء والمراهنين على الهرب إليها من الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي يصادفونها في بلدانهم الأصلية. وهذا التصور ليس خاطئاً أقله في حالتي الشخصية فقد علمت بواسطة «التلفون العربي» أن قراراً إدارياً يعطي الأفضلية في الإقامة الدائمة للبنانيين وللوافدين من لاووس وكمبودجيا بمجرد حصولهم على عقد عمل بسيط في حين كان لا بد من راتب يتعدى الخمسة آلاف دولار شهرياً لإقامة للمغربي أو التونسي أو أحد سكان المستعمرات الفرنسية السابقة في أفريقيا.

العرائس الروسية

هذا النوع من المعارف وغيرها ما كان متاحاً ولن يكون لغيري أيضاً إلا بعد تجارب وطول إقامة وعناية مركزة ورغبة في الاطلاع والمقارنة والتفحص وأسئلة لا تنتهي إلى أن تمسك بمفاتيح المدينة وتفك شيفرتها أو الأصح بعض هذه الشيفرة فباريس أشبه بالعرائس الروسية المتعددة والمتخفية دمية داخل دمية.

تستأثر باريس بسلطة شاملة متعددة المصادر الاقتصادية والسياسية والمعرفية وأنماط الحياة وآدابها المختلفة والتمدن وآداب السلوك وفضاء واسع للمتعة. ويطال غنى المدينة الطافح في حياتها اليومية أركان الحواس الخمس. ففي الذوق والمائدة تحتل مكانة فريدة في تعدد وتنوع مطابخها. هي مركز جاذب لكل مطاعم العالم وخصوصاً في حيها اللاتيني الذي يضم قسماً وافراً منها.

وللمائدة الفرنسية آداب غنية بكل فن وقواعد صار بعضها عالمياً وتقنيات خاصة في كل نوع من الأطباق وقد أحصيت ذات عشاء عشرين أداة لفتح ولتفكيك وتناول الأصداف البحرية هي أشبه بعدة ميكانيكي تقليدي. وللذوق في المدينة ثقافة واسعة تجعل تأليف الأطباق على أصول قديمة وحديثة أو مختلطة فناً باريسياً لا يضاهى وذلك إلى حد أن مديري المطابخ الكبار يتقاضون رواتب تصل أحياناً إلى مستوى رواتب مدراء الشركات وبعض الشوارع تحمل أسماء طباخين مشهورين. ولأن المطبخ بل المطابخ الفرنسية رائدة عالمياً، فإن السوق الفرنسية هي بين الأهم في تسويق المنتوجات النادرة كالبهارات الهندية والزعفران المغربي أو الكافيار الروسي أو البوفالا الإيطالية...

سلطة المعرفة

وينطبق ذلك على المشروبات وثقافتها. فللنبيذ مراجع تاريخية ومتاحف وحانات خاصة و«فينيوتيك». وللنبيذ في باريس خبراء مصنفون في فن التذوق يقيسون ميزاته وينظمون بورصة لأسعاره ويحرص الذواقة على ضبط خصائصه الطبيعية. إن وجبة في مطعم «الريتز» أو «كلوزري دو ليلا» أو «كريون» أو «جورج الخامس» وصولاً إلى «موريس» و«ليب»... تتيح قياس ثقافة التذوق وغناها وتنوعها وهي في تقديري غالبة بمتعتها على الزبائن وهم في أكثريتهم الساحقة من المستتبعين بالمعنى المحبب للكلمة.

لثقافة العين فيها وجوه وأنشطة مختلفة فهنا صالة سينما واحدة لكل 6000 باريسي وهي النسبة الأعلى في العالم. وهنا أجمل وأهم بيوت الأزياء بل هنا معقلها ومحترفاتها وصالات إطلاقها وهي تكاد أن تنحصر في وحول الشانزليزيه، أجمل جادات العالم التي تبدأ من عتبة ساحة الكونكورد لتصل صعوداً إلى قوس النصر. ويحلو للبعض أن يغمز جنسياً إلى الخط الجامع بين المسلة الفرعونية في وسط الكونكورد صعوداً إلى فتحة قوس النصر في وسط ساحة النجمة. وللمناسبة فإن الفرنسيين نقلوا هندسة ساحة النجمة في أعلى الجادة إلى بيروت التي تحتفظ بمصغر عنها بالاسم نفسه وبشوارع متفرعة يطل عليها مجلس النواب. ومن ثقافة العين إلى ثقافة الشم حيث تجتمع في هذه المدينة أهم العطور المعروفة في العالم.

ولعل احتلال باريس مع فرنسا مركز السياحي الأول في العالم ليس اعتباطياً. فهي إلى جانب غنى طرائق الحياة فيها تحتفظ ببنية خدماتية جذابة للغاية لجهة شبكتها الطبية الموصوفة التي تعد من بين الأفضل في العالم وتكلف الدولة عجزاً مالياً يقدر سنوياً بعشرات المليارات. وتحتفظ أيضاً بشبكة مواصلات هي الأفضل في أوروبا حيث يمكن الانتقال الميسر بين القطار والترامواي والباص والتاكسي والدرجة الهوائية بسهولة فائقة.

وفي باريس تتجمع خبرات سياسية فرنسية متراكمة منذ قرون وتتوافر للحاكم وسائل اتخاذ القرار وانتهاج السياسة الخارجية التي يراها مناسبة محاطاً بأفضل عقول المدينة وكادراتها فضلاً عن شبكة واسعة من الخبراء الجديين في أربع بقاع الأرض يمنحون الدولة قوة وجاذبية لا تضاهى. وفيها أيضاً تتركز وسائل إعلام تنافس كبريات المنابر وإن كانت في تراجع مستمر منذ بعض الوقت. وفيها يستند رجال السياسة إلى شبكات من الخبرات والمعارف المتنوعة تنهض وتتراجع مع كل منهم إلى حد يبدو أحياناً أن الأحزاب الكبرى هي حصيلة انتظام شبكات ذات

رؤوس متعددة، خليط من التكنوقراط وورثة الآباء والعائلات والجهات ونكهات الريف الفرنسي المتنوع الثراء... ولعل تنظيمها الإداري الموزع على عشرين دائرة يتيح تشكل هرمية ميسرة تبدأ من الشارع إلى الحي إلى الدائرة إلى العاصمة.

وفي المدينة خبرات اقتصادية متوارثة منذ زمن بعيد توفر لساكنيها نمط معيشة مرتفعاً وفرصاً مهمة للحد من البؤس الاجتماعي المدقع. والبادي أن باريس خصوصاً وفرنسا عموماً هي الأكثر براعة في أوروبا باستيعاب الكلفة الاجتماعية للنمو الرأسمالي وبالتالي التخفيف من الآثار السلبية للثراء الفاحش في الفقراء والمعدمين.

هكذا تبدو باريس إحدى عواصم هذا العصر، سيدة وقائدة وثرية في كل مجال كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وطليطلة وإشبيلية وغرناطة ومدن العرب الأخرى في عصور خلت، وهنا اختصار للمقارنة مع مدن عربية حتى لا نتحدث عن مدن وحضارات أخرى.

Bougnoule, Sarrasin, raton [1]

ليست باريس إذن سيدة عادية بل مستتبعة (بكسر الباء) وموصوفة في جاذبيتها وسلطتها المعرفية المتراكمة. وهي كسائر العواصم المستتبعة تملي مقامك وهويتك وتصدر عليك حكماً قيمياً. جئتها في ظروف أشرت إليها تواً وكان علي أن أتكيف مع ما توحي به دون أن تطلبه وأن أتصرف وفق ما تتوقع مني وليس وفق ما أرغب دائماً رغم أنني قادر على الفكاك والمواجهة لكن إلى متى وإلى أين؟

كان عليّ أن أجيد لغتها المحكية وأن أندمج في هوامشها المتاحة وأن أحترم بدقة قوانينها وعاداتها. دخلتها يسارياً ذو تكوين ماركسي وصرت فيها قومياً عربياً على حدة، لا بعثياً ولا ناصرياً، على غرار بعثيي وناصريي بلداننا. لم أبحث عن هذا الخيار. هي حملتني إليه. لكن باريس لم تحمل

لبنانيين وعرباً آخرين على الخيار نفسه بل على خيارات أخرى من قبيل التشابه والاندماج التام مع الفرنسي وبالتالي اعتبار كل «هوية قاتلة» على ما يقول أمين معلوف، ما خلا ضمناً الهوية الفرنسية وبالتالي الاندماج فيها بلا شروط. فتكون فرنسياً «يقول ما لا يسع الفرنسيون قوله» في ثقافتهم وحضارتهم بحسب الصحافي «فرانز أوليفييه جيزبير»، معلقاً على فوز معلوف بجائزة الغونكور في العام 1993؟ أو البحث عن تحديث العالم العربي عبر «تهديم العلاقات الاجتماعية العربية التي تنتج استبداداً وإعادة بنائها على صورة الحداثة الأوروبية» أي الفرنسية كما يتطلع أدونيس. أو الانعزال التام والانتقام والتحول نحو الأصولية أو الإرهاب كما يفعل كثر في هذه الأيام في سوريا؟ هذا حتى لا نعدد حالات أخرى.

في هذه المدينة لا تملك أنت سلطة التحديد. لست سيداً. أنت حر يمكن أن تفعل ما تريد لكن في فضائها هي، في ظل قوانينها وبالقياس على ثقافتها. هي السيدة ولست أنت. تعطيك الانطباع الوهمي الجميل والمريح أنك فرد مطلق وحر كالعصافير لكن في ظل سيادتها وشروط الحرية فيها وعلاقاتها الاجتماعية وقوانينها وهي شروط لا تقهر لأنها ستظل دائماً أفضل وأهم وأقوى وأكثر جاذبية من المكان الذي جئت منه... إذن أنت فيها قادر على اختيار ما تمليه عليك أو ما تدفعك نحوه أو ما توهمك به أو ما تجذبك إليه... وهي في نهاية المطاف «تفرمتك» بالقياس على فعل «الفورمات» الحاسوبي. فلماذا خيار القومي العربي إذن وليس غيره؟

يلعب الإرث الثقافي دوراً في هذا الخيار. جئت إلى باريس من بيئة يسارية مندمجة مع الثورة الفلسطينية وتنتشر فيها ثقافة سياسية هزم فيها الماركسي اللينيني والعلماني ونجا القومي والجهادي فكان القومي أقرب إلي وكان خياري الذي أتاحته المدينة دون قمع أو مساءلة.

في باريس انت أجنبي - عربي في حالتي- إلى الأبد وإن نسيت فجلدتك تتكفل بلفت أنظار الفرنسيين إليك، وعليك أن تتصرف كأجنبي

خاضع على الدوام لاختبار سلوكي على غرار: «برافو تتحدث الفرنسية جيداً» أو «برافو أنت لبناني فينيقي ولست عربياً» أو «لست كالعرب الآخرين» أو «أنت لا تحدث ضجة في المبنى على غرار العربي الساكن في الطابق الأعلى» أو «برافو ابنتك تدرس البيانو»... هكذا عليك أن تتصرف كما ترغب المدينة.

ميتران وصدام

في حرب الخليج الأولى كانت فرنسا شريكاً للولايات المتحدة في الحملة العسكرية الدولية لإخراج قوات الرئيس الراحل صدام حسين من الكويت. اكتشفت في يوم واحد ما يتطلب اكتشافه شهوراً طويلة. ففي الصباح كنت أشتري سجائر أميركية الصنع وإذا بزبون فرنسي في المقهى يجهر عالياً وكأنه واثق أنني عربي: «العرب يشترون سجائر دولة تلقي القنابل على بلدانهم». وفي المساء كنا نستضيف سيدة فرنسية يسارية على العشاء في منزلنا فأصرت على تنبيهنا مرتين أن بلادها تخوض حرباً ضد دولة أجنبية وأنها لا تناقش أسباب الحرب بل تدعم دولتها قلباً وقالباً. في الحالتين كان واضحاً بالنسبة إلى الآخر الباريسي أنني لست لبنانياً بل عربياً وليس مهماً أن أكون مع الكويت أو مع العراق فأنا هدف للحرب في الحالتين: مرة عليّ أن أكون مع التحالف الدولي لـ«تحرير الكويت» ومرة ثانية مستهدفاً مع صدام حسين.

في باريس أنت وعرب الضواحي عرق واحد. لا فروقات دينية ولا وطنية ولا جهوية بنظر العنصريين الذين فازوا بـ25 بالمئة من أصوات الناخبين وقد يفوزون اليوم بنسب أكبر. هؤلاء والقسم الأعظم من الفرنسيين يخاطبونك بأوصاف قميئة: «بونيول» و«سارازان» وأحياناً «راتون»؛ فضلاً عن أوصاف أخرى ولكل وصف سياقه التاريخي المهين... وبالتالي عليك أن تبحث عنه وأن ترد عليه لكن الوصف يملي مرتبتك ويحدد بعضاً من هويتك.

في باريس ستكون عربياً أو لا تكون شيئاً آخر. تماماً كما في القرن التاسع عشر كان عليك أن تكون تركياً كما يلاحظ رفاعة الطهطاوي من مناداة الناس له في الشوارع. وعليك أن تتصرف بوصفك عربياً أي أن تكون قومياً وليس لبنانياً وهذا يشمل حتى أعداء العروبة الطائفيين. فقد روى لي أحد عناصر «القوات اللبنانية» التي ارتكبت مجزرة صبرا وشاتيلا أنه التحق ورفاقه بـ«الجبهة الوطنية المتطرفة» عندما جاءوا إلى فرنسا بوصفها الأكثر عداء للعرب لكن عناصر الجبهة لم يهضموا هذا الانضمام واعتبروهم أجانب يجب ألّا يبقوا في باريس وأن يطردوا منها وفق شعار «فرنسا للفرنسيين فقط».

في باريس أنت أجنبي إلى يوم الدين، عربي مستتبع منذ أن اختار محمد علي باشا في بداية القرن التاسع عشر إرسال بعثة إلى المدينة لدراسة نمط حياة الفرنسيين وتقدمهم برئاسة رفاعة رافع الطهطاوي معتقداً أن على المصري المهزوم في حملة بونابرت 1798 أن يحدد مصيره بالقياس على عدوه المنتصر أي أن يتبعه «تقنياً» و«التابع لا يدرك المتبوع أبداً في ما هو تابع له فيه وإن أدركه ما عاد تابعاً» كما يلاحظ محيي الدين ابن عربي وهو ما وقع حرفياً في بلادنا وما قد يقع في المستقبل ما دام العرب يتوهمون أن نهضتهم تتم عبر تمثلهم بالأجانب أي عبر تحديد هويتهم ومصيرهم بالقياس على من هزمهم ولذلك سيرورة لا بد من الإشارة إليها.

مولانا الطهطاوي

بعثة الطهطاوي إلى باريس أسســت لتبعية نخبة واسعة من العرب لهــذه المدينة. بدأ ذلك من مصر وانتقل إلى أماكن أخرى. وقد تم الاســتتباع بطريقة جذابة وميسرة. فكرته ولدت من حدث ضخم في رأس الملك لويس التاســع الذي قاد آخر الحملات الصليبية عام 1250 وهزم واعتقل فــي المنصورة مدة أربعين يوماً قبل أن يفرج عنه

لقاء فدية قدرت بعشـــرة ملايين فرنك فرنسي. توصل لويس التاسع خلال اعتقاله من طرف القائد المملوكي الظاهر بيبرس إلى اســـتنتاج مفاده أن الانتصار على المســـلمين لا يتم عبر المواجهة العسكرية وإنما عبر تفكيك المتحدات الاجتماعية التي يتشـــكل منها العالم الإسلامي.

كان لا بد من انتظـــار حملة نابليون بونابرت على مصر أواخر الثامن عشـــر وأوئل التاسع عشر لإحداث صدمة في وعي المصريين مفادها أن سيادة المســـلمين على العالم ما عادت مطلقة وما عادت ممكنة بدليل ســـقوط القاهرة خلال ست ساعات استغرقتها معركة الهرم. وقد أدى ســـياق الحملة إلى ترسيخ فكرة أساسية لدى المصريين مؤداها أن هزيمتهم ليســـت هزيمة عسكرية عابرة يمكن تجاوزها كما تجاوز المســـلمون هزائمهم خلال الحروب الصليبية وطردوا من بعد الصليبيين بل هزيمة حضارية.

لقد أرســـت الحملة الفرنسية مفهوم المغلوب المتخلف الذي لا يتقدم إلا بشـــرط أن يصبح على صورة الغالب وبما أنه لن يصبح أبداً وبما أن منطق الغالب لا يتســـع للمساواة مع المغلوب فإن العلاقة التي تســـتقر في هذه الحالة هي علاقة تبعية تنظم معادلة التابع والمتبوع وهذه خلاصة مكثفة لســـياق تاريخي مر به الغرب كما يمر به عرب اليوم. ويأتينا البرهان الســـاطع من الجزائر التي عاش فيها الفرنسيون 130 ســـنة وحرصوا على ألّا يكون أهلها مساوين لهم إلى حد حرمانهم من حق الاقتراع، ذلك أن المســـاواة تعني ببساطة مساواة الغالب بالمغلوب وهذه لا تتم أبداً.

بيـــد أن صدمة بونابرت وكيّه للوعي المصري لم يكن حصيلة اســـتنتاج ارتجالي بل خلاصة دراسة تاريخية أعدت حول مصر ونوقشـــت في الدوائر الفرنسية العليا وهي تركز على وجوب الفصل

بين المماليك والمصريين وبين المصريين المسيحيين والمسلمين والساحل والريف ولعل التجار الفرنسيين في القاهرة قد ساعدوا في إغناء هذه الدراسة خصوصاً أنهم كانوا من بين ممولي الحملة والأكثر حماسة لها.

والغالب أن الاستهداف الفرنسي للمماليك يتصل بالحملة الصليبيّة السابعة في منتصف القرن الثالث عشر. ورغم أنّني لا أملك وقائعَ جديّة عن صلات افتراضيّة في وعي بوناپرت بين تشنيع المماليك وبين دورهم التاريخيّ في قهر الحملة الصليبيّة المذكورة، ولا في مبادرة الظاهر بيبرس (القائد العسكريّ المملوكي) إلى اعتقالِ وأَسْرِ الملك لويس التاسع (قائدِ الحملة) في دار القاضي إبراهيم بن لقمان في المنصورة، فضلاً عن قتل أخيه والكثيرِ من جنوده وإجباره على افتداء نفسه بـ10 ملايين فرنك (عام 1249 بحسب رواية المؤرّخ المقريزي وآخرين)، فإنّي أرجِّح أن يكون الاقتصاص منهم غير مجرّدٍ من نازعٍ ثأري تاريخي عَوَّدَنا الفرنسيون ما يُشْبهه عندما تلفّظوا بعبارات الثأر أمام قبر صلاح الدين في دمشق بعيْد احتلالها في أواخر الحرب العالميّة الأولى...

هنا تجدر الإشارةُ إلى التناسب الافتراضيّ المحتمل بين الوصايا المنسوبة إلى لويس التاسع بعد هزيمته في مصر، والمنهج البوناپرتي في التعاطي مع المماليك خصوصاً والمسلمين عموماً. إذ يُنسب إلى الملك الفرنسي الأسير أنّه استخلص من تجربته الخاصة، ومن تجارب الحملات الصليبيّة الفاشلة، صعوبةَ إخضاع المسلمين عسكريّاً، والاستعاضة عن ذلك بتأويل نصوصهم وتفكيكِ العناصر التي تُسبّب اتحادهم. ويبدو أثر هذه الوصيّة في رسائل بوناپرت وفي مساعيه الحثيثة للتمييز بين العرب والأقباط والمسلمين والمماليك المندمجين مبدئيّاً في نظام الخلافة، وفي وجوب الفصل بين مصالح كلٍّ منهم.

في الحملة المصرية سيتم تطبيق تلك التعاليم وسينشر بوناپرت في مستعمرته المصرية التي أرادها منطقة ضاغطة على الإنجليز على طريق الهند الشرقية، مبدأ «المساواة» التي طرحته الثورة الفرنسية بين المصريين المسيحيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى أي إنه سيلغي علاقة التابع والمتبوع بين المصريين الأقباط والمصريين المسلمين وسيضعف الرباط الإسلامي بالحديث عن عرب ومماليك وعبر تشريف العرب وإعلاء شأنهم لكن فقط في مواجهة المماليك الذين «لم يطوب أحد لهم ملكية مصر» حسب قوله. ومنذ بوناپرت سيصبح الحديث عن المماليك الذين جعلوا القاهرة عاصمة الشرق الأوسط وقهروا الصليبيين سيصبح النظر إليهم بوصفهم جلباً محقرين استولوا على الحكم لمآرب خاصة بهم وأنهم من سلالة العبيد غير الجديرين بالذكر والاحترام وهم اليوم على هذا النحو في الثقافة التاريخية العربية .

كانت هذه ثورة ثقافية في حينه لترسيخ قاعدة التبعية المذكورة عبر كسر الهرمية داخل المجتمع الإسلامي. صار رهط واسع من الأقباط معيناً لبوناپرت ولا سيما كتائب المعلم يعقوب المحاسب المصري الذي شكل جيشاً موالياً للفرنسيين وصار جديراً بحمل السلاح مثلهم وخرج من موقعه الدوني وصارت من بعد النخبة المسيحية تطرح المساواة وتعمل على كسر علاقة التبعية داخل المجتمع الإسلامي المصري لمصلحة تبعية لغالب بعيد.. وسنلاحظ أن إبراهيم باشا حمل معه هذه الفكرة إلى بلاد الشام حيث حمل المسيحيون السلاح دفاعاً عن حملته التي حققت لهم قفزة تاريخية لا يستهان بها في ذلك العصر والذي يليه. عندما رجع بوناپرت إلى باريس بعث إلى خليفته في مصر، القائد العسكري كليبير، رسالة يطلب منه فيها اعتقال 600 مصري والمجيء بهم إلى باريس «هنا يعيشون عدة سنوات ويرجعون إلى بلادهم سفراء لنا» بحجة تعلم

الثقافة الفرنســـية وطرائق العيش أي إرساء ثقافة التبعية الطوعية تحت وهم التقدم للوصول إلى المرتبة نفســـها. أي إلى سراب يفتل الرأس.

لقد تمـــت بعثة الطهطاوي في هذا الإطار ومع أنه اعتمد منهـــج نحن وهم وقال هذا جيد عندهم وهذا جيد عندنا إلّا أن اســـتنتاجاته جاءت قاطعة إذ يعترف في معرض الندم أن بلاده لا تملك أســـباب التقدم وأن عليها أن تمتلكها بالسير على خطى الفرنسيين وهو ما أحب محمد علي باشـــا أن يفعله لكن مشروعه أخفق وانتهى إلى الفشـــل المحتوم أي إلى التبعية المستمرة حتى اليوم.

بعد الطهطاوي ســـينظر عرب كثيرون إلى «عاصمة النور» بلا أدوات اســـتدراك واشتراط وهو ما نلمسه مثلاً في شعر أحمد شـــوقي عن المدينة «العصرُ أنت جمالُه وجلالَه والركنُ من بُنْيانه المسْـــموكِ أخذت لواء الحقّ عنك شعوبُه ومشتْ حضارتهُ بنور بنيكِ». وما نراه في نصوص أخـــرى يمكن الوقوف عليها في نص الدكتور قيس جواد في مكان آخر من هذا الكتاب.

وســـيكون الحديث عن المدينة انطلاقاً من منهجها فهي مصدر التنويـــر ونحن مصدر الظلام وحتى نغادره يجب أن نكون على صورتها. فيها ضربـــت الملكية وعندنا يجب أن تضرب. فيها ضربت الكنيســـة وعندنا يجب أن تضرب وفق قاعدة «شنق آخر إقطاعي بأمعاء آخر قســـيس». وفيها الشقراء نموذج جمالي وعندنا يجب أن تصبغ السمراء شعرها بلون أشـــقر لتصبح جميلة وأن تتحدث بلكنة المتبوع ولســـانه وأن تتزيا بزيه كما يلاحظ ابن خلدون في حديثه عن اســـتتباع الغالب للمغلوب وكما يرسم فرانز فانون بحيوية مذهلة هذه العلاقة في كتابه الشـــهير «جلد أسود وقناع أبيض». وما زلنا، للأسف، ننظر إلى أنفســـنا في المرأة نفسها. فكل ما يردنا من الغرب

حضاري جدير بالثقـــة والاحترام وكل ما يرد منا متخلف ولا قيمة له. شهاداتنا وأوســـمتنا ومقاييس تفكيرنا وطرائق عيشنا كلها من الغرب الذي اخترع من بعد فكـــرة عبقرية تقول إننا نعيش في عالم مفتوح ومجتمعات متداخلة لا غالب فيها ولا مغلوب بل مســـاواة في الغنى والفقر وفي التخلف والتقدم.

لا مبالغة إطلاقاً في هذه الخلاصة على ما أحســـب. فقد اعتبرنا مع المفكر الســـوري صادق جلال العظم أن حرب حزيران عام 1967 هزيمة حضارية وليســـت عسكرية وأن على العرب حتى ينتصروا أن يكونوا على صورة عدوهم. ولو اعتمد الفرنســـيون نصيحة العظم لربما ظلوا تحت الاحتـــلال الألماني حتى اليوم وكذلك الفيتناميون والأفارقة وغيرهم من شـــعوب الأرض. علماً أن أسوأ ما يمكن لأمة أن تفعله هو أن تعرف نفســـها بالقياس على عدوها كما يقول الفرنسيون أنفســـهم ومنهم مثقفون كبار شاركوا في حرب التحرير الجزائرية وناهضوا الكولونيالية الفرنســـية وانتجوا علوماً مفيدة عن العرب والمسلمين شـــأن المستشرق المعروف مكسيم رودنسون الذي وقّع كتاباً عن سيرة رســـولنا العربي هو من بين أفضل ما نشر عنه بكل اللغات.

في أيامنا هذه صارت التبعية الثقافية مؤسســـة راسخة يتم في تضاعيفها إنتاج مفاهيـــم تنويرية مفترضة قاعدتها تهميش الروابط الجامعة كالإســـلام والقومية في سياق أفضى حتى الآن إلى تفكيك العالم العربي وحمله على الســـير في طرق مسدودة في سيرورة التقدم والتخلف. ومن الطريق المســـدود تولد عادة الحروب الأهلية وينتشر الانحطاط.

أعترف أن باريس اســـتتبعتني كما استتبعت أفواجاً واسعة من النخب العربية. كان اســـتتباعاً جذاباً وجميلاً. كنت وما زلت أقدر

عبقرية المســـتتبع وحيويته وقدرته على التبرير العقلاني وصنع الوهم والدفاع بنجاح عن المتناقضات والخروج من المأزق كـ« الشـــعرة من العجين ».

هنا، من يجرؤ على تشـــنيع نهر السين رغم جثث الجزائريين التي ألقيت فيه عام 1960؟ ومن يقاوم ســـحر عشاء فاخر في مونبارناس على مقربة من الشـــقة السكنية التي شهدت تخطيط غزو الســـويس عام 1956، أو في مطعم « ليب » في سان جرمان حيث خطف المهـــدي بن بركة أو ذلك الفندق الأنيق الذي اغتيل عاطف بسيســـو على مدخله والعالم المصري يحي المشد في إحدى غرفه؟ وكذا الأمر بالنســـبة إلى أماكن أخرى سقط فيها عز الدين القلق وعدنان حماد ومحمود الهمشري وآخرون...

هنا يســـود التسامح مع التابعين الأثرياء الذين يتجاوزن الشارات الحمراء في الشـــانزليزيه أو التجوال كالحمقى بسيارات « البورش » و« الفيراري » صعوداً وهبوطاً في اســـتعراض أبله للثروة يبعث على التقيؤ. تمامـــاً كما يمكن لثري عربي غبي أن يتباهى بالجلوس على مقعد ممهور باســـم جان بول سارتر رفقة صبية لم يقوَ المكياج على إخفـــاء ملامحها المصنوعة المقولبة بمباضع جراحي التجميل.

أعترف، أن باريس استتبعتني فأتاحت لي بعض مفاتيح شيفرتها فصرت بدلاً من إطلاق النار برصاص ديكارتي على « الشعر الجاهلي » كما فعل طه حسين أو من أجل نفي « الخلافة الإسلامية » في الحديث والسنّة على ما ذكر علي عبد الرازق، صرت أجيد منهجه في الدفاع عن الذات الحضارية العربية بوصفها كياناً مستقلاً يستحق في أقل تقدير شراكة لائقة في هذا العصر الذي لولا الحضارة العربية ما وصل إلى هذا النور الساطع.

في باريس صرت فخوراً أكثر بعروبتي وربما لهذا السبب صارت جديرة بـ «قداساً» على قول منسوب إلى «هنري الرابع» الملك الطيب كما كان يحلو لرعيته أن تلقبه في وقت من الأوقات. [2]

(1) Bougnoule: يرجح أن يكون قد ظهر التعبير للمرة الأولى في اللغة الفرنسية، أما عند المستعمرين في شمال أفريقيا تماثلاً بالوصف الذي كان بعض الأفارقة الناطقين بلغة الولف يستعملونه لوصف «العبيد» أو أنه استخدم في صفوف الجيش الفرنسي في فترة غير محددة بين عام 1857 (تاريخ تأسيس جيش السنيغاليين) وعام 1890.

Sarrasin: مصطلح استخدمه الرومان أول مرة للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني ثم أصبح يطلق فيما بعد على العرب. وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسع المصطلح ليشمل كل الذين يدينون بالإسلام.

Raton: جرذ صغير

(2) Paris vaut bien une messe
قال هنري الرابع عبارته هذه قبل تسلمه السلطة ومركزها باريس حينذاك، مناقضاً مذهبه البروتستانتي بعد أن اشترط عليه أن ينصّب على العرش في قداس كاثوليكي.

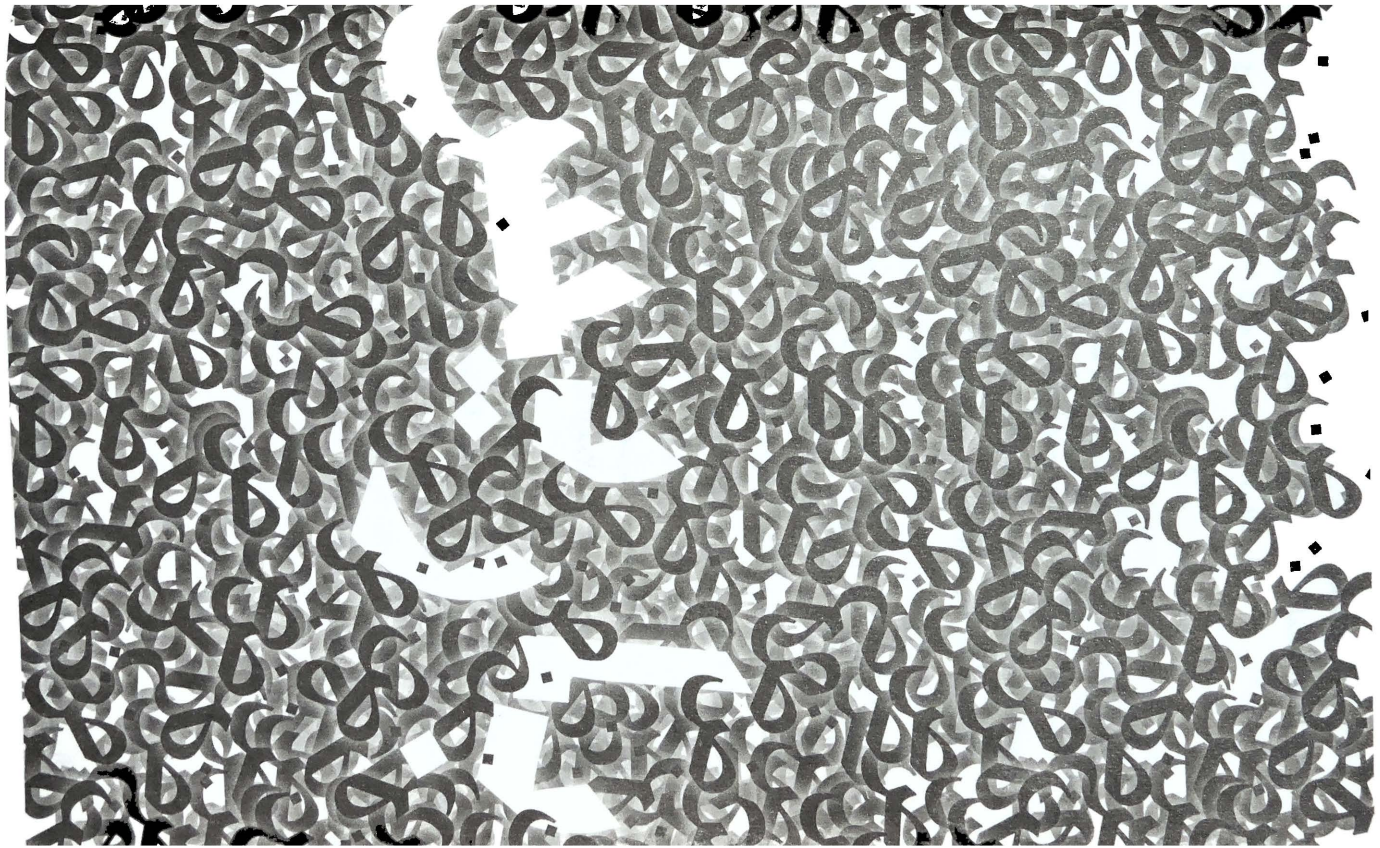

«باريس عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس! وهل غير باريس للحور والولدان والنيران، والصراط والميزان، والفجار والصالحين، والملائكة والشياطين؟»
— شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق أثناء دراسته في باريس عام 1909 —

باريس بأقلام العرب

من رفاعة الطهطاوي إلى نزار قباني

قيس خزعل جواد العزاوي

أكاديمي وكاتب وحقوقي وسفير سابق للعراق في جامعة الدول العربية. مختص في تاريخ الدولة العثمانية وحائز دكتوراه في التاريخ من جامعة السوربون رئيس تحرير عدد من الدوريات الشهرية الثقافية والفكرية والسياسية آخرها جريدة « الجريدة » في بغداد منذ العام 2003.
أسس وأشرف على الصالون الثقافي العربي في القاهرة وعمل مستشاراً لمؤسسة قطر للتربية وتنمية علوم المجتمع ومديراً وعضواً مؤسساً لمركز الدوحة لحرية الاعلام ورئيساً للجنة الدولية لحماية الصحفيين العراقيين ورئيساً للجنة الدولية للتضامن مع أساتذة الجامعات العراقية.
من مؤلفاته « رايش والتحليل النفسي » « الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط » و« من الخلافة إلى الانقلابات العسكرية » و« في الثقافة والتنوير » و« في الثقافة والحريات الإعلامية ».

شغلت باريس عبر القرون الماضية مكانة خاصة في الكتابات العالمية ,متميزة من غيرها من العواصم ,باستثناء إسطنبول التي نافستها شهرة ورقياً وحداثة في قرون المجد العثماني، حتى اعتبرت باريس إحدى أهم العواصم الثقافية ذات التأثير الفعال في الشؤون السياسة والعلوم والاقتصاد والاجتماع والترفيه والإعلام والأزياء والفنون والعطور والنبيذ والكحوليات عموماً والمأكولات بحيث أصبحت مركزاً لتجمع الفنانين من كل انحاء العالم، فأقام فيها: الرسام الإسباني بابلو بيكاسو والموسيقي الروسي إيجور سترافينسكي والكاتب الأميركي إرنست همينغوي والرسام الإسباني سلفادور دالي والإيرلندي جيمس جويس، والإيرلندي الآخر صمويل بيكيت، والأميركية جيرترود شتاين... الأمر الذي جعل البعض يطلق عليها عاصمة العالم.

أما الكتابات العربية التي نحن بصدد البحث فيها فهي لا تعد ولا تحصى لكثرتها وتعدد رؤاها وتنوعها المكاني والزماني... وهناك إجماع بين الكتاب بأن أولى الكتابات العربية التي وصفت وأعجبت بباريس كانت كتب الرحلات التي سنتناول أهمها وسنذكر أيضاً الكتب عامة، فالروايات والقصص ومن ثم الشعر العربي الذي أولى فطاحلته جل اهتمامهم وأعذب قصائدهم لباريس وسنذكر أهمها.

كتب الرحلات

أفرد العرب أدباً خاصاً من فنون الآداب أسموه أدب الرِّحلات وهو الأدب الذي يصور فيه الرحالة كل الأحداث التي رافقت الأديب أثناء رحلة إلى أحد البلدان، وقد طبع هذا النوع من الأدب في سحيق الزمان بالحكايات والروايات الخرافية أو الأسطورية، بيد أنه نزع مع الوقت نحو الواقعية والمشاهدة السوسيولوجية حتى بات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، فالرحالة يقوم بتلقي معلوماته بنحو مباشر أي من المشاهدة الحية ويقوم بتصويرها. ذلك لا يعني بأي حال أن أدب الرحلات

اقتصر على فن المشاهدة، فالأدب الخيالي والقصص الأدبية والفلسفية والملاحم الشعرية كلها من روائع هذا الأدب الخالدة، فرحلات السندباد ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وقصة ابن يقظان لابن طفيل وملحمة جلجامش وملحمة أبو زيد الهلالي كلها أعمال أدبية رفيعة تكشف لنا عن مصادر للمعرفة متنوعة وراقية.

إن هدف الرحلة في التاريخ العربي هو الحصول على المعرفة أو استكمالها أوتصحيحها واكتشاف العالم بمجتمعاته المتنوعة وعاداته ودياناته وحضاراته. وقد تطورت اهتمامات الرحالة بالمكان والزمان إلى دراسة ثقافات المجتمعات... وقد شجع العرب على الترحال وذكروا سلبيات البقاء في المكان نفسه وأحكم ما قيل في هذا الصدد أبيات شعر للإمام الشافعي يذكر فيها:

سافرْ تَجِدْ عِوَضـاً عَمَّنْ تُفَارِقُــــه وَانْصَـبْ فـإنَّ لَذِيذَ العيـشِ في النَّصَبِ
إنِّي رأيتُ وُقُـوفَ المـاءِ يُفْسِـــدهُ إنْ ســالَ طَـابَ وإنْ لم يَجْرِ لم يَطِــبِ
والشمسُ لَوْ وَقَفَتْ في الْفُلْكِ دائمةً لَمَلَّهَـا الناسُ مِنْ عَجَـمٍ ومِن عَـرَبِ

ويقول عن فوائد السفر:

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَانِ في طَلَبِ الْعُلى وَسَـافِرْ فَفِـي الأَسْـفَارِ خَمْـسُ فَوَائِـدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَـــــةٍ وَعِلْـــــــمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

وكما نرى عرف العرب أدب الرحلات وشجعوا عليه منذ القدم، فمن رحلات ابن فضلان إلى رحلات المسعودي والمقدسي والادريسي وابن بطوطة وابن حوقل وليون الأفريقي والبغدادي والبيروني... لم تتوقف الرحلات إلى جميع أنحاء المعمورة ومقاصدها التعرف إلى الشعوب ومعرفة عوامل الاختلاف والائتلاف بين عاداتهم على اختلاف أوطانهم وتباين أوضاعهم ونشر الدين الإسلامي وتنشيط التجارة...

أولاً: الرحلات العربية إلى باريس

بدأت اعتباراً من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في أدب الرحلات العربية وكانت وجهتها أوروبا وعلى نحو خاص فرنسا. انطلق الرحالة من المشرق العربي ومغربه بحثاً عن المعارف وجديد الصنائع والعلوم والفنون والتطور في التنظيم الإداري والقانوني والعسكري وكذلك المجتمعي... كل تلك المنجزات التي قادت المجتمعات الأوروبية إلى اعتلاء سلم التقدم بجدارة، فكثرت الرحلات إلى باريس عاصمة النور خصوصاً... وقد كشف لنا أدب الرحلة عن فضول عربي لمعرفة أوجه الحضارة والتحديث...

وربما تكون رحلة رفاعة رافع الطهطاوي عام 1827 من أشهر الرحلات العربية إلى باريس التي تمخض عنها مجموعة من الكتب والترجمات وكان من بينها كتابه المعروف «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي سنأتي على ذكره... ولعمق هذه الرحلة وشموليتها خط هذا النوع من الأدب مسار الرحلات التي تبعتها، وباتت نموذجاً يحتذى...

تخليص الإبريز في تلخيص باريز
أو الديوان النفيس بإيوان باريس

تأليف: رفاعة رافع الطهطاوي. طبع بمطبعة بولاق في القاهرة عام 1834.

قررت مصر عام 1827 إيفاد الشيخ الأزهري رفاعة الطهطاوي ضمن بعثتها إلى فرنسا، ليقوم بوعظ طلاب البعثة، وقد نبغ في تعلم الفرنسية، وبعد سنوات خمسٍ، أدى امتحان الترجمة، بتقديمه «تَخْلِيصُ الإِبْرِيزِفِي تَلْخِيصِ بَارِيز» وعاد إلى القاهرة عام 1832.

وتعد رحلة الطهطاوي إلى فرنسا من أهم الرحلات العربية التي كان لها الأثر العظيم في تطور الفكر النهضوي العربي. كان كتابه عنها أول مؤلفاته ومع ذلك ظل أبرزها وأكثرها شهرة، فقد استفاد من الفقه الأزهري، ومناهج البحث العلمي والإنساني الفرنسي وترجماته لكل ما ينفع لإصلاح

بلده. ولأهمية كتابه فقد أمر محمد علي الكبير الذي اطلع عليه بترجمته إلى التركية والعربية وتوزيعه على الدواوين والوجوه والأعيان، والاستفادة منه في المدارس المصرية... وفيه صور الطهطاوي كل ما يجري في باريس من علوم ومعلومات تاريخية وجغرافية وقانونية وإدارية وسياسية واجتماعية. وكان شديد الإعجاب بباريس ومع ذلك انتقد ما لم يعجبه فيها وعقد المقارنات بين أحوالها وأحوال مصر التي ينبغي إصلاحها... يُظهر الطهطاوي بكل انبهار تقديره للعلوم في باريس، متحسّراً على دياره لخلوّها منها. وهو يحثّ وينصح المسلمين على الأخذ من علوم وصنائع وفنون باريس التي سببت التَّقدّم والتَّحضّر.

رحلة الصفار إلى فرنسا 1845 - 1846

تأليف: محمد بن عبدالله الصفارالأندلسي التطواني
تحقيق وتقديم: سوزان جليزن ميللر/ أميركا – عربها وشارك في التحقيق: د. خالد بن الصغير
صدر في المغرب عام 2007

رحلة سفارية قام بها الفقيه محمد الصفار إلى باريس في كانون الأول/ ديسمبر عام 1845، مرافقاً للسفير المغربي عبد القادر أشعاش الذي بعثه سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام في مهمة دبلوماسية إلى باريس. حرص الصفار على تسجيل مشاهداته وملاحظاته أثناء الرحلة، ثم كتب تفاصيلها بمخطوطة أودعت المكتبة الحسينية بالرباط.

وينقسم المخطوط في مجموعه إلى ستة أقسام وتوطئة وخاتمة. وتتوسطه أربعة فصول أساسية هي، كما أوردت المحققة سوزان ميللر: الفصل الأول توطئة؛ الفصل الثاني: سفرنا في البر من مرسيليا إلى باريز؛ الفصل الثالث: في ذكر مدينة باريز (التياترو، الكوازيط)؛ الفصل الرابع: في عوائدهم في المأكل؛ الفصل الخامس: في ذكر مكثنا في هذه المدينة (دار كتبهم، دار الفزك، دار الإصطنبا، القمرة، مدرسة من مدارسهم)؛ الفصل السادس: خاتمة في بيان مداخيلهم (مدخول فرانسا ووجوه جبايتها)...

الرحلة التونسية إلى الديار الفرنسية عام 1846

مدون الرحلة: المؤرّخ التونسي أحمد بن أبي الضياف صاحب كتاب: « إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

وهي الرحلة التي قام بها باي تونس أحمد باشا إلى فرنسا للتعرف إلى التمدن الفرنسي لبناء دولة حديثة من خلال إعمار البلاد، وتحديث الجيش، والانفتاح على أوروبا، خصوصاً على فرنسا التي كان يرى أنها مثال للتقدم والتحضر. وقد انبهر أحمد بن أبي الضياف بباريس انبهاراً شديداً وبأسلوب المعجب الولهان يصفها: «هي الغانية الحسناء، الباسم ثغرها في وجوه القادمين، مشحونة بأعاجيب الدنيا، جامعة لأشتات المحاسن، ينطق لسان عمرانها الزاخر بقوله: «كم ترك الأول للآخر. ما شئت من علوم وصنائع، وثروة وسياسة، وظرف وحضارة، وعدل تزكو أثماره وتسطع أنواره. تموج شوارعها بالساكن في مراكز الأمن ومضاجع العافية، يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل». ويضيف أحمد بن أبي الضياف قائلاً بأنه لو أراد أن يتبع وقائع الزيارة إلى باريس لكتب في ذلك كتاباً مستقلاً في ذاته.

ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس

تحقيق وتقديم: خالد زيادة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005

تمت هذه الرحلات الثلاث في أزمان متفاوتة على مدى خمسين سنة إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر، الأولى رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسا عام 1852 وقد استغرقت 35 يوماً وهي رحلة إعجاب بسبل التقدم العسكري والأمني والعلمي ووصف للاختراعات والإشادة بالعمران والتنظيم في باريس... والرحلة الثانية هي الرحلة القادية في مدح فرنسا عام 1878 التي قام بها ولد قاد. بيد أنه يبالغ في مدح الفرنسيين، ومع ذلك انتقد سياسة فرنسا في شراء أراضي الجزائريين ودور السماسرة اليهود... الرحلة الثالثة عام 1902 قام بها الوفد الجزائري المكون من «رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريز» كتبها محمد بن الشيخ العفون القسنطيني وهي رحلة كتبت بنحو مقتضب قام بها الوفد لحضور احتفالية زيارة قيصر روسيا لفرنسا.

رحلة باريس

تأليف: فرنسيس فتح الله المرّاش. حرره وقدّم له قاسم وهب
صدر في بيروت عام 1867

يعد مؤلف كتاب رحلة باريس فرنسيس المراش من الأسماء المنحدرة من أسرة تهتم بالمعرفة والأدب، وكانت أخته مريانا مرّاش من الشاعرات المميزات في القرن التاسع عشر، أصدر عدداً من الأعمال الأدبية من شعر وقصة ورواية وأدب رحلات. وقد ابتدأت رحلته من مدينة حلب إلى مرسيليا ومن بعدها إلى باريس التي أمضى فيها عامين. يسهب المؤلف في وصف باريس، التي اعتبرها «مركز مجد العالم وأعجوبته» ومصب أنهار العجائب وموقع أنوار التمدن، يعجب بأسواق باريس وشوارعها وعربات الخيول التي تسير فيها، ويصف الأنشطة الفنية في مسارحها ومعمار كنائسها، ويحكي عن آلاف المعامل البخارية. كانت باريس بالنسبة إليه تمدناً وتقدماً وحضارة وجمالاً، تحقق ذلك كما يقول، بفضل العقول النيرة وما أنجزته من حرية وتقدم وقد سحرته باريس، ولاسيما ما فيها من حياة راقية أساسها العقل والعلم والنظام القائم على الحرية والمساواة...

تحفة الملك العزيز بمملكة باريز

للسفير إدريس بن إدريس العمراوي
تقديم وتعليق د. زكي مبارك
طبع المخطوط لأول مرة في فاس طبعة حجرية عام 1892 ثم صدر عن مؤسسة التغليف والطباعة للشمال في المملكة المغربية

أقام السفير المغربي ابن إدريس العمراوي في باريس عام 1860 فترة قصيرة لا تتجاوز الأربعين يوماً، ومع ذلك استطاع خلال هذه المدة أن يتعمق في معرفة المجتمع الفرنسي واستيعاب فكره وآدابه وأنماط معيشته ومنجزاته التقنية والحضارية والتعرف إلى العديد من جوانب الحياة فيه لينقله إلى العربية بأمانة.

يتضمن الكتاب مقدمة، ثم تقديم الإطار التاريخي للرحلة ويتحدث عن إقامته في مقام ابن إدريس في باريس، وإعجابه بالنظام

البرلماني، ويصف المدينة وما فيها من جنات النباتات والوحوش (يقصد هنا حديقة الحيوان). ثم يصف لنا دار السلاح ودار الضرب، ودار الطباعة، ودار السلع والأثاث، ودار العسكر، وسراية مدينة فرساي، ويشير إلى افتخار الفرنسيين بمكانة النساء في حياتهم وبجودة أنواع النبيذ والخمور عندهم! كما أفرد ابن إدريس العمراوي بحثاً حول التجارة في هذه المدينة، وتحدث عن مقابلته للإمبراطور نابليون الثالث ووزرائه والعسكر وكيفية تكوينه وتنظيمه.

إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار
رحلة إلى فرنسا، بلجيكا، إنجلترا وإيطاليا سنة 1876

تأليف: إدريس الجعيدي السلوي
تحرير وتقديم: عز المغرب معنينو
أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، وبيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004

الرحلة قراءة للمجتمع الأوروبي، حيث يسجل الجعيدي بدقة وعناية كل ما يفتقده مجتمعه الأصلي من سبل التقدم، لكي يصل إلى طريقة لإصلاحه، فيكثر من الشروحات للتقنيات الميكانيكية عند زياراته للفبريكات الصناعية، ويقتني بعضها مثل ماكنة صناعة الثلج التي أهداها إلى العاهل المغربي عند عودته...

غطت الرحلة الجانب السياسي والعسكري والمالي والثقافي، كما أسهبت في ذكر التقاليد الدبلوماسية. وقد وصف الجعيدي أكبر الاستعراضات العسكرية التي شهدتها باريس برئاسة المارشال ماك ماهون الذي تولى السلطة عام 1873، فقد تحدث عن إعادة تنظيم الجيش الفرنسي وركز على الجانب التنظيمي للقوات الفرنسية.

«الاستطلاعات الباريسية»
رحلة إلى معرض باريس 1889

تأليف: الشيخ محمد بن عثمان السنّوسي. طبع في تونس عام 1309 هـ

وفيه وصف للزيارة الاستكشافية التي قام بها الشيخ السنوسي لباريس في سنة 1889 والاطلاع على المعرض الدولي المقام فيها. وقد وصف السنوسي رحلته هذه ودون فيها إعجابه بالحضارة العصرية الباريسية الجديدة، وعقد مقارنات بين الحالة التي كانت عليها ديار الإسلام من تخلف وفقر وما شاهده في باريس من تقدم وازدهار، وبين أسباب ذلك، وسجل ما شاهده في فرنسا من نظم الحكم ومؤسسات التعليم والثقافة، وكان كلما تعرض لشيء مما شاهده وأعجبه، ذكّر قارئه بمثيله مما كان عند المسلمين في أوج حضارتهم، فحين وصف المكتبة العامة بباريس قارنها بمكتبة بيت الحكمة التي أسسها الخليفة المأمون. وقد قام محققاً الكتاب قروي محمد والشاذلي بويحي بدراسة نقدية لرحلة السنوسي عنوانها «حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية» ونشرت من قبل الشركة التونسية للتوزيع عام 1984.

الدنيا في باريس

تأليف: أحمد زكي

تحقيق: أحمد ابراهيم الهواري

طبع في مصر عام 1900 وقد أعيد نشره عام 2007 من قبل دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

يقدم الكاتب وهو من أعلام النهضة رحلته إلى باريس بريشة مصور واصفاً كل شيء: المأكل والملبس والشوارع والأبنية والفنون والآلات الحديثة... ويتجوَّل بقارئه في رحلةٍ يجعلُ فيها الثقافة البصرية المنظور الأصدق في تصوير ما حوله؛ فهو يَعْتمدُ على اللغة القائمة على ثقافة البصر بأسلوبٍ يتحرَّرُ فيه من المحسنات البديعية، ويستلهم نبض اللحظة الحالية في كِتَابَةِ رحلته. كما يَعْمدُ في كتابه إلى تصوير خَلَجَات النفس الإنسانية للقارئ؛ حِرْصاً منه على تحقيق فكرة حضور المتلقي، كما يحرص

على تزيين مشاهد رحلته الباريسية باستدعائه للصور الشعرية المُنْتَخَبَةِ من التراث. وقد برع في تصوير ملامح الفن الباريسي المُجَسَّدِ في الطراز المعماري والعمراني لكنائسها ومتاحفها وشوارعها.

سلوك الابريز في مسالك باريز

محمد بلخوجة. صدر في تونس عام 1900

رحلة شيخ مؤرخي تونس في القرن التاسع عشر محمد بن البشير بن محمد بن الخوجة التونسي. ولد عام 1869 وتوفي عام 1942. أسس عام 1888 جريدة «الحاضرة» وهي أول جريدة تونسية غير رسمية... قام برحلة إلى باريس عام 1898 وصدرت بكتاب باسم «سلوك الابريز في مسالك باريز»، وهو كتاب يقع ضمن كتب الرحلات المتجهة إلى أوروبا، وكانت «أوروبا» في تلك الفترة تعني لدى عموم الرحالة العرب فرنسا، وعاصمتها باريس بالتحديد...

والكتاب وصف أدبي لرحلة المؤلف إلى باريس ذاكراً معالمها ونمط الحياة فيها وأنشطتها الفنية وآثارها وسبل التقدم التقني الذي وصلت إليه.

مذكرات مسافر
رحلة شيخ الأزهر إلى أوروبا 1909 - 1914

تأليف: مصطفى عبد الرازق. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004

يقدم الناشر الكتاب الذي نتج من رحلة مذكرات مسافر على النحو التالي: «باريس عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس! وهل غير باريس للحور والولدان والنيران، والصراط والميزان، والفجار والصالحين، والملائكة والشياطين؟!»

بهذه العبارة ودع شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق باريس التي أقام فيها سنوات، ودوّن خلالها يوميات وانطباعات عن الحياة الفرنسية.

لا شك أن أفكار هذا الشيخ المتنور امتداد لأفكار زوار باريس منذ القرن التاسع عشر. لكنه استطاع بما امتاز به من نظرة منفتحة على الآخر محتفية بالاختلاف، أن يبرز كثيراً من أعلام عصره وأقرانه الأزهريين خصوصاً. فليس في يومياته هذه أي تحيز وتحزب أو مغالاة في الانتماء إلى الذات، وإنما لقاء لمختلف الجنسيات والأديان، وموقف ينم عن اعتدال يضيء مواقف المغايرين له.

في باريس تعلم الفرنسية، وحضر دروس دوركهايم في الاجتماع، ودرس الآداب وتاريخها. وفي مدينة ليون حضر دروس جوبلو في تاريخ الفلسفة، وتولى تدريس اللغة العربية في كلية ليون، واشتغل مع إدوارد لامبير في تدريس أصول الشريعة الإسلامية.

البرنس في باريز
رحلة إلى فرنسا وسويسرا عام 1913

تأليف: محمد المقداد الوريتتاني
تحقيق سعيد العاملي
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.

تعد الرحلة من أغنى واشمل الرحلات في القرن العشرين لدقتها وموضوعيتها فهي تقدم صورة كاملة عن باريس آثارها ومبانيها المعمارية وسبل تقدمها التقن. ويصف الوريتتاني معالم المدينة مثل مدرسة اللغات الشرقية والمكتبة الوطنية ومتاحفها كاللوفر والآثار القديمة مثل المسلة المصرية والفنون الجميلة والكنائس شأن نوتردام ولامادلين... ويكتب عن المعروضات الشرقية في المتاحف وبخاصة المصرية والعراقية والسورية. ويصف الحياة العامة ووسائل المواصلات مثل: المترو والترامواي والأوتوبيس والاتومبيل... ويدهش أمام المصعد الكهربائي ولا ينسى تقديم المأكولات الباريسية... إنه يغطي كل أصناف المعارف التي شاهدها في باريس.

الرحلة الأوروبية بين باريز ولندن

تأليف: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي
مخطوط بخط اليد وضع في الخزانة العامة بالرباط، صدر بتقديم سعيد العلوي، 1995

وكان الحجوي الثعالبي عند قيامه برحلته عضواً في الوفد المغربي المشارك في احتفالات العيد الوطني الفرنسي الذي تزامن مع عيد الجمهورية يوم 14 تموز/ يوليو 1919. وقد أعجب بباريس ونظامها، وسُحر بها سحراً كبيراً؛ فهي في نظره «معدن المدنية العصرية والنظامات الأوروبية»، وأهل باريس أرباب الذوق الرفيع وأهل الأناقة والكياسة، «أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء، وسعة معارفهم مع علومهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام»، ومتى كنت متجولاً فإنك تلقى «شوارع باريز وطرقها غاية في النظافة والنظام»، وقد قارن الحجوي بين باريس ولندن، فوجد أن الثانية تقل عن الأولى في كل شيء: في الشوارع والمتنزهات؛ بل وفي أخلاق الناس، ومع ذلك أشاد بالتزام الانجليز بالنظام في حياتهم اليومية كلها مثل السير في الطرقات: «ولتمام نظام البُلِيس (الشرطة) وكمال طاعة الناس له واحترامهم لأوامره، وإنما يرفع يده فيقف الصادر والوارد دفعة واحدة لا يتقدم أحد بقدم، حتَّى كأن بيده كهرباء توقف الجميع، وعلى الرغم من تكرار إعجابه بنساء باريس فهو ينتقدهن إذ يقول: «وتبرجهن تبرجاً لا يتصور فوقه إلا فساد الحيوانات» وفي المقابل يثني على تحفظ نساء الإنجليز وعدم اختلاطهن بالرجال في المرافق العامة كالقطار وغيره.

أسبوع في باريز

تأليف: محمد عبد السلام السايح وتحقيق د. سليمان القرشي
مخطوط موضوع في الخزانة الحسينية بالرباط عام 1922
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، 2004

كان هدف الرحلة تحديد القبلة لمسجد باريس الكبير بالتعاون مع فقهاء مسلمين ومهندسين فرنسيين متخصصين... وقد سجل المؤلف

في الكتاب ما أطلق عليه: مآثر وعجائب وغرائب باريس وذكر بتفصيل مهم كيف رحل من الديار المغربية راكباً البحر إلى فرنسا فوصف البحر وأمواجه وأسراره والسفينة وما عليها حتى غادرها إلى القطار الذي قدمه بعرباته العديدة وراكبيه وخط سيره إلى باريس ماراً بالمدن الخضراء بالأشجار والأزهار والكروم والحبوب والفواكه والماشية ونمط المعيشة مقارناً ما بين الفلاح الفرنسي والمغربي حتى حط به القطار أخيراً في باريس التي وصفها بـ «بهجة الدنيا ومنبت الحضارة ومهد الرقي ومنبثق العلوم، وميدان سوابق الأفكار ومجلس سوانح الأنظار»، وتحدث بتفصيل عن آثارها ومعالمها وعادات سكانها ومسارحها والممثلين والممثلات بملابسهم الزاهية...

ذكريات باريس

تأليف: زكي مبارك

الطبعة الأولى عام 1931 والطبعة الثانية القاهرة، مؤسسة دار الهلال، 2002

يقدم هذا الكتاب وصفاً مثيراً لمشاهدات المؤلف خلال فترة دراسته في جامعة السوربون بباريس على مدى خمس سنوات «1927-1931» ويصور لنا باريس باعتبارها مدينة النور تتصارع فيها قوى الهوى والعقل والهدى والضلال. والكتاب حصيلة ذكريات الكاتب الموسوعى د. زكى مبارك في تلك الفترة كتبها بأسلوب أدبي رفيع أطل به على القراء من نافذة أدب الرحلات سجل فيه خفايا باريس وأحيائها ودروبها وناسها وفنونها وآدابها وكشف الجوانب المثيرة لتلك المدينة...

لم يكتف المؤلف بذكر سبل تلقيه العلم في السوربون على نحو سردي جاف، بل جعل من تجربته تلك مادة حية تنبض بالحس الاجتماعي والإنساني العميقين فصاغها في نص أدبي ينبض بالملاحظات السوسيولوجية الذكية والجذابة في آن.

البدائع المعرضية بباريس البهية

تأليف: يعقوب صنوع (أبو نظارة)

طاف يعقوب صنوع الملقب بـأبي نظارة بين أعوام (1890-1899) في باريس ولندن وبروكسل وأمستردام ومدن سويسرا والقسطنطينية ودوّن مشاهداته في كتب بينها (الكواكب السيارة في ترجمة حال أبو نظارة)، وقد نشر يعقوب في العام 1899 كتاباً عنوانه «البدائع المعرضية، في باريس البهية»، ويذكر الكاتب الجزائري واسيني الأعرج عن الكتاب: يبدو لمن يقرؤه كتاباً يروي فيه مشاهداته لمعارض باريسية استمرت ستة أيام طاف خلالها بقلمه في المسارح، مؤكداً أنها (تياتر التشخيص ونفيها كيفيات مَنْ سلف من القرون الخالية، وما كانوا عليه من مساوئ ومنْ مناقب، وكيف كانت معاملاتهم ومخاطباتهم، حتى يُعتبر الرأي، ويُنقض المليح من القبيح، والشريفُ من الوضيع).

حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس
أو الغصون الكاسية بأزهار وصف الديار الباريسية

تأليف: عبدالله بن عبدالسلام الفاسي، فاس، المطبعة البلدية، 1919

رحلة سفارية قام بها عبد الله بن عبد السلام الفاسي، موفداً من قبل السلطان العلوي المغربي مولاي عبد الحفيظ إلى رئيس الجمهورية الفرنسية أرمان فاليير، وذلك سنة 1909، وصف بها العاصمة باريس بضخامتها وزينتها وبدائع التحديث فيها.

الرحلة البهية إلى باريس السرية

تأليف: محمد الباهي، منشورات «مرسم» و«الفنك» بالمغرب، 2010

إن الرحلة البهية إلى باريس السرية، تركيب سردي بين المرحوم محمد باهي وعبدالرحيم مؤذن. والنصوص للراحل محمد باهي وإلى جانبها التقديم التأطير النظري للكاتب عبدالرحيم مؤذن. تدخل هذه النصوص في سياق السرد الرحلي المتميز بغنى تجاربه، قيلت بشكل غنائي متشظ

في باريس وبها، وقد حاول القاص عبد الرحيم وضع إطار لتلك النصوص الباريسية؛ وهدفه تقديمها على نحو أدبي لائق بها، لذلك يقول: إن رحلة محمد باهي الباريسية هي ارتحال في أحشاء باريس السردابية، وهي رحلة مستمرة، في الزمان والمكان... ثم يصف مؤذن الكتابة عند المرحوم محمد باهي بالحفر الأركيولوجي في الذات والمكان معاً، ولعل هذا ما يفسر طراوة «المحكي» عند الكاتب، وكأنه لم يقع إلا البارحة بالرغم من انتسابه إلى أزمنة متباعدة.

اكتشاف باريس

تأليف: محمد الباهي، منشورات «مرسم» و«الفنك» بالمغرب، 2010

ما بين المدينة باريس ونهر السين يسكن كتاب الباهي، يقول لحسن العسبي إن باريس التي يأخذنا إليها باهي، ليست باريس المطاعم الفاخرة ودور النشر والعطور والنساء الفاتنات ومقابر الكلاب ولا باريس، المعالم التاريخية الكلاسيكية التي تحرص على إبرازها مطويات شركات السياحة، من برج إيفل وكنيسة نوتردام، ومتحف اللوفر، وساحة تروكاديرو، وساحة الفنانين في شاتليه ليهال، ولا دهاليز المترو ومحطات قطارات باريس الكبرى الأربع، ولا أحياء العرب والفقراء والمهاجرين، ولا باريس تظاهرات مايو 1968، والحرية الفكرية والسلوكية والموضة وشكل الهندسة القوطية الباذخة... لا، يأخذنا باهي إلى باريس أخرى، منسية لا ينتبه إليها كثيراً... يأخذنا إلى المقبرة الجماعية التي تمتد على مساحة 11 ألف متر مربع، ويصل عدد الموتى فيها إلى 7 ملايين ميت بلا قبر... مقبرة جماعية واحدة تجلب اليوم ملايين السياح سنوياً... ويأخذنا إلى مترو الأنفاق الذي شرع فيه ببدايات القرن 19 ويعبره سنويا إلى اليوم 200 مليون مسافر!... يأخذنا إلى البواخر التي تقف تحت الأرصفة، وتعبر ممراً نهرياً تحت الأرض في باريس، في سرداب كبير تحت الأرض. ذلك النهر السفلي، لا يعرفه الناس الذين يتحركون فوق قناة مائية مسقوفة تجوبها بواخر تخترق أعماق الأرض الباريسية ويأخذنا إلى «مقهى بروكوب» في قلب الحي اللاتيني

وعمره 300 سنة، والذي أنشأه الإيطالي «فرانسوا بروكوب» وأدخل لأول مرة في باريس مشروب القهوة. يأخذنا إلى المطعم الذي نشأ عام 1588 في عهد الملك هنري الثالث. وفيه تمارس كل الطقوس الفرنسية الأرستقراطية للأكل.

الأولة باريس

تأليف : شيرين عادل. القاهرة: دار نهضة مصر، 2013

تدور أحداث الكتاب في باريس على مدى 14 يوماً، وترصد فيها المؤلفة أهم عادات وتقاليد الشعب الفرنسي، والمعالم التي قامت بزيارتها، وتستعرض فيها عدة تفاصيل ترصدها بدقة، كما تحكي من واقع معايشتها وتنقلها في أنحاء باريس بين الشوارع والمواصلات والمعالم الشهيرة والمحال والبيوت الباريسية التي تتسم بالبساطة. وتقول الكاتبة إن الكتاب يعتمد في جانبه الأكبر على الصدمة الحضارية التي تلقيتها عندما ذهبت إلى فرنسا، باريس تحديداً حيث أبهرني ما رأيت من احترام الفنون والحضارة والحفاظ عليها، وكذلك مراعاة حقوق المواطنين غير أن هذا - حسب تعبيرها - لم يمنع من بعض الحيرة في مسألة منع التعبير عن الديانة في المؤسسات الحكومية، وذلك كأن ترتدي المرأة المسلمة الحجاب. لقد عبرت الكاتبة عن كل جوانب رؤيتها لباريس من جانب ثقافي، سياسي، وفني.

أيام بين شيكاغو وباريس

تأليف : محمد حامد الأحمري. الرياض : مكتبة العبيكان، 2005

رحلة قصيرة، تتجلى فيها متعة اكتشاف المكان والزمان والأفكار. يقدم الكاتب مشاهد مما وقع بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر للناس وللثقافة في شيكاغو وفي باريس من خلال معايشة فكرية وملاحظات اجتماعية وثقافية حفلت بها تلك الفترة، كما يشير إلى مواقف طريفة ونكات لاذعة، ويتحدث عن المكتبات، والكتّاب الذين يقرأ لهم الناس، وتوجهات القراءة والتأليف، ويعرض للمناقشات التي دارت عن

المسلمين ومستقبلهم في أميركا وفرنسا، ويذكر أخباراً من قصر فرساي، ومعابد الحداثة، وندوة في جامعة السوربون، وحوار مع ملحد في الطائرة، وذكريات عن السكن مع يهود متشددين، وطالبات جامعة أميركية يتحجبن. يقول الناشر عن هذا النص إنه سفر في الثقافة، غني بالمتعة والإثارة.

رأيت باريس

تأليف : أحمد فضل شبلول. دار الوفاء للدنيا للطباعة والنشر، 2006

كتاب «رأيت باريس»، عبارة عن رحلة قام بها الشاعر شبلول إلى باريس عام 2002 ثم دون تفاصيلها في صورة مقالات أدبية تسجيلية تحفظها من النسيان والضياع. وقد أضاف إليها رحلات أخرى إلى باريس من خلال الكتب التي قرأها عن العاصمة الفرنسية، قبل الذهاب إليها، وبعد عودته منها. وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام هي: القسم الأول مشاهدات، ويليه باريس في الرواية العربية، ثم باريس في المكتبة العربية والمترجمة، والأخير على شواطئ الشعر والفن التشكيلي في باريس.

رحلة صيغت بسلاسة ويُسر في ذاكرة أمكنة تضج بالحياة والثقافة (برج إيفل، قوس النصر، الشانزليزيه، ميدان كونكورد، بلدية باريس، معهد العالم العربي، متحف اللوفر، حديقة التويلري، نوتردام، مونمارتر، قصر العدل، مدينة العلوم، متحف أورسي، مقابر البنثايون، الباستيل، غابة بولونيا، قصر فرساي).

ملاحظة أخيرة: بما يبدو مفيداً التنويه بالفرق بين عمل الرحالة المشرقي ونظيره المغربي إذ يتمتع الأول بقدر من حرية العمل والوصف والتقدير، بينما تحكم الرحالة المغربي مجموعة من الالتزامات طالما هو مبعوث من السلطان أو الدولة، وبالتالي مكلف مهمة السفير... فالطهطاوي الطالب المبعوث من الدولة المصرية كان حراً في نقله للحداثة أكثر من نظرائه المغاربة، والطهطاوي كان يبحث عن سبل النهضة بينما بحث المغاربة عن سبل القوة...

ثانياً: الكتب

لا ريب أن هناك عشرات الكتب العربية عن باريس وحولها دون أن تضع في عنوانها اسم باريس وهناك غيرها لا نعرف عنه الكثير، لذلك لا تدعي هذه الورقة أنها بصدد القيام بجرد بيبليوغرافي للكتب العربية الصادرة عن المدينة، وفي الوقت نفسه ترغب في التنبيه إلى أن هناك عدداً كبيراً من الأعمال الأدبية لكبار الكتاب والأدباء والروائيين والمفكرين النهضويين العرب الذين حرروا آلاف الصفحات في ثنايا كتبهم عن باريس فكراً وفناً وحياة وعمارة وتقدماً، ولو شئنا ذكرهم لتطلب الأمر مؤلفاً ضخماً، لذلك سنقتصر على الكتب التي ورد اسم باريس في عنوانها، وهذا أضعف الإيمان.

صوت باريس

تأليف: طه حسين، القاهرة، سلسلة كتب للجميع، 1956

يذكر الناشر عن فحوى هذا الكتاب لـطه حسين أن الذائقة الأدبية الناضجة تتطلَّب في سبيل تكوُّنها واتِّضاح معالمها أن نستمع لأصواتٍ مختلفة؛ أصواتٍ من أزمنةٍ غير الزمن، وبِلُغاتٍ غير اللغة، ولأشخاصٍ من خلفيات ثقافية مغايرة؛ الأمرُ الذي يصبُّ في فتح سماوات الإدراك، وتغذية الفكر والوجدان، وتطوير الملكات النقدية. ومن هنا ينقل إلى القارئ من خلال هذا الكتاب انطباعاتِه عن ثلاث وعشرين قصة تمثيلية، تمثِّل وقائع اجتماعية ومواقف إنسانية رواها قاصُّون فرنسيون وأميركيون ومجريُّون، ويتمثَّل طه حسين في نقلها طريقةً جذابةً شائقة، فهو لا يكتفي بدورالمترجم الذي يعيد رسم الكلمات برسمٍ غير رسمها الأصلي، ولا يقف موقف الناقد الذي يلجأ إلى تحليل النص وتسليط الضوء على محاسنه ومثالبه فحسب، لكنه يضعك في جوِّ الحكاية؛ ترى وتسمع، ويزداد فضولك لمعاينتها ومعايشة أبطالها ومؤلِّفيها.

باريس في الأدب العربي الحديث

تأليف: خليل الشيخ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998

يقدم الكاتب دراسة تحليلية نقدية للنصوص العربية التي تتحدث عن باريس من خلال نصوص عربية مختارة تعود إلى أزمنة مختلفة وتعبر عن رؤى متعددة... يؤكد ناشر الكتاب أنه يقع في حقل البحوث النقدية المقارنة... وفي تقديرنا فإن سمة الدراسة هذه هي فرادتها وكذلك جديتها فضلاً عن كونها الأكثر شمولية في مجالها. ويعزو أحد النقاد ذلك إلى ثلاثة أسباب وهي: المجال الزمني الذي غطّته، الممتد من الربع الأول للقرن الثامن عشر حتى اليوم تقريباً، والتوثيق الواسع الذي قامت عليه، نثراً كان أو شعراً، والملاحظات النبيهة المقتصدة، التي أضاءت البحث من وجوه مختلفة. ويؤكد الناشر أن اختيار باريس ليس من أجل الترويج من منظور فرانكفوني، وإنما من منظور المثاقفة الحضارية بين الشرق والغرب.

المقاهي الأدبية في باريس حكايات وتاريخ

تأليف: هدى الزين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015

لا ريب أن باريس تتميز عن غيرها من العواصم الأوروبية بكثرة المقاهي حتى قيل إن ما بين مقهى ومقهى يوجد مقهى! وكما تقول المؤلفة فإن ظاهرة المقاهي شهدت انتشاراً واسعاً خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وباتت المكان المفضل لكبار الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين. فالمقهى الباريسي ليس مجرد مكان للقاء والحديث، بل هو ملتقى أدبي وفني وسياسي واجتماعي، وقد خرجت عن لقاءات ونقاشات جرت في المقاهي الباريسية تيارات أدبية وفنية وفكرية ومنها خطط روادها للتظاهرات والانتفاضات والثورات، وبهذا اشتهرت باريس كعاصمة للثقافة العالمية.

وقد برز دور المقاهي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ تحولت إلى مؤسسات ثقافية وسياسية وأرستقراطية يجتمع

فيها الأدباء والسياسيون ونبلاء المجتمع، لذلك رأى الاهتمام بتصميم المقهى وزخرفته ومقتنياته الفخمة، وتعد باريس من أشهر العواصم التي ازدهرت فيها أرقى المقاهي. وتذكر المؤلفة أشهر المقاهي الباريسية وبخاصة في الحي اللاتيني وحي الرسامين، والمقاهي المسرحية والفلسفية والسياسية.

السيد ومراته في باريس

تأليف: بيرم التونسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986

الكتاب مجموعة من المقالات التي نشرها بيرم في الصحف والمجلات المصرية عندما كان منفياً في باريس. المقالات مبنية على حوارات خيالية بين مصري وامرأته تعليقاً على ما يشاهدانه من الحياة اليومية والعامة في باريس وبعد نشرها جرى تجميعها في كتاب نشره بيرم، يتناول فيه مواقف رجل أخذ زوجته المصرية البسيطة الى فرنسا. يعرض الكاتب عن طريق «سيد» مقارنات بين مصر وأهلها وفرنسا وأهلها بأسلوب السخرية اللاذعة في بعض الأحيان. يعاب عليه أنه كان دائماً في صف الفرنسيين ضد المصريين. أغلب السلبيات التي ذكرها موجودة فعلاً في المصريين لكن ليس كلها. في الجزء الثاني يعودان إلى مصر بعد أن تشبعت زوجته بالتحضر.

حفلة ختان في باريس

تأليف: صلاح عطية، منشورات دار التحرير في تراث الجمهورية (قمم مصرية) 2010

يروي الكتاب، سيرة حياة الشاعر بيرم التونسي ومحطات حياته، من ولادته في الإسكندرية عام 1893م حتى وفاته عام -1962 بيرم الذي حمل ألقاب (شاعر الشعب)، (فنان الشعب). ويبين أن الشاعر أحمد شوقي اعتبر شعر بيرم بالعامية، خطراً على اللغة الفصحى، إذ قال: «أخاف على الفصحى من بيرم».

ويذكر المؤلف من الطريف أنه مازال يتردد السؤال: هل بيرم التونسي مصري أم تونسي؟ ويجيب بأن جده هاجر إلى مصر عام 1833م، أثناء حكم محمد علي، وولد الأب بمصر، وقد تزوج بمصرية وأنجب بيرم. أما اللقب (التونسي)، فالتصق به كعادة المصريين بتنسيب المرء إلى بلده الأساسي، وان كانت من قرى أومدن مصرية. وأما عن سبب لقب (التونسي)، فيروي المؤلف أن بيرم خلال شبابه، ولكثرة مشاغباته مع جنود الاحتلال، كان يدعي بأنه فرنسي لأنه من تونس المحمية من فرنسا... ولبيرم قصة مع باريس التي نفي إليها وكتب عنها أجمل قصائده وهي الأولى مصر والثانية تونس والثالثة باريس...

سلفي في باريس

تأليف بن سعد الحميدين، دار نشر مدارك 2014

يسرد الكاتب مواقف مر بها خلال فترة دراسته في باريس، ويسجل مذكراته اليومية الباريسية، وما تعرض له من مواقف شخصية وطرائف تظهر حالة اللقاء الأول مع حضارة مغايرة... ففي بداية تسجيله في الجامعة الفرنسية مر بأيام عصيبة وعثرات واجهها بنفاذ صبر، وكانت الغالبية تطلب منه «التسامح»... على عكس ما كان في خاطره، حيث كان متفرداً بقوله: «لا أسامح من أخطأ في حقي أبداً»... وكما يروي المؤلف فقد تدخلت طالبة إيطالية - لا يبدو عليها التدين أبداً ولا حتى المحافظة- وقالت: «ولكن الأديان السماوية تحث على التسامح... أعلم ذلك لأنني مسيحية». ثم قالت مستدركة: «أنا مسيحية على الأوراق فقط... ولكن لديّ بعض العلم عن الأديان... وأعلم أن الإسلام يدعو إلى التسامح...».

ومما قاله: إن «الإسلام يدعونا إلى الكثير من الأمور... كما ينهانا عن الكثير منها... فلو طبقنا ما يقوله الإسلام لكنا قديسين... وهذا أمر يستعصي على الفرد... فتلك التعاليم يستحيل تطبيقها على أرض الواقع...».

وحدي في باريس

تأليف: توحيد مجدي، القاهرة، دار أخبار اليوم 2013

يكشف كتاب «وحدي في باريس» للكاتب توحيد مجدي التفاصيل الرسمية لاغتيال دكتور يحيى المشد في باريس بالمستندات في شكل قصة واحدة متكاملة. ومن عناوين الكتاب نقرأ العملية «سفنكس» خطة نائب رئيس جهاز الموساد «دافيد قمحي» لاغتيال دكتور يحيى أمين أحمد المشد بتركيبة سمسرية من معامل الجهاز الإسرائيلي، كيف اغتالت «كيدون» وحدة عمليات الموساد الخاصة الدكتور المشد مساء الجمعة 13 يونيو 1980 في غرفته بفندق الميريديان ونقرأ التفاصيل الحقيقية للدقائق الأخيرة في حياة العالم المصري الجليل بشكل حصري لتقرير الطب الشرعي الفرنسي السري عن جريمة اغتيال الدكتور المشد، وكيف وثق الموساد اغتيال الدكتور المشد في فيلم فيديو مدته 9 دقائق ورئيس الموساد «إسحاق حوفي» يعيد عرضه 11 مرة في حضور رئيس الوزراء «مناحم بيغن».

نصيبي من باريس

تأليف : احمد المديني. القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، 2014

كتاب «نصيبي من باريس»، يروي فيه المديني حياته وعلاقاته في باريس، ويشير إلى أفواج الوافدين العرب إليها ويلاحظ: أن العرب يهاجمون الغرب «اللعين» ويحلمون بالسفر إليه والإقامة فيه، وأن «الجنس» هو الهاجس الأساسي لكل عربي وافد إلى باريس، وأن المقارنة بين المرأة الشرقية والغربية وسواس عربي آخر. ويقيم المديني أداء المفكرين والمثقفين العرب الذين أقاموا في باريس.

وفي القسم الآخر من الكتاب يتحدث المديني عن أصدقائه الذين عرفهم في باريس وهم أساتذة، وأدباء، وأصلاء، ومن كل الأطياف. وفي فصل آخر عنوانه «حرية واختيار»، يسرد رحلته الشخصية إلى العاصمة الفرنسية، وفي الحي اللاتيني بوجه خاص، وفي فصل «من الملكوت إلى الهلكوت»، يقول: «حينما غادرت المغرب بلدي حملت معي حسرات،

ونويت أيضاً أن أخمد جمر أكثر من لوعة، لتشتعل في حياتي جمرات أقوى لهباً وأصفى اتقاداً».

باريس لا تشعرنا بالعجز فكل يوم جديد، هذا تصوّر كل مهاجر إلى باريس أو قادم إليها. ونختتم بهذه السطور التي كتبها المديني: دائماً ما نحصل من الحياة على قدر بسيط، هو نصيبنا الذي نقنع به قهراً، ولكن حين نحوله إلى حياة كاملة بثقافة باريسية وعقل عربي، فذلك ما سطرته هذه الأوراق، لتجمع من كلماتها حياة المؤلف، ونحسب نصيبه من باريس، من الحياة.

باريس الشرقية

تأليف: نسرين معترف، باريس، دار « باريغرام »، 2013

لا يعدّ كتاب «باريس الشرقية» الصادر باللغة الفرنسية للمغربية نسرين معترف دليلاً ثقافياً وفنياً تقليدياً للتراث العربي والشرقي في عاصمة الأنوار فحسب، بل يمثّل إطلاله شاملة على الثقافة والفنون والتقاليد والجماليات والطقوس الاحتفالية العربية بكل ضروبها بالعاصمة الفرنسية، الأمر الذي يبرر حقاً تسميتها باريس الشرقية.

نجحت نسرين معترف بتفادي إغراء الوقوع في شرك تحويل كتابها إلى دليل سياحي أو دعاية سطحية للعاصمة الفرنسية، وصاغت نصاً ثرياً بأسلوب يتوافق مع مستويات العامة والنخبة على السواء. وحتى تستطيع الكاتبة استمالة القارئ العادي والمثقف، مهدت للفصول الخمسة بمقدمة مستفيضة عن التاريخ المجهول للجالية العربية المهاجرة في العاصمة الفرنسية، و«لأجواء دمشق والجزائر وبيروت ومراكش المنزوية في أزقة وشوارع مازالت شاهدة على روح الشرق المتجذرة في باريس طه وسوزان حسين»، كما تقول. واعتبرت أن الشرق الذي سكن باريس هو نتاج تراكم تاريخي لموجات عدة أجيال من المهاجرين وفدوا من الجزائر في بداية القرن العشرين ومن المغرب وتونس ولاحقاً من لبنان وسوريا ومصر.

ثالثا: الروايات

عرف العرب فن الرواية في العصر العباسي وظهرت حينها العديد من الروايات مثل: ألف ليلة وليلة والبخلاء للجاحظ وكليلة ودمنة لابن المقفع... تطور هذا الفن عن طريق الاتصال مع الثقافة الأوروبية، وظهر نوعان من الرواية: الخيالية التي يختلقها الكاتب لإيصال فكرة يؤمن بها والرواية الواقعية غير الخيالية وهي غالباً ما تعتمد على المشاهدة الميدانية أو على الأحداث التاريخية، حتى أصبح فن الرواية من الفنون الأدبية الرفيعة وأداة معرفية تنقل الرسائل والتوجيهات وتخاطب العقل والعاطفة... وقد وضع الكتاب العرب عشرات الروايات عن باريس وحولها ومنها:

الحي اللاتيني

سهيل إدريس. بيروت : دار الآداب، 1995

يقسم الناقد رواية الحي اللاتيني إلى تمهيد يتضمن وصول الكاتب وأصدقائه إلى الحي الباريسي، والقسم الأول يعبر عن إخفاق بطل الحي اللاتيني في باريس وجدانياً وعاطفياً وتعرفه إلى جانين مونترو، والقسم الثاني يتحدث عن العلاقة التي كانت تجمع بين البطل وجانين مونترو وعودته إلى بيروت لزيارة أهله، والقسم الثالث تطور العلاقة الموجودة بين جانين والبطل بسبب الاختلاف الحضاري بين الشرق والغرب وقرار جنين التخلص من جنينها الذي تركته مع البطل وخاتمة عودة البطل إلى بلده بعد حصوله على الشهادة العليا وقراره أن يبدأ حياة نضالية جديدة...

وعند عودته تبدأ عملية الصراع بين الماضي والحاضر، بين التصوّرات المسبّقة التي صاغها عن باريس وبين الواقع الذي يتلمّس تفاصيله. وهو يدرك منذ البداية أنّ «أغلالاً ثقيلة» تربطه بذلك الماضي، وأنّ على المحن أن تصهره لكي يتحرّر منه. وكان من الطبيعي أن يتعرّف

أولاً على من سبقوه من العرب إلى مدينة النور، وأن يتعرّف ثانياً على فكر سارتر الوجودي ونظرياته في المسؤولية والحرية.

دموع باريس

تأليف: حسين مؤنس، القاهرة: دار الرشاد للنشر والتوزيع والدار المصرية اللبنانية، 2008

مع شهرة الدكتور حسين مؤنس الكاتب المؤرخ الروائي ودوره في استنهاض الفكر التاريخي العربي وكثرة مؤلفاته وأهميتها، فلم نعثر على أي ذكر عن روايته «دموع باريس» التي طبعت على ما يبدو أقله مرتين الأولى في دار الرشاد والثانية في الدار المصرية اللبنانية. كل ما عثرنا عليه صورة لغلاف الكتاب وعليه عبارة «رواية للشباب» وعند اطلاعنا على سيرة مؤنس العلمية وقائمة مؤلفاته لم تتضمن القائمة رواية «دموع باريس» مع أنها أعيد طبعها عام 2008.

التجربة الأولى: جائعة في باريس

تأليف: إحسان عبد القدوس، القاهرة، دار الكتب الحديثة

يصف إحسان عبد القدوس باريس كالمرأة، عندما تزورها للمرة الأولى تهتم بجمالها «عندما تزورها للمرة الثانية تهتم بعقلها وثقافتها، وعندما تزورها للمرة الثالثة تملّها»، ويستطرد لكن لا أظنه من الغريب على رجلٍ شرقيٍ ناضجٍ يمتلك من الفكر والثقافة ما يحرره من بريق النظرة الأولى أو الهذيان وراء جمال امرأة تمتلك الشعر الأصفر، والعيون الزرقاء... لأنه استطاع أن يحرر ذاته من تأثير الانطباع الأول... فثمة أمور لا ينفك الانطباع الأول فيها أن يتقمصكَ فتتوحد معه... فيما لا رجعة فيه...؟

في هذه الرواية يتحدث إحســـان عبد القدوس على لسان بطلٍ شـــرقيٍ لقصة يقف هو أمامها بصمت ليتأملها، يتحدث ويحاكي نفسه...يناجي اشـــتياقه الذي لم يتطرق إليه... إلى تلك المرأة الســـمراء العربية التي لربما لا تمتلك تلك المواصفات التي تجعلك

- كرجـــل - أن تنصب وراءها من الوهلة الأولى «أو من التجربة الأولى» لكنها... مازالت هي وحدها... مَن ترضي غرور رجل شـــرقي بما يحمله مـــن انتصارات التاريخ بأناقة - كربطة عنقه - ... ففي ابتسامتها تبتســـم الحضارة العريقة... الساطعة كالشمس، فهي ليس لديها ما تخفيه، من ضبابية... ربما لا تخلو بشـــرتها من بعض العيوب والتجاعيد، لكنها بالتأكيد ليســـت كتلك الداخلية التي تلتف كنسيج عنكبوت داخل امرأة غربية... هذه هي المرأة الشـــرقية... وهكذا ستبقى...!؟

باريس

تأليف: أفنان القاسم، عمان، دار النسر، 1994

«عصفور من الشـــرق» لتوفيق الحكيم، «الحي اللاتيني» ليوســـف إدريس، «باريس» لأفنان القاسم، ثلاث روايات عن مدينة النور، وثلاث وجهات نظر عن العلاقة شـــرق-غرب، أضف إلى ذلك أن «باريس» أول رواية عربية تكتب على طريقة الخيال العلمي وتنشـــر بالفرنســـية ومن ثم بالعربية. هذه الرواية التي ليست كغيرها من الروايات تجعلنا نغوص في عالـــم متخيل على طريقة ألف ليلة وليلة والرواية البوليسية والخيال العلمي...

وضـــع أفنان قرابة 60 كتابا، يقول عن روايته باريس: إنها تعرض لكفـــاح فنان يجاهد من أجل الوصول إلى العالمية، وقد ترســـخت لديه قناعة بعدم إمكانية العيش من دون فن... ويقول أفنان عـــن إقامته في باريس: إن الغرب منحني الحرية والإبداع، فالمناخ هناك يســـاعد على ذلك، لوجود المتاحف والمعارض، مع أنني اكتشـــفت أن طلب أعمالي يأتي من الشرق لأن التشكيليين الفرنسيين أنفسهم يعانون من ركود بضاعتهم...

يوميات باريس

تأليف: شاكر نوري، أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013

سجل الروائي العراقي شاكر نوري في كتابه وعنوانه «بطاقة إقامة في برج بابل... يوميات باريس» أحداث ثلاثين عاماً قضاها في العاصمة باريس، وكغيره مثل آلاف الطلبة العرب الذين درسوا وتخرجوا في الجامعات الباريسية، عاش الكاتب في الأحياء الباريسية وتسلح بالفكر والفن والعلم الفرنسي وتعرف إلى أسرار باريس وخفاياها، هذه المدينة التي شغلت الوافدين إليها من كل الأرجاء. تضمنت يومياته كل نشاطاته الجامعية وعلاقاته بالأوساط العلمية والفكرية والفنية وكتاباته عنها. لقد عايش نوري حياة المدينة وأجواءها الثقافية وكتب عن حياة أدبائها وفنانيها ومؤلفاتهم وخفايا توجهاتهم ومغامراتهم الشخصية وعلاقاتهم بالكاتب.

عراقي في باريس

تأليف: صموئيل شمعون. الدار العربية للعلوم ناشرون ودار الشروق، 2005

على الرغم من أن الكاتب يصنف كتابه كسيرة ذاتية فإن عدداً من النقاد يعتبرونه رواية كُتبت باسلوب راق من الفكاهة والدعابة. التي تتجسَّد في صور متعددة: إجابات تتسم بسرعة البديهة، مواقف ساخرة وتعليقات ذكية. ينقسم الكتاب إلى روايتين لا ينتظمهما ترتيبٌ زمني. القسم الأول «عراقي في باريس»، يصدّره المؤلف بقوله: «وحدها ورقة الخريف التي تسقط نائمةً تحت قطرة المطر تفهم ظمئي»، يتكون من سبعة عشر فصلاً تحكي عن رحلته الأديسيوسية من بغداد إلى أميركا حاملاً معه دفتراً وقلماً وآلةَ كاتبة. بلاد السينما هوليوود، حلمه السرمدي، تلك الوجهة التي لن يبلغها أبداً ربما لتتحقق. نبوءةٌ أخرى ظهرتْ في أول قصة قصيرة خطّها قلمه وهو بعد صبيٌّ لم يزل حول رجل يحكي طوال الوقت عن رغبته في العمل بالسينما، وذات يوم فيما كان يجلس في مدرّج مسرحٍ روماني في عمّان اكتشف أنه بلغ الخمسين من عمره دون البدء بأي

عمل سينمائي. مصدوماً بتلك الحقيقة تباغته نوبةٌ قلبية ويموت. رحلته التي بدأها في الثالثة والعشرين من عمره صوب أميركا، نرصدها منذ أحد الصباحات المبكرة من عام 1979، حين استيقظ ليودّع أمّه وأباه وأشقاءه قائلاً: إنه قرر اللحظةَ السفر إلى هوليوود لتحقيق حلمه القديم وسط دهشتهم وسخريتهم.

فتنة باريس

تأليف: إبراهيم مشارة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 2009

يبدأ المؤلف كتابه بالقول: لست أدري ماذا أقول عن باريس وماذا يمكن أن يضيف قولي إلى هذه المدينة العظيمة وقد كتب عنها رواد الفكر والرحلة العرب آلاف المقالات ومئات الكتب منذ كتاب الطهطاوي المثير «تخليص الإبريز من تاريخ باريز» ووصولاً إلى أديب طه حسين وأيامه وعصفور من الشرق للحكيم والدنيا في باريس لتيمور ورحلة الشرق والغرب للويس عوض والإنسان الأوروبي في الجد واللعب لعبد الستار طويلة وكتابات غادة السمان وإحسان عبد القدوس وأنيس منصور وغيرها من الكتب القيمة.

فباريس من أكثر المدن التي استأثرت بقلوب المفكرين العرب وعقولهم فهي مدينة الحرية والحب والاندفاع والفن والفكر. إنها المدينة التي تجمع العالم بين شوارعها وفي متاحفها ودور الفن والثقافة والأزياء فيها. ويضيف الكاتب، هي مدينة يشعر العالم أجمع أن له قطعة فيها من الفكر والانتماء، وفي أميركا يقال زر باريس ومت، ويشبهون بوسطن بباريس والكنديون يشبهون مونتريال بباريس والحياة فيها ولو لسنة مطلب الأدباء وقد فعل ذلك صموئيل بيكت الإيرلندي وعزرا باوند وإرنست هيمنغواي وغيرهم.

بين طرقات باريس:

تأليف: فاطمة الحمادي، الإمارات العربية المتحدة، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، 2009

رواية بين طرقات باريسية لفاطمة الحمادي هو الإصدار الأول لها وكانت قد نشرت مجموعة من القصص في العديد من الصحف والدوريات. ويقع الإصدار في ثمانين صفحة تتضمن 12 فصلاً تحمل العناوين: «شتاء فرنسا» و« ضوء باتجاه رمال الصحراء العربية» و«العشاء الأخير» و«شمس جديدة تشرق على بناية العجوز» و«من أرض الطاهرين أتت لتقيم في عاصمة بلاد الغال» و«وأخيراً يا لويس» و«النية» و«الطريق إلى رأس الخيمة» و«سلام من صبا باريس» و«لا تقل إني فاعل ذلك غدا» و«لم أعد مالكاً لك» و«من بين الأهداب تأتي دموع الفرح والحزن».

دموع باريس

تأليف: حسين مؤنس، القاهرة، دار الرشاد للنشر والتوزيع 2008

رواية للشباب، جاء في هذا الكتيب يا احب الناس إلي... ما ذنبك أنت حتى أبدل حياتك كلها بهذه القسوة؟ إنك رجل علم وبحث وكتابة، فكيف أرغمك على شيئ لا تريده... إنني أعرف أنك تحب بلدك وتريد أن تخدمها، ولا أريد أن أحرمك من هذه السعادة.

أطول ليلة في باريس

تأليف: محمود غسان، منتديات الوليد، 2011

قصة رومنسية عن عارضة أزياء تدعى جيسكا تسافر من سان فرانسيسكو بأميركا إلى باريس وتتعرف إلى سائق سيارة صيني يدعى تشانج لي يصطحبها بجولة سياحية في أنحاء باريس وتدور بينهما أحاديث متنوعة تنتهي بإعجاب متبادل...

لؤلؤة في باريس.

تأليف: فارس الروضان، دار « مدارك للنشر » بدبي، 2015

رواية جديدة للكاتب السعودي فارس الروضان، تمثل الإصدار الروائي الأول له بعد كتابين أصدرهما سابقاً، وقد كانت مفاجأة للمتابعين أن تنتهي الطبعة الأولى للرواية قبل الوصول إلى المكتبات السعودية، حيث كان معرض الرياض للكتاب. الرواية جاءت محملة بالأحداث الشيقة وغنية بالشعر والتضمين من كلمات الروائي الذي يعد أحد الشعراء السعوديين البارزين الذين غنى لهم عدد من كبار المطربين. وقد جاءت الرواية سخية متصلة بلغة شفافة امتلك الروائي ناصيتها بروح من الشعر والجمال الرفيع، مشبعة بالشوق ولحظات الألق والدراما، كما جاءت محملة في مقاطع مميزة منها بالسخرية، يعيش معها قارئها لحظات العشق والحب والشوق والحزن.

أباهوس في باريس

تأليف: عزيز بن حدوش

تعرّض المؤلف وهو أستاذ مادة الفلسفة على أثر نشر روايته لاعتداء «كاد يفارق على أثره الحياة»، بسبب اعتقاد أحدهم أن أحداثها وشخصياتها تتحدث عنه. و«الرواية كما يقول مؤلفها تتحدث عن جزيرة الذكور وتقوم بنقد ديني وجنسي للمجتمعات المغربية المحافظة عامة وبمنطقة ورزازات التي ينحدر منها على وجه الخصوص، ويضيف: أظن أن إحدى الشخصيات التي أسميتها في الرواية بـ«أباهوس» والتي تعني باللغة الأمازيغية «الجبان»، هي النقطة التي أفاضت الكأس حيث اعتقد الشخص أنه المقصود في القصة».

طفل سعودي في باريس

تأليف: الروائي السعودي يحي خان، منشورات دار الكفاح

تتناول الرواية الأحداث التي عاشها طفلان جميلان أحدهما يُدعى ياسر وأحمد شقيقه المشاكس الصغير وتحديداً عن رحلة عائلتهما إلى باريس. المواقف المحرجة، البراءة والضحك الممزوج بالعفوية، البكاء المتواصل في محطات متعددة يُعطي القارئ نهماً في استكمال فصولها التي اقتسمها المؤلف مع ابنه في نقلات جميلة ليسرد كل منهما القصة كما يراها هو. معالم باريس تتضح تجلياً بشوارعها ومتاجرها وألعابها وبأبرز معلم فيها وهو برج إيفل مروراً بشارع الشانزليزيه أشهر الشوارع في العالم وألعاب ديزني.

عشاق الصمت في باريس

رواية لمؤلفة مجهولة تقول بأنها من السعودية من أم لبنانية نشرتها على العديد من المواقع الإلكترونية، وهي روايتها الأولى وتتكون من خمسة فصول. تجري أحداثها في مستشفى باريسي وفي شوارع باريس... تقول المؤلفة إن روايتها تبدأ وتنتهي في شوارع باريس كمثال للحب العذري الذي نسمع عنه وقد لا نشاهده، وتضيف لقد سمحت لعقلي بالخيال ولقلمي بتصوير ما تخيلته.

ثالثاً: باريس في الشعر العربي

الشعر ديوان العرب وسجل تاريخهم لذلك كان له وما زال في نفوسهم أبلغ تأثير. ولأهميته وفعاليته في حياتهم كان أسلافنا العرب يقولون: ارووا لأولادكم الشعر، فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل ويحض على الخلق الجميل. لقد صورت الأعمال الأدبية والشعرية العربية باريس بالأنثى المغرية الجذابة لذلك تغزل بها الشعراء...

رفاعة الطهطاوي

ربما تكون الأبيات الشعرية الأولى التي عرفت إلى يومنا هذا في مدح باريس والإعجاب بها قد نظمت من قبل الشيخ الأزهري عمدة الرحالة العرب إلى باريس رفاعة الطهطاوي، فبعد أن أفاض في وصف باريس قال:

لقد ذكروا شموس الحسـن طرّا   وقالـوا إن مطلعهـا بمصـر

ولكـن لو رأوهـا وهي تـبدو   بباريـس لخصوهـا بذكـر

محمد مهدي الجواهري

ولشاعر العرب الأكبر قصيدة طويلة عنوانها باريس نورد مقطعاً منها:

تعاليتِ «باريسُ»... أمّ َالنضالْ

وأمَ الجمال... وأمّ َالنغم

تَذوَّبَ فوقَ الشِفاهِ الألَم

وسال الفؤادُ... عليك لِفم

تَضيعُ الحرارةُ بينَ الوصالْ

وبين التّنائي وبين الملال

كأنّكِ شمسُك بينَ الجبال

تغازلُ حين... تلوحُ القِمَمْ

وتبدو الغيومُ لها... من أمَم

ثم يقول...

تعاليتِ «باريسُ» إنَّ الصباحْ

أطلَّ فألقى عليكِ الوِشاح

وضمَّكِ تحتَ خَضيبِ الجَناح

وألفاكِ غافيةً فاستراح

على صدركِ العَطِرِ النّاعِمِ

وأنفاسِ بُرْعُمِكِ الحالم

أحمد شوقي

قضى شوقي في فرنسا أربع سنوات لدراسة الحقوق أمضى عامين منها في مدينة مونبلييه وآخرين في باريس. ولكنه لم يكتب سوى ثلاث قصائد ومقطوعة من أربعة أبيات، دون أي إهتمام بمونبيليه. في قصيدته «باريس» التي يطلق عليها جمال العصر وجلاله. يزورها بعد أن فرّقت بينهما الأيام، وتعرضت للغزو في أتون الحرب العالمية الأولى، فكتب:

جهد الصبابـــة ما أكابـــدُ مـــنكِ ... لـــو كان مـــا ذقتُـــهُ يكفيـــكِ

حتّـــام هجراني وفيـــم تجنّبـــي ... وإلام بـــي ذلُّ الهـــوى يُغريـــكِ

قد متُ من ظمأٍ فلو سامحتنــــي ... أن أشـــتهي مـــاء الحيـــاة بفيـــكِ

ضلّت كراها في غياهـــب حـــالكٍ ... ضلّ الصبـــاحَ عليه صـــوتُ الديكِ

رقّ النسيم على دجـــاه لأنتـــي ... ورثـــا لحالي فـــي الســـماءِ أخوكِ

قاسيْتُه حتى انجلى بالصبـــح عن سـرّي المصونِ ومدمعي المهتوكِ
سُـلّت سـيوفُ الحيّ إلا واحداً إفرنـدهُ فـي جفْنِـهِ يحميـكِ
جرّدْتـــه في غـير حـقٍّ كالأُلى سـلّوا سـيوفهم علـى أهليـكِ
طلعت على حرم الممالك خـيلُهم نـاراً سـنابكُها علـى «البلجيكِ»

ثم يقول...

زعموكِ دار خلاعـــةٍ ومجانـــةٍ ودعـارةٍ يـا إفْـك مـا زعمـوكِ
إن كنتِ للشهوات ريّـــاً فالــعلا شـهواتهنّ مُروّيـاتٌ فيـكِ
تـلدين أعـلام البيـان كأنـهم أصحـاب تيجـانٍ ملـوكُ أريـكِ
فاضت على الأجيال حكمةُ شعرهـم وتفجّـرت كالكوثـر المعـروكِ
والعلم في شـرق البلاد وغرْبـها مـا حـجّ طالبـهُ سـوى ناديـكِ
العصـرُ أنت جمالُـه وجلالَـه والركـنُ مـن بُنْيانـه المسْـموكِ
أخذت لواء الحقّ عنـك شعوبـُه ومشـتْ حضارتـهُ بنـور بنيـكِ
إنْ لم يقوكِ بكـلِّ نفـسٍ حرةٍ فاللّـه جـلَّ جلالُـهُ واقيـكِ

وأمام قبر نابليون ينشد شوقي مستعرضًا انتصاراته وهزائمه قائلاً:

يا كـثير الصّيْـدِ للصَّيـدِ العُـلا قـم تأمل كيـف صادتـك المنونْ
قـمْ تَـرَ الدنيـا كما غادرْتـها منـزل الغـدر ومـاء الخادعيـنْ
وتـَر الحـقّ عزيزاً في القنـا هيّنـا في العُـزّل المسـتضعفينْ
وتـرَ الأمـر يداً فـوق يـدٍ وتَـر النـاس ذئابـاً وضيئـنْ
وتـرَ العـزّ لسيـفٍ نـزقٍ فـي بنـاء المُلْـكِ أو رأي رزيـنْ
سُـنَنٌ كانت، ونـظمٌ لم تـزلْ وفسـادٌ فـوق بـاع المضحكينْ!

وأمام ساحة الكونكورد (الوفاق) حيث أعدم الملك لويس السادس عشر قال:

أميدانَ الوفـاقِ وكنـت تُدْعـى بميـدانِ العـداوةِ والشـقاقِ

أتـــدري أيَّ ذنـــبٍ أنـــت جـــانٍ وأيّ دمٍ ذهبـــت بـــه مُـــراقِ
هـوى فيـــك السريـــرُ ومن عليـــه ومـــات الثائـــرون وأنـــت بـــاقِ
أصابـــوا واســـتراح «لويـــسُ» منهم لذا، سُـــمّيتَ ميـــدان الوفاق

بدوي الجبل

خاطب الشاعر بدوي الجبل فرنسا حين كانت تستعمر سورية قائلاً:

سمعت باريـس تشكـو زهو فاتحهـا هـلاّ تذكّرت يـا باريس شـكوانا
والخيل في المسجد المحزون جائلـة علـى المصلّيـن أشـياخاً وفتيانا
والآمنيـــن أفاقـوا والقصور لظـى تهـوي بهـا النّـار بنيانـاً فبنيانا
رمى بهـا الظالم الطاغي مجلجلـة كالعـارض الجـون تهـداراً وتهتانا
أفدي المخدّرة الحـسناء روّعـها من الكـرى قـدر يشـتدّ عجلانا
تدور في القصر عجلى وهي باكيـة وتسـحب الطيـب أذيـالا وأردانا
تجيـل والنوم ظـلّ في محاجرهـا طرفات هدهـدة الأحلام وسـنانا
الله أكبـر هذا الكـون أجمعـه للهـلال كتدبيـر أو سـلطانا
ضـغينة تتنزّى فـي جوانحنـا مـا كان أغناكـم عنهـا وأغنانـا

الشاعر اليمني عبد الله البردوني

أشار إلى باريس في قصيدته الحبل العقيم التي كتبها عام 1977:

من يذبُ الـنقود يـا أم عنـا؟ أصبحـت فوقنـا الـرؤوس عجينا
أمُّ، هذا الذباب يدعـى نـقوداً فلتذبـي هـذا الوبـاء الثمينـا
أنت في عريـك الحقيقـي أبهـى مـن حلـى تمتطيك جوعـاً بطينا
لن تكوني (باريـس) من دون (روسو) لـن تكوني بـلا (أرسـطو) (أثينا)

كتب قصيدته «معها في باريس» ومنها هذه الفقرة:

هل تذكرينَ بباريسَ تسكُّعَنَا؟

خُطَاكِ في ساحة (الفاندوم) أُغنيةٌ

وكُحْلُ عينيكِ في (المادلين) ينتثرُ...

ما زال في رُكْنِنَا الشعريِّ، ينتظرُ

كلُّ التماثيل في باريسَ تعرفُنا

حتّى النوافيرُ في (الكونكُورد) تذكُرُنا

ما كنتُ أعرفُ أن الماءَ يَفْتكِرُ...

نبيذُ بُوردو... الذي أحسُوهُ يصرعُني

ودفءُ صوتِكِ... لا يُبْقي ولا يَذَرُ

ما دامَ حُبُّكِ يُعْطيني عباءتَهُ

فكيفَ لا أفتحُ الدنيا... وأنتصِرُ؟

والعاشقُ الفذُّ... يحيا حين ينتحِرُ...

تمشينَ أنتِ... فيمشي خلْفكِ الشجرُ

صَديقَةَ المطعم الصِينيِّ... مقعدُنا

ما زال في رُكْنِنَا الشعريِّ، ينتظرُ

كلُّ التماثيل في باريسَ تعرفُنا

حتّى النوافيرُ في (الكونكرد) تذكُرُنا

ما كنتُ أعرفُ أن الماءَ يَفْتكِرُ...

الشيخ محمد باقر الشبيبي

لئن قطنت أهلي العراق فإن لي

بباريس أصحاباً أعز من الأهل

الشاعر عبد الوهاب البياتي

نظم قصيدة عن باريس عنوانها: فيتمين

وكرنة العصفور، صوتك لايزال

في ليل، باريس: يناديني! تعال

في ليل باريس تعال

حيث البغايا الشقر والعتمات والمتسولون

وضريح ميرابو وروبيسبير والفكر المها

تحت النعال، وصوتها، في ليل باريس تعال!

والثلج والعتمات والمتسولون

وسعال طفلتنا المريضة، والبواخر، والزمان

وصليب ثورتنا القديم:

حرية. عدالة مساواة، يلوث في دماء الأبرياء

إخوتنا الشرفاء في الإبداع، والغد، والمصير

وطلائع الثوار تقتحم الحصون

وأنا وأضواء الحرائق والجنود

وراء خط النار، جرحى، يائسون

سوزان طفلتنا تموت

في ليل باريس، وأضواء الحرائق والجنود

والثائرون

بحرابهم، أبداً، برشاشاتهم، يتقدمون

وحنينهم، نحو اللظى، يتقدمون

المارد الجبار في أعماق آسيا يستفيق

من حلمة القلق المميت

وعلى مياه الأنهر السوداء تطفو، والتلول

جثث الخيول

وطلائع الثوار تعدم برصاص الخائنين:

وحق أسماء الكلاب

لا مجد تحت الشمس

إلا مجد أبناء الحياة

والخبز والحرية الحمراء والغد والمصير

باريس يا بلد الظلام

العاهر الملعون هتلر لا يزال

بحذائه القذر الثقيل

لا مجد إلا مجد أبناء الحياة

غادة السمان

كتبت قصيدة عنوانها بطاقة من باريس:

الهرب مع حبك، الهرب هو البطولة الوحيدة الممكنة!

فحبك كالطُرق القروية في العالم الثالث

نصفها مسدود،

والنصف الآخر يقود إلى هاوية...

وكتبت في قصيدة أخرى تقول:

«قالوا: أيُّ حُلمٍ كان فِي باريس؟

قلت: وأنا بِقمةِ إيفل.

قالوا: ماهو؟

قلت: وددت لو أن - الجميع – كانوا معي!

قالوا: يُشارِكوك روعة الحُلم؟

قلت: بل لأرميهم!»

بيرم التونسي

كتب عن باريس مراراً ومن إحدى قصائده:

الفجر نايم وأهلك يا باريس صاحيين

معمرين الطريق داخلين على خارجين

ومنورين الظلام راكبين على ماشيين

بنات بتجري وياما للبنات أشغال

وعيال تروح المدارس في الحقيقة رجال

ورجال ولاكن على كل الرجال أبطال

ولسه حامد وعيشة واسماعين نايمين

وكتب بيرم التونسي قصيدة أخرى عن باريس يقول فيها الأولى مصر. والثانية تونس. والثالثة باريس:

الأوله اهـ والثانية اهـ والثالثة اهـ

الأوله: مصر. قالوا تونس ونفوني

والتانية: تونس. وفيها الأهل جحدوني

والتالتة: باريس. وفي باريس جهلوني

الأوله: مصر. قالوا تونسى ونفوني جزاة الخير

والتانية: تونس. وفيها الأهل جحدوني وحتى الغير

والتالتة: باريس. وفي باريس جهلوني

وأنا موليير

الأوله: مصر.

قالوا تونسي ونفوني جزاة الخير وإحـساني

والتانية: تونس.

وفيها الأهل جحدوني وحتى الغير ما صافاني

والتالتة: باريس. وفي باريس جهلوني

وأنا موليير في زماني

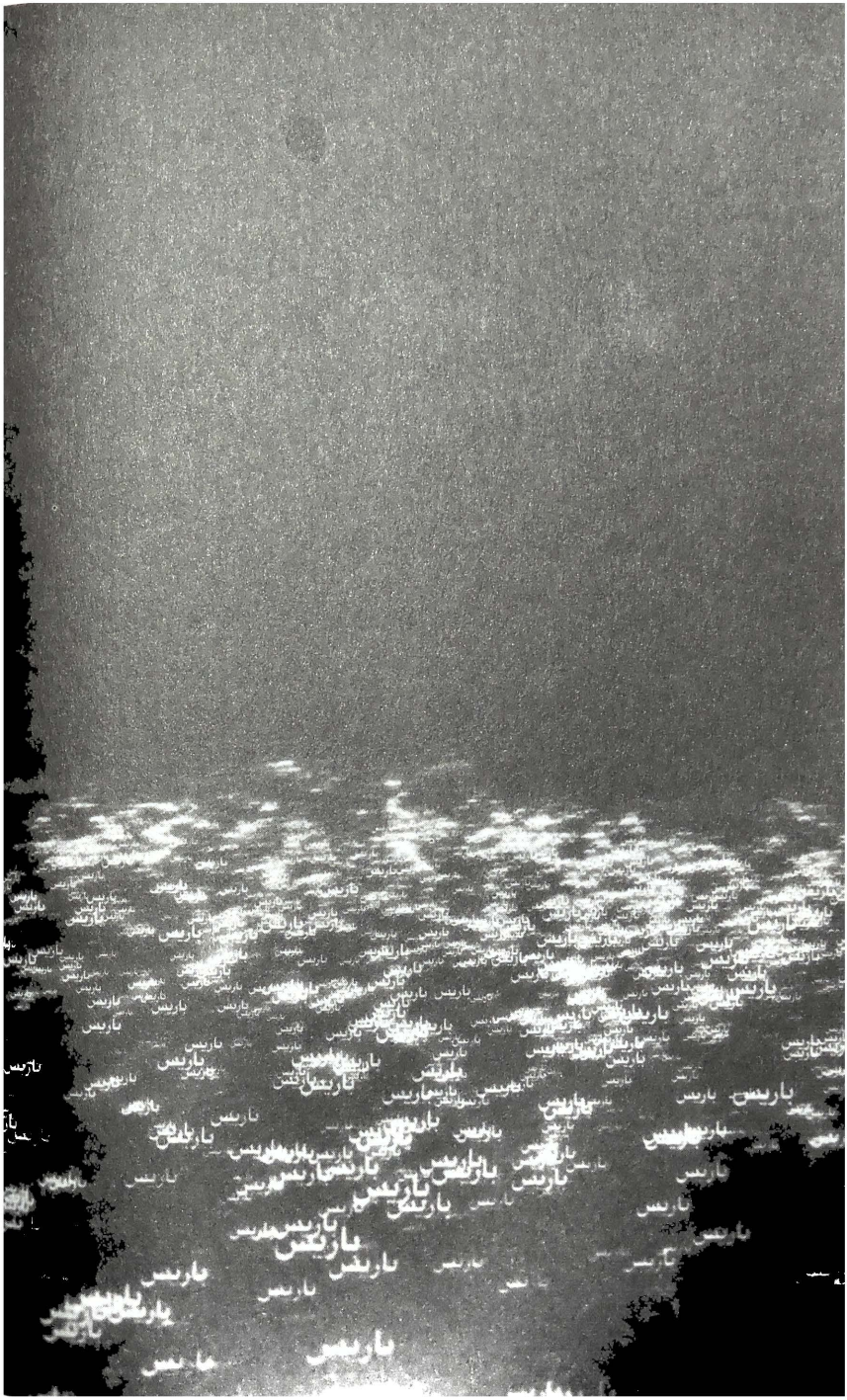
باریس

من شرفة المقهى: مدينةٌ تصدح بتراتيل الحب والتاريخ

لويزة ناظور

شاعرة جزائرية، إعلامية ومترجمة ولدت في فرنسا. وتقيم حالياً في باريس. كما أنها عاشت فترة طويلة في الجزائر. وهي عضو هيئة تحرير في مجلة فرانكوبوليس الثقافية الإلكترونية الصادرة باللغة الفرنسية.
صدر لها ديوان عنوانه « الرّيشةُ والأشفاز » باللغتين العربية والفرنسية عن دار لارماتان الباريسية عام 2010. وقدّم لها الفنان مارسيل خليفة. وبالإضافة إلى كتاب « أوديسا الكلمات » المطبوع، باللغتين العربية والفرنسية، ضمن سلسلة الكتب الشعرية-الفنية سنة 2014، عن دار النشر « بورداريك » الفرنسية؛ صدر لها في السنة نفسها ديوان « تنهضُ بي بعيداً » باللغة العربية، عن دار تيمقاد للنشر ومنشورات الاختلاف بالجزائر بالتّعاون مع منشورات ضفاف اللبنانية ببيروت. وهي الآن تنحو منحى العالم العربي الذي تطمح أن تستمر في التواصل معه رغم أنف المسافات.

جالسةٌ في مقهى باريسي عشيةَ يوم مشمس على غير العادة. ودافئ دفء المدينة وهي ترحب بكل من يسري في عروقها. وحدي أرتشف القهوة مُتأمّلة المارة، أنكبُّ من حين إلى آخر على قراءة شذرات من ديوان شارل بودلير «أزهار الشر». فكم جميل أن نعود مرة أخرى لقراءة قصائده الغنيّة بالصور، والعاطفة المتأججة الجامحة، وأن نعيد التأمل في لحظة خلو إلى الذات في أسلوبه المميز في إدراك حقيقة الأمور وقدرته على ابتكار تلك الصور الغريبة والتعبيرات الجياشّة برنَّةٍ موسيقيةٍ عذبة تتناغمُ وإيقاع الجاز الذي يصدح في هذا المقهى الباريسي! وأنا مستغرقة في نشوة الفكر وفي حالة تأمل في فضاء المدينة والانغماس في فضاء الشعر بمشاهد فريدة تضجُّ بألوان وأضواء وروائح بودليرية خالصة. انتشلني رنين الهاتف من تسكعيّ في دنيا الخيال، فإذ هي رسالةٌ تصلني من صديق شاعر فيها رابط لفيديو يظهر فيه محمود درويش وهو يلقي بصوته الساحر قصيدته «مقهى وأنت مع الجريدة». ما أن استمعت إلى القصيدة حتى تقمصتُ حالة ذاك الوحيد الذي يخاطبه درويش من وراء حجاب: «كم أنت منسي وحر في خيالك!» لا شك أن من يستمع إلى قصائد محمود دويش وخصوصاً إذا كانت بصوته الدافئ يغمره شعور شجي ويرتقي بإحساسه إلى أفق الجمال والسَّكينة. إلا أن وقع القصيدة وقهوة باريس وشعر بودلير جعلتني في حالة نشوةٍ روحيّة... أكان ذلك لأن باريس تجعلنا دائماً في حالة شاعرية قصوى نتجرع فيها مع الشاعر مرارة النفي والحضور والغياب, الذي يصبح مرادفاً لأحداث كبيرة تتجاوزنا وتوقد فينا طقوس الخلود وتقمص «إحدى صفات الغيب» الدرويشيّة؟

مدينة الحب

كان ما أطربني في الأمر هو انتقالي فجأة من حالة شـــعرية إلى أخرى أعمق منها ومن فضاء خيال شـــارد إلى آخر أكثر سحراً. فبمجرد ما اســـتمعت إلى صوت محمود درويش، أحسست بأنني أعود

إلى ذاتي بينما تتدفق في اللغة العربية أنهار مشـــاعر وصورٍ ودلالات قريبة إلى النفس والروح.

وكأن بي في هذه المقهى الواقع في الجانب الشـــرقي من إيل دولا ســـيتي «جزيرة المدينة» على نهر السين، أسافر على بساط الروح ووقع القصيدة إلى باديـــة الصحراء، لأتمعَّن تلك الحقيقة الصامتة التي يعجزُ أيُّ تأويلٍ أن يفك رموزها الســـريّة. فلا يسألني أحد عن سر حبي لها وتمســـكي بها في مدينة الجن والملائكة وبلاد فولتير وهيجو وبودلير. ســـيكون الجواب عصياً، لأنّ عُمق الحب يطَّرد مع صعوبة تفسيره. وكلما اتضحت الصورة، بهتَتِ العاطفة...

ليس غريباً أن عشـــاق اللغة العربية حاولوا عبر عقود استنباط خفاياها وكشف أســـرارها الكثيرة المتنوعة، لكنهم بقوا ظمآنين عند شواطئها العذبة.

الحبُ... حبلٌ وثيق يشـــدُّني إلى هذه المدينة: باريس التي اســـتحقت ألقاباً كثيرة، يحلو لي أن أناديها بمدينة الحب، فالحب وحده الذي اســـتطاعت أن تبعثه في ذاتي دون سابق إنذار هو ما يجعلني أعتز بها وأعود وأتصالح معهـــا كلما عاتبتها على ما تحمل من مفارقات. قد تســـتفزني أحياناً. إلا أنّ حُبّي لها يشتدّ كلَّ مرة.

كان محمود درويش يحب باريس؛ كان يحبها بســـحرها الغامض وجنونهـــا وبقدرتها على مخاطبة الذاكرة والمخيلة في آن واحد. كان يلجأ إليها ليمـــارس عزلته فيها، وليتنفس هواء الحرية. فهذه المدينة التي قال عنها أنها «جمالياً تحرّضك على الشـــعر والإبداع» هي أيضاً مدينة الكتّـــاب المنفيين الآتين من كل أنحاء العالم أوقعتهم في حبها وألهمتهم أفضل نصوصهم وإبداعاتهم.

تنـــاول كتاب كثر عظمة باريس. حتى إن قُرّاءهم أحبُّوها بالعدوى رغم أن أقدامهم لم تطأ شـــوارعها أو أزقتها فراحوا يحلمون بزيارتها يوماً.

لقد تعرف الشـــرق إلى باريس بأشكال مختلفة سواء عن طريق الأدب المترجم أو الفن. مـــا تزال هذه المدينة التي تغنت بها فيروز «باريس يا بلد الحرية. باريس مدينة الشـــعراء» مركزَ ثقل ومحور جذبٍ لما يُعتمل في إطـــار الحداثة من موجات فنية وتيارات جمالية شتَّى.

فهي التـــي احتضنت منذ النصف الثاني من القرن 19 أحدث التعبيرات في مجال المعمار والرســـم والتصوير والموضة والأزياء وفي ميادين النقد والأدب.

يلفت انتباهي في المقهى عاشـــقان يرشفان العصائر ويتبادلان القبل غير آبهين لما يـــدور حولهما. كانا يبدوان وهما متحاضنان كياناً واحداً لا تنفصم عـــراه. كأنهما واحد في انصهار القُبلة. ألا إنّ باريس خمر العاشقين...

منظر العاشـــقين في باريس مصدر بهجة كالورود الحمراء التي تزين حدائقها الكثيرة وجســـورها التي صارت محراب عشق لكل من مرّ عليها من عشاق الكون.

صحيح أن مدينة الحب هذه أزالت أقفال العشـــاق في ربيع 2015 من جســـر «بون ديزار» أو «جسر الفنون» وعلقت مكانها أعمالاً فنيةً، منهية بذلك تقليد العشـــاق الزائرين بوضع قفل في الجسر وإلقاء مفتاحه في نهر الســـين كرمزٍ للوفاء الدائم أو «الحب الأبدي». فيبدو أن ذاك الجســـر قد ناء بوزر الحب الذي تعاظم وزنه في الأقفال التي راحت تهدد أساســـه مما استدعى إزالتها، وتحويل الجسر إلى

معرض فنيّ في الهواء الطلق. لا شـــك أن العديد من العشاق قد خاب ظنهم بعدما اكتشـــفوا اختفاء أقفال قلوبهم التي علقوها على جسر العُشاق على نهر الســـين، لكنهم لن ييأسوا من إيجاد حلول رمزيّة أُخرى للتعبير عـــن حبهم المطلق. كما لو أن باريس بهذه الخطوة أرادت أن تقول للعشـــاق وهي مضطربة: «عذراً، ولكني أقول لكم كعاشـــقة قديمة إن الحب الحقيقي لا يختصر في نقش حرفين على قفل ثم رمي المفتاح فـــي قعر نهر. بل هو تلك البذرة التي تُلقى فينا من أول وهلـــة لتنمو في دواخلنا بعيداً عن الفصول وطقوس القِطاف... دون أقفال تُذكِّرُ بالســـجون». بقيت باريس عاصمة الحب وأصغى العشـــاق لها ووثقوا بكلامها فلقد علمتُ أخيراً أنهم صاروا يطلبون بعضهم أيدي بعض للزواج على جســـر الفنون، لكن من غير وضع أقفال وبلا مفاتيح.

هكـــذا تظل باريس هي باريس في وجدان أهل الأرض وقبلة العشـــق مهما استدارت الأرض. وقد قرأتُ أخيراً في الجرائد أن المدينة تعززُ مكانتها الرائدة هذه الســـنة كأول وجهة سياحية عالمية مع أكثر من 85 مليون زائر أجنبي، بحســـب أحدث الأرقام المنشورة في آب/ أغســـطس من هذا العام. أظن أن أكثر من يُقَدر هذه المدينة هم السياح الذين يقصدونها بحثاً عمّا يســـتجيب لحساسيتهم الجمالية، ويروي تعطُّشـــهم لتاريخ الفن والثقافة. لذا تراهم يبحثون فيها عما ســـمعوه أو قرأوه عنها في دواوين الشعراء وقصص الروائيين، ومآثر الملوك وروائع المهندســـين المعماريين... كيف نكتب عن باريس ونوفيها حقها، ونحن نحياهـــا يوميا؟ كيف يمكن لنا أن نُدرّب عيوننا على التقاط الجمال وســـط الروتين والعادة ونحن تقذفنا ميتروهاتها المتشـــعبة كأفاع بايثون عملاقة، وتوزعنا كالرسائل على شوارعها اللامعدودة؟ أو كيف لنا نحن الذين صرنا جزءاً من بشـــرتها الخارجية واكتســـبنا لونها وملامحها أن نميّزها مثلاً ونحن نقود السيارة في

زحمة خانقة حين تصرفنا القيادة عـــن التمتُّع بمعالمها وجمالها ونحن ندور في الشـــارع مِراراً لعلنا نجد موقفاً نركنُ العرَبة فيه كي نتفرغ لمشـــاغلنا العاجلة؟ وحدهم العشاق في باريس ليسوا على عجلة من أمرهم. يتبادلون القُبَل والعناق وهم ينهلون من ســـحرها الأخاذ... ما أسعدَ حظّهم، وما أتعسَنا!

يُخرجني العاشـــقان من جديد من مترو أفكاري فأنتبه لهما وهما يخرجان متعانقين بعدما دفعا ثمن مشـــروبيهما وتركا القليل من القطع النقدية على الطاولة عربون شـــكر للنادل. تمنيتُ لو أخبرتهما قبل أن يختفيا عـــن ناظريّ بأنه ما داما في مدينة الحب وملتقى العشاق، فبإمكانهما أن يســـتعيضا عن الأقفال بلحظات من الرومنسية أمام حائط الحب الشـــهير في قلب «مونمارتر» ، الذي يغازل قبالته حديقة عامة صغيرة، كُتـــب عليه كلمة «أحبك» بأكثر من لغة فإلى جانب اللغة اللاتينية، كتـــب بعضهم كلمة أحبك بالعربية والأمازيغية والعبرية والكردية وغيرهـــا جعلت من هذا الحائط لوحة فنية لالتقاط بعض الصور والذكريات الســـعيدة لتؤكد أن الحب يتعالى فوق اللغات وفوق الأصـــول والهويات. كنتُ أريدُ أن أخبرهما كذلك أنهما إذا ما قصدا «كاتدرائية ســـاكريه كور» أو القلب المُقدّس الواقعة على هضبة مونمارتر الشهيرة لشـــاهدا أحد أجمل المناظر البانورامية لباريس. لكنهما خرجا ولم يســـمعا نداء أفكاري... خرجا دون أن يعيراني اهتماماً. حتى أنني لســـت أدري إن أحسا بوجودي أمامهما وأنا أرتشـــف قهوتي وحيدة وأتأملهما بشكل مهذب وخفي لا يخلو من الفضول وشـــيء من الغيرة. بقيتُ أتابعهما بالنظر، فهاهما ينطلقان في اتجاه «كاتدرائية نوتـــردام دوباري» ليتعمدا بجمال هذا المعلم الأثري الذي كتب فيه فيكتـــور هيجو أحد أهم أعماله الأدبية. يُكمل خيالي طريق رحلته فبعد نوتردام ســـوف أصحبهما بمخيلتي إلى قصر العدل فهو ليس بعيداً من هنا في الضفة الأخرى من الســـين فلا بد لهما

وهما العاشـــقان الأجنبيان السائحان من زيارة كنيسة القديس لويس. فبالإمكان الطـــواف فيها أثناء زيارة قصر العدل، فهي توجد داخله وتنبض فيه كالقلب. هذه الكنيســـة الصغيرة التي تتميز بزجاجياتها الزخرفية الجميلة والعديدة والملونة، ترجع إلى القرن الثالث عشـــر وتدعى أيضاً «لا ســـانت شابل» أو الكنيسة الصغيرة المقدسة.
تعد من أجمل المعالم الدينية المســـيحية في باريس. وإذ ينصرف تفكيري إلى التاريخ ومعالمـــه التي تزخر بها هذه المدينة. أعي حينها هنا، في هذا المكان حيث أرتشـــف قهوتي على الضفة الأخرى من جسر «الكاردينال لوســـتيجيه» المطل على نهر السين أنني أقبع في أعرق مكان في باريس.

قبيلة باريس

يســـحب التاريخ من جديد شعر أفكاري فأتذكر أن اسم باريس يرجع إلى قبيلة كلتية كانت أول من ســـكن المنطقة وتدعى «باريســـي».إذ إن هذه المدينة التي أتأمل معالمها من نافذة المقهى نشـــأت في جزيرة صغيرة ما تزال تدعى إلى يومنا هذا «أيل-دي ســـيتي» أو جزيرة المدينة. حيث كان يعيش أهلها على صيد الأسماك. على جزء من هذه الجزيرة يقوم اليوم قصر العدل، ومحافظة شـــرطة باريس وقاعـــة البلدية وكاتدرائية نوتردام - دي باري التي تتميز بموقعها الفريد في قلب المدينة التّاريخيّة المطلة على نهر الســـين. هكذا أُطل من نافـــذة المقهى على تاريخ المدينة العريقة وأحاول أن أعيد اســـتحضار تفاصيلها القديمة. أتصور نفسي محاطة بالأشجار والحدائق الغناء قبل أن تتحول إلى حواجز وجســـور وأعمدة. أتأمل الصيادين وهم يرمون شـــباكهم في نهر السين للحصول على قوت يومهم وأســـمع صراخهم وفرحهم لأنهم أمسكوا بسمكة كبيرة. أو شتائمهم وانكســـاراتهم لأن الصيد لم يكن موفقاً. يرجع تاريخ

باريس إلى أكثر من ألفي سنة حين أقام الرومان مستعمرة في المنطقة. ثم اتسعت بسرعة في العصور الوسطى وأصبحت مركزاً رئيسياً للثقافة والحكم.

لم تكن باريس دائماً مدينة النور والأحلام الهادئة ومنبع الرومنسية، فقد كانت مسرحاً للعديد من الأحداث السياسية الهامة على مر التاريخ، مثل الثورة الفرنسية في عام 1789م. حيث أصبحت فرنسا من بين أولى الدول التي عزلت ملكها وأقامت الجمهورية بعد أن أُعدمت الملك لويس السادس عشر ليمتد أثر الثورة الفرنسية إلى الدول الأوروبية كافة، وعلى رأسها المانيا حيث سقط الكونت مترنيخ مستشار ال هابسبرغ، وانتقل إلى المنفى بعد أن كان يعتبر الدعامة الأساسية للنظام المحافظ في المانيا. صحيح إذاً القول الطريف: «عندما تعطس باريس تصاب أوروبا بالزُّكام».

لكن وأنا أسترجعُ هذا التاريخ في ذاكرتي، يصعب علي أن أتغاضى عن المفارقة بين باريس اليوم، موطن الجمال الساحر في أبهى أشكاله، وباريس تلك الحقبة العسيرة من تاريخ فرنسا. وسرعان ما يعود سمك نهر السين في مخيلتي أحمر قانياً يمخرُ نهراً من الدم... فقد امتلأ نهر السين بالجثث بعد قيام الثورة الفرنسية حتى إن الناس امتنعت عن اكل السمك عدة شهور. وكثيراً ما تخضبت هذه الشوارع الجميلة بلون الدم. وصُبغت المقصلة باللون الأحمر من دماء المخلوقات البائسة الذين تم ذبحهم وكان أنين بكائهم يختلط بصياح قاتليهم حيث أُعدموا بالمقصلة أمام جمهور من المتحمسين لهذه المشاهد المروّعة. فلا يخفى على أحد أن الثورة الفرنسية التي نجحت في إسقاط الملكية والإقطاعية شهدت من خلالها الشوارع الجميلة وساحات باريس عدداً كبيراً من المذابح والمجازر. فالجموع دخلت القصور والبيوت وسلبت وقتلت ومثّلت بجثث الإقطاعيين واغتصبت نساءهم وأحرقت بيوتهم وأنهت إلى الأبد تلك العبودية

التي فرضتها عليها الإقطاعية الموالية للكنيسة الكاثوليكية، لكن بالعنف التاريخيّ. مع ذلك، مازال العالَم يذكرها باحترام وينظر إليها بعين الإعجاب. ويسعى الفرنسيون للحفاظ على مكتسباتها، نظراً إلى ما حملته من تغييرات جذرية لمصلحة التنوير الآتي عبر إرساء الديمقراطية وحقوق الشعب والمواطنة.

لقد بردت قهوتي قبل أن أكملها وبدأ الليل يسدل ستائره على المدينة. سأطلب قهوة جديدة وسأشربها ساخنة هذه المرة قبل أن أخرج من هنا. فأنا من هواة القهوة ومن المستمتعين بترضبها ساخنة تحرق الشفاه...بدأت معالم باريس ومبانيها العريقة وأرصفتها تكتسي بالأضواء، وأنا أنظر إليها من نافذة المقهى... تنتشر أضواؤها الساحرة خيالاتٍ رومنسيةً وأحلاماً وأملاً... انساب من جديد مع إيقاع موسيقى الجاز المنبعث من مكبرات الصوت المنتشرة في المقهى. هكذا أحبُّ باريس؛ متألقة في النهار وضّاءة ساحرة في الليل...

مدينة النور

مدينةُ الحب والنور والرومنسية والفن المعاصر. عاصمةُ فرنسا وقلبها النابض. هي أيضاً تلك المدينة العريقة التي تنبض بتاريخ إنساني عريق. وبالجمال والرقي. يسمونها مدينة النور وذلك لأن باريس كانت مركزاً للعلم والفكر والفنون، خلال ما يعرف بعصر الأنوار الذي بزغ فيه العديد من الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين منذ القرن السابع عشر إلى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر للميلاد. فقد ظهر هذا الأمر جليّاً في الفن الفرنسي الذي أدى فيما بعد إلى انطلاق الثورة الفرنسية. لعل من أشهر الأعلام في عصر التنوير الكاتب الفرنسي فرانسو ماري أرويه المعروف بفولتير، وهو كاتب وفيلسوف ومن أبرز الأشخاص على المستوى

الأوروبي والفرنســـي الذين قاموا بالدفاع عن الحريات بشكل عام وحرية الاعتقاد بشـــكل خاص وقام بمهاجمة الكنيسة والدولة معاً. وهناك أيضاً المســـرحيّ موليير حتى أن اللغة الفرنسية تربط باسمه، فكما يقال لغة شكســـبير عن الإنجليزية فإن اللغة الفرنسية هي: «لغة موليير». كما بـــات لقب مدينة النور أكثر ملاءمةً لها بعد أن أصبحـــت، منذ عام 1828، أول مدينة في أوروبا تضاء طرقاتها بالأنوار والمصابيح الغازية...

يحلـــو لي وأنا أطل من نافذتي وما دمتُ وحدي في خيالي أجوب، أن أتخيل أجواء الشـــوارع المضيئة بالمصابيح الغازية في ليالي السَّـــهر وأتأمل المارة من أهاليها بلباسهم الأنيق وهم يرتادون المســـارح والمقاهي وحفلات السيرك وصالات العرض. قد يسهل عليّ أن ألونَ خيالي بمشـــاهد كثيرة خلّدها بعض فناني تلك المرحلة في أعمالهم، ومنهم تولوز لوتريك، كلود مونيه، أوغوســـت رونوار، بول ســـيزان وغيرهم، الذين كانوا من الفنانين المجددين، والذين شهدوا وأسسوا ســـنوات الزمن الجميل. باريس اليوم تروي جمال حضارتها وعراقتها، وتاريخ ملوكها وعظمائها. بجســـورها المعلقة على نهر السين الذي يشـــق المدينة. ومتاحفها التي تنطق اعتزازاً وفخراً بأمجاد شعبها.

تركـــتُ باريس دون أن أتركها وغصتُ مرةً أخرى في قراءة قصيدة لبودلير فـــي انتظار قهوتي قبل أن انتفض جافلة على صوت أجراس كاتدرائية نوتردام.

كل يوم تقوم باريس على صوت أجراس نوتردام، أجراسٌ ضخمة تجلجل في ســـمائها. يتلقفني الخيال مرة أخرى وأكاد ألمح من جديد طيفَ ماضٍ بعيـــد، وأرى أزميرالدا الراقصة الغجرية وهي تتغنج أمام أحدب نوتردام الذي يتحســـر أسفاً. أظن أن كل من قرأ رواية

فيكتور هيغو الشـــهيرة أو سمع عن أحدب نوتردام ينغمس في عالم تلك الرواية المؤثرة كلّما اقترب من هذه الكنيســـة. فهي تبهر زوارها بتصميمها العجيب. وخصوصاً ليلاً لما تضاء بالداخل بالشـــموع باعثةً في من يتجول في جنباتها شـــعوراً عجيباً لن يجد له مثيلاً إلا في عالم الروايات وقصص العجائب.

تعكس معالمُ باريس الدينية والثقافية تاريخ تنوع النســـيج الاجتماعـــي، فالزائر الذي لا يفوته الوقوف عند أقدام رمزها الخالد برج إيفل يحث حجيجه نحو أجمل شـــوارع العالم الشانزليزيه بعد أن يشـــبع جوارحه بسكون كاتدرائيتي نوتردام و ساكري كور. ولا بد للسائح أن يشـــبع فضوله بزيارة معهد العالم العربي إحدى أهم المؤسســـات الثقافية في فرنسا. ثم يزور مسجد باريس الكبير الذي يُعتبر أقدم وأكبر وأشـــهر مسجد في أوروبا. لعلَّ باريس أن تكون بهذا الرابط بين الشـــرق والغرب العاصمة الأوروبية الوحيدة التي ينضج ارتباطها بالعالم العربـــي عبر هذين المعْلمين. فهي تدرك جيداً أن الانفتاح على الحضـــارات المتنوعة جوهر الثقافة والعلاقات بين بني البشـــر... فبإمكان زائرها أيضاً أن يفتح نوافذ على الثقافات الأخرى كما هي حال الحي اللاتيني العامر بالمطاعم التي تحمل أســـماء مختلفـــة ونكهات تكاد تختصر أذواق العالم كلّه...

متحف اللوفر

ومن منا لم يســـمع مثلاً بمتحف اللُّوفر الذي يعد أحد أكبر المتاحف في العالم، والذي يطل على الضفة الشـــمالية لنهر السين. المتحف يحتوي على أشـــهر الأعمال الفنية العالمية عبر التاريخ كاللوحات الزيتية من العصور الوســـطى وتماثيل ومنحوتات تمثل العصـــور الإغريقية والرومانية والمصرية وحضارة بلاد الرافدين. كما يعد افتتاح جناح جديد للفنون الإســـلامية عام 2012 حدثاً هاماً

في تاريخ العلاقة بين الحضارة الإســـلامية والحضارة الغربية. فهو من أهم الأجنحة المخصصة للإســـلام وحضارته في متاحف العالم كله. ويوجد في قلب باريس على ضفة الســـين في جوار برج إيفل «متحف كي برانلي» الأســـطوري، تُعرض فيه فنون وحضارات إفريقيا وآسيا وأوقيانيا والأميركتيـــن، في مجموعات ترقى إلى مصاف كنوز العالم اللاأوروبي. تداولت وســـائل الإعلام تدشين المتحف بالقول إنه شُيِّد تعبيراً عن إرادة الرئيس الفرنســـي السابق جاك شيراك «بإعادة الفنون والحضارات المُغفلة فترة طويلة إلى المكان الذي تســـتحقه» مع الأمل برؤيتها تتحول «لأداة سلام تشـــهد على التكافؤ الكامل في الجدارة بين الثقافات والبشر».

هكذا هي باريس تحتضـــن زائرها لتجتذبه بكل ألوانها وفنونها ومتاحفها ومكتباتها وقصورها. لتصبح صرحاً ســـياحياً مفتوحاً أمامه. لتوهمه أنَّ له نصيباً فيهـــا. فبقدرما يكون وحيداً فيها، يُحِسُّ أنه في مكان يألفه. وهكذا تصبح المدينةُ ســـيدةً جميلة، عروسَ بحرٍ تأخذ بيـــده وتقوده إلى ما هو أقرب إلى روحه. ما عليه إلا أن يضيعَ في شـــوارعها ليكتشف ذاته في الآخر الذي لا يعيره اهتماماً لأنه هو الآخر مهووسٌ بلذة الاكتشاف.

وهكذا هي أنا في هذا المقهى منســـيةُ، وتحلو لي وحدتي هذه وأنـــا أتأمل عوالم باريس ثم أغوص من حين إلى حين في قصائد بودلير العميقة عمق الحياة نفســـها. بحيث يتمحور الشعر عنده في التضاد بين الخير القليل والشـــر السائد، بين الجمال النادر والقبح الشـــائع. وهي تلك الحيرة بين الحب والخطيئة، بين المتعة والألم. وكم يحلو لي أن أتفرد فـــي مخيلتي بصوره الغريبة وتعبيراته المتميزة.

كان بودلير شاعر البائســين والمنهزمين الفقراء والمحرومين. «البوهيميون» هي المفردة التي ترددت بقوة في شــعره، فهي ارتبطت بتطورات أعقبــت انتفاضات وثورات الطبقات المختلفة في فرنســا. يعتبرها ابنة المدينة الجديدة التي كانت الرأسمالية تنحتها بقســوة في باريس وتتجلى في الحياة الثقافية والاجتماعية عموماً. نرى في أشعار بودلير أن المتســكِّع هو بمثابة سلعة لا قيمة لها، وأنه مُنْتَج اجتماعي للرأســمالية مثلما السلعة مُنتَج اقتصادي. أظن أن باريس اســتفزَّت بودلير هو أيضاً بقدر ما أَحبَّها...

من نافذة هذا المقهى المطل على نهر الســين في «جزيرة المدينة»، أختصر وحدي فضاءً واســعاً... وعلى مرمى العين تتاح لي رؤية شــاملة لعدد كبير من الأبنية العريقة ولأشهَر المعالم الباريسية التاريخية.

ليس غريباً أن تبقــى باريس متوهجة بلُغزها، لُغز المخبوء الجميل. عاصمة الأنوار تجري مســرعة في سباق التقدم والتحضر: مبانٍ عصريّة، ومطاعم وجبات ســريعة، وأسواق الماركات المشهورة... لا تغادر ماضيها غير آســفة عليه، ولا تنقص من خصوصياتها في شيء. بل تجد بذلك الوصفة الســحرية التي تعقد الآصرة بين المرء وتاريخها العريق، سواء أكان من ســكانها أم من الذين يعملون في مؤسساتها الحكومية، أم من جاءها ســائحاً يكتشف معالمها الأثرية التي لا تدير ظهرها لإنجازات التكنولوجيا...

كل مدينة تحاول أن تحافظ على شــيء من خصوصيتها... تنشــئ المتاحف... تُبقي على بعض المباني القديمة كي تكون قِبلة الســياح؛ إلا أن باريس، في ذاتها، متحف كبير مفتوح للقاصي والداني ليلَ نهار... أرى قصر العدل من هنا حيث أرتشــف فنجان القهوة التي بردت هــي الأخرى قبل أن أُنهيها. أرى مبناه الذي يتجلى وراء

مبنى «محافظة شـــرطة باريس»، هذا القصر الواقع في قلب العاصمة الفرنســـية هو أقدم قصر ملكي، تأسس في القرن الثاني عشر للميلاد، واليوم يضم مؤسســـات قضائية أهمها محكمة الادعاء.
كذلك محافظة شـــرطة باريس أو «المديرية العامة لشرطة باريس» التي تتولى أمن العاصمة الفرنســـية وضواحيها، كانت قصراً ملكياً أيضاً.
حتى مستشـــفيات باريس ضاربة الجذور في تاريخ العصور الوسطى.
يُطِلّ عليَّ مبنى مستشـــفى «أوتيل ديو» أقدم مركز علاجي في قلب جزيرة «لاســـيتيه» قبالة مبنى «محافظة شرطة باريس» وفي جوار كاتدرائية نوتردام في مركز المدينة، أسَّـــس هذا المستشفى الأسقف «ســـانت أندريه» ، أسقف باريس عام 651، ليكون رمز الأعمال الخيرية والضيافة، ولتكون بذلك أقدم مستشـــفيات العاصمة الفرنسية...
وهناك أيضاً مستشـــفى « الشاريتي- سانت-أنطوان» و «سانت لويس»، ومستشفى «لاســـالبيتريير» والعديد من المستشفيات الأخرى التي لا تزال توفر معظـــم خدمات الرعاية الصحية والخدمات الطبية الطارئة وتشـــمل أكبر نظام مستشفيات في أوروبا. يوفر هذا النظام الرعاية الصحيـــة، والتدريس، والبحوث والوقاية. كما يُعتبر نظام الضمان الصحي الفرنســـي من أكثر الأنظمة الإنسانية المتقدمة في العالم.

الجن والملائكة

مع المساء يزداد الهدوء وتصبح الأذن أكثر قدرة على التقاط الأصوات. هكذا رحتُ أستمع كل بضع دقائق إلى صوت المترو غير الأقرب إلى مكاني. المترو أيضاً مثل برج أيفل ميزة من ميزات هذه المدينة.
حتى أن بعض محطات القطارات الباريسية القديمة والمجهزة بأحدث العربات تشهد من خلال معمارها على تاريخ الحضارة الفرنسية. فباريس عرفت كيف تجعل من مبانيها التاريخية جسراً نحو العصرنة والتطور.

كثيراً ما أتســـاءل، وأنا أجوب شوارع مدينة الجن والملائكة التي تحـــرض مخيلتي من حين إلى آخر: هل أنا الآن في رصيف الجن من شـــارع المدينة أم في الرصيف الآخر عند الملائكة. وأتساءل أيضاً في من أيٍّ مـــكان في هذه المدينة أطلق عميد الأدب العربي طه حسين عليها تســـمية «عاصمة الجن والملائكة» كي «تبقى باريس» إلى الأبد في ذاكرة الإنســـان العربي؟! ربما عند اجتيازنا المقابر الباريســـية التي تطوقها الحدائق، نكون على عتبة شارع الجن مثلاً؟ أسأل نفســـي بخبث ثم أضحك من نفسي على نفسي. فحتى المقابر في باريـــس لها نصيب من الجمال والإغراء حين تفتح لنا بوابات التاريخ والجمـــال على مصراعيها لنتأمل بإمعان إنجازات أبرز المشـــهورين في العالم من كتّاب وموسيقيين وفلاسفة ورسامين يرقدون تحت ضرائح وهياكل منجزة بشـــكل متميز وعريق في آن واحد. الأمر الذي جعل هذه المقابر قبلة للســـياح والزائرين.

الحديث عن المقابر في باريس يذكرني بمفارقة واضحة بين «مدينة الظلام» القابعة في الأسفل، و«مدينة النور» التي وصفت بها العاصمة الفرنسية. فأنا أكاد أجزم أن الكثير من الناس لا يعلم أن تحت كرسيي هذا وتحت قدمي في هذا المقهى لمدينة الرقي والجمال، وتحت هذه المدافن الراقية للمدينة الخلابة يوجد على بعد مائة قدم تقريباً عالم سري ومخيف تحرسه ملايين الجماجم وتعطره أجواء رائحة الموت المريبة. يُعرف هذا العالم الجنائزيّ بسرداب الموتى في باريس أو «كاتاكومب باريس» ؛ مدينة تحت مدينة – مدينة الموت والظلام تحت مدينة للأنوار وفضاءات الرومنسية.

وتتشكل مدينة الظلام من قسمين. الأول يضم مجموعة من أنفاق المناجم، والقسم الآخر أنفاق مصمّمة من بقايا عظام ملايين الجثث المخيفة. هذه الأنفاق التي تشكل مستودعاً كبيراً لحفظ عظام الموتى، حُفِرت في القرن الثامن عشر لاستيعاب الحجم الضخم من الموتى، فبعد

امتلاء مقبرة «الأبرياء»، لجأ الفرنسيون إلى تجميع العظام في جوار جدران المقابر، ولكن بعد إزالة المقبرة وغيرها من المقابر في باريس، ذهب الفرنسيون إلى إنشاء «سراديب الموتى» تحت شوارع باريس لإيواء العظام. احتوى المستودع حينها على عظام 7 ملايين مَيت...

أخفت الحكومة هذه الحقيقة عن العامة في فرنسا وعن العالم طوال عقود. واليوم فتحت مستودع عظام الموتى للزائرين، وهو يستقطب السياح، ويعتبر من الأماكن الأكثر تميّزاً وإثارة في باريس حيث يوجد المدخل الرئيسي في الدائرة الرابعة عشرة. وقود الفضولُ يذهب بالبعض إلى المغامرة باكتشاف السراديب المتشعبة تحت المدينة والممنوعة أمام الجمهور. وذلك رغم مخاطر احتمال حدوث انهيار الصخور والتربة. وربما ما يجذب المغامرين إلى هذه المتاهة الكبيرة تحت الأرض هو حالة الصمت التام والهدوء الجنائزيّة التي تجعل المغامر على كوكبٍ مرعب آخر.

كان فيكتور هيغو قد وصف هذا المكان الرهيب بمدينة الراحة الأبدية والروعة. بينما قال عنه الكاتب الأميركي آرون بول لزار المتخصص في كتابة روايات الألغاز، بأنه لو بحث الواحد منا في «الكاتاكومب» لسوف يجد بوابة الجحيم...! هكذا لا تزال باريس تحافظ على الكثير من الغموض الذي يزيدها جمالاً وجاذبية. حيث قد يرى كل واحد منا في ذلك إما نافذة إلى الراحة الأبدية حسب تعبير فيكتور هيغو وإما متاهة إلى جحيم الحيرة والفضول الذي لا يمكن إشباعه. لست أدري إن كنت سأزور هذا المكان يوماً. لكن من المؤكد الآن أنني إذا زرته قد أجيب عن أحد الأسئلة التي طالما راودتني وأنا أدبُّ في شوارع باريس. أَتُراني الآن عند عتبة الملائكة أم في ضيافة الجن؟ فلربما إذا وقفت يوماً على أحد هذه الممرات، سأصير في شارع الجن، في عالم الأرواح الباريسية الذي حفرت أرصفته سواعد آلاف العمال الكادحين عبر القرون حتى توسعت لتصبح عالماً آخرَ لا يمتُّ بصلة إلى باريس النور والإشراق...

باريس مدينة النور والظلام شيدتها أيضاً سواعد العمال الكادحين من المهاجرين. وقد استمرت فرنسا حتى بعد استقلال الجزائر عنها في تشجيع جلب اليد العاملة من مستعمراتها القديمة، وبخاصة في ذروة «الثلاثين الذهبية» أي العقود الثلاثة للقرن الماضي بين 1945و1975 التي ازدهر فيها الاقتصاد الفرنسي ووصل إلى أعلى مستواه مستدركاً ما خرّبته الحرب. معظم العمال الوافدين استجلبوا من المغرب والجزائر وتونس، وكانوا عزّاباً غير متزوجين أو أنهم تركوا أزواجهم في بلادهم على أمل العودة القريبة فلم يكن في مخطط معظم هؤلاء العمال الهجرة الدائمة، لكن شاءت لهم الأقدار أو شظف العيش في الغربة جمع شمل العائلة بعدما سمحت فرنسا لأزواج العمال ولأبنائهم بالقدوم إلى أراضيها.

هذا ما يجعلني ربما وأنا ابنة الجيل الثالث من المهاجرين إلى فرنسا بين خطي دخان، أتأرجح بين ثقافتين ولغتين بل ثلاث. بينما أشكر حظي لأنه أصابني بحظٍ من كلتا الثقافتين.

في هذا المقهى الباريسي لا أحس بالغربة أبداً، بل أشعر بأنني في ديباري وباريس تحتضنني بين ذراعيها. ومع هذا، أحن إلى جبال القبائل الشامخة، وبهجة الجزائر العاصمة «بلاد سيدي عبد الرحمن». أحِنّ إلى الوقوف أمام ضريح الإمام سيدي الهواري مؤسس زاوية وهران. إلى مُلامسة رسومات كهوف الطاسيلي، في عمق صحراء الجزائر. وإلى شرب ماء عين الفوارة، فاتنة المرمر، التي تتربع في قلب مدينة سطيف، على أصفى منابع الماء. لقد قيل إنّ تمثال المرأة العارية الذي يقبع فوق العين ويستقطبُ السياح منذ عقود، ويُلهِم من زارها من شعراء وفنانين، نحَته «فرانسيس دو سانت فيدال» ، وكان معروضاً من قبل في متحف اللوفر في باريس قبل أن يتم نقله إلى سطيف عام 1898. وتقول إحدى الروايات إن التمثال كان لمحبوبة أحد الحكام الفرنسيين، تزوجت شخصاً آخر، فلم يكن بيد الحاكم الفرنسي إلا أن يطلب نحتها ووضعها على منبع الماء، تخليداً لحبه لها الذي سيبقى متدفقاً إلى الأبد تماماً كتدفق الماء.

أفيق من غفلتي وأعود من رحلة الحنين لأجد نفســـي قابعةً في المقهى نفســـه والمدينة نفسها وأمامي فنجاني الثالث المملوء بالقهوة الباردة. أدفع ثمن قهوتي التي لم أشـــرب إلا نصفها وأترك إكراميّةً للنادل ولأصحاب المقهى الذين تناســـوني طوال مكوثي، وتركوني وحيدة أجول في خيالي...

جثث في السين

خرجتُ من المقهى ورحتُ أجتازُ جســـر «كاردينال لوستيجيه» إلى الضفة الأخرى من الســـين لأدخل في شدق إحدى محطات الميترو لأعود إلى بيتي. لكن على الجســـر تمهّلت خطايَ ثم توقفتُ لأستمع إلى صوت رقرقة الماء وأتأمل مجرى نهر الســـين الذي يعكس أضواء المدينة. مرّة أخـــرى اقتحمني التاريخ من جديد فعادت إلي حلقة من حلقاته الســـوداء، لأتذكر بأنه وفي قعر هذا النهر تقبع عظام الجزائريين وتحوم أرواحهـــم الطاهرة في فضاء المدينة بعدما دفعوا حياتهم ثمن ثورتهم المجيدة وحريتهم. هذه الأحداث الدموية، يشـــير إليها المؤرخـــون بتعبير «مجزرة باريس عام 1961»، وفيها امتزجت مياه نهر «السين» الفرنســـي بدماء الجزائريين المقتولين، الذين رمت بجثثهم شـــرطة «موريس بابون» ، في النهر، فاصطبغ ماؤه بدمائهم. رُمي المئاتُ منهـــم أحياءَ في النهر. يومذاك تجمع آلاف الجزائريين للمطالبة باســـتقلال بلدهم متحدين حظر التجول.

وإلى أن تعترف فرنسا رسمياً بجميع الأحداث التي وقعت في تاريخها الاستعماري، يأتي الاعترافُ الرسمي للرئيس هولاند عام 2012، في الذكرى الواحدة والخمسين لمجزرة السابع عشر من أكتوبر، بما سماه بـ«القمع الدموي» ليكون بداية جديدة في العلاقات الفرنسية الجزائرية. لا ينبغي إنكار ذاكرة شعب أراد الحياة، وهي تستقفي الماضي الاستعماري لفرنسا حتى في قلب عاصمتها وسحرها. لا يجب أن يُخفى التاريخ، ولا أن

تُدفن ذاكرة الشُّعوب، لكن لا بد من طي صفحة الماضي بشكلٍ مُشرِّف والعمل على بناء علاقات جديدة حضارية بنّاءة.

رنَّ منبه الضَّمير في فتذكّرتُ أنني تأخرتُ كثيراً على أســـرتي، وعلي أن أعود بســـرعة إلى البيت، فها هو الهاتف الذي أغلقت فمَهُ بعد أن اســـتمعتُ إلى قصيدة محمود درويش، وقد امتلأ بالرسائل النصية والاتصالات التي لم أنتبه إليها. لقد قلقوا بشـــأني في بيت أختي. آهِ! يا إلهي! أنا مدعوة إلى تناول العشـــاء عندها، اليوم بالذات هو عيد ميلادها. أيُعقل أنني نســـيت نفسي إلى هذه الدرجة؟! أهو وقع ســـحر باريس، حبها... أم تجوالي في المفارقات التي تستفزني، لأعود بعدها إلى مدحها؟ هل ضعتُ في ســـحرها أنا الأخرى؟! ما كان عليَّ أن أكتب عن باريـــس اليوم. بعيداً عن مكتبي... غير أني كتبتُ...

القدس
باريس
القدس

مقدسيـة في الـحي اللاتينـي

مارال أمين قطينة

فلسطينية من القدس أنهت تعليمها الثانوي في مدينة رام الله، حاصلة على بكالوريوس في الإدارة والاقتصاد من الجامعة العبرية، بعدها انتقلت إلى العيش في باريس مدة أربعة أعوام حصلت خلالها على دبلوم وماجستير معهد الصحافة الفرنسية من جامعة السوربون الثانية « بانتيون - أساس » ودورة تدريبية في العلاقات الدولية من جامعة السوربون. عادت بعدها إلى القدس لتحافظ على إقامتها وكي لا تخسر حقها في السكن فيها « وفقاً لقوانين الاحتلال الإسرائيلية »، عملت منتجة برامج وتقارير إخبارية وريبورتاجات في الإعلام المرئي والمسموع، إضافة إلى عدة محطات أجنبية. منذ 2012 تفرغت لإنتاج الأفلام الوثائقية مع قناة Arte والتدريب الإعلامي للمؤسسات والمشاريع الصغيرة في مخيم الدهيشة. نشرت مقالات في صحيفة الأخبار اللبنانية ومجلة This Week In Palestine، وغطت الحرب الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة لحساب Vice News، حالياً تعمل كمنتجة مستقلة للأفلام الوثائقية.

ليس لمدينة النور نظير لكن مدناً كثيرة تشـــبهها، ذلك أن ســـحرها خاص وجمالها أخاذ يحبس الأنفاس... يوم زرتها للمرة الأولى قبل عشر سنوات لم تســـعني الفرحة. ما صدقت عيني عندما توقف القطار القادم من بروكســـل في محطة «غار دي نور» على ضفة نهر الســـين اليمنى وعلى بعد مئات الأمتار من معهد العالم العربي. كادت أنفاســـي تتوقف لحظة خروجي من المحطة. عالم مدهش ينفتح فجأة أمام ناظريك فلا تعرف كيف تضبطه. أســـرعت الخطى نحو الفندق الواقع في الدائرة الخامســـة، وضعت أمتعتي «كيفما اتفق»... وانطلقت لاكتشاف ذلك السحر الموصوف.

لم تتعد زيارتي القصيرة لباريس بضعة أيام، ومع ذلك شـــعرت لفرط سعادتي بأنني أشـــترك بفالس بديع يدور على ايقاع موسيقى هذه المدينة التي تكاد لا تظلم أبداً. لم أشـــعر بمرور الوقت إلا عندما حان موعد المغادرة. كنت أصغي إلى دقات قلبي حماســـة وشوقاً، فمن جهة كنت ســـعيدة لأنني حققت حلماً بزيارة أجمل مدن العالم التي لطالما حلمت بزيارتها ســـنين طويلة، ومن جهة أخرى لأنني صممت على الرجوع إليها يوماً.

ها أنا فـــي القدس... أحزم حقائبي للعودة إلى باريس بعد ثلاث ســـنوات من زيارتي الأولى. صرفت وقتاً طويلاً للحصول على أوراقي حتى أصبحت جاهزة، تماماً مثل قبولي في جامعة الســـوربون أقدم وأعرق جامعات العالم. ســـأتمكن أخيراً من تعلم الفرنسية، علماً أني كنت قد تابعت دروســـاً مكثفة في لغة موليير في المركز الثقافي الفرنســـي في القدس، وأخفقت في متابعة دروس إضافية في المركز الفرنســـي في رام الله، فالرصاص كان أسرع مني عندما اخترق جدران المبنى ودمـــرت قذائف الدبابات ما تبقى منه. قذائف الاحتلال في فلســـطين لا تفرق بين المراكز الثقافية والمقار العسكرية.

أنا الآن على أهبة الاســـتعداد لأكمل ما بدأت، سأصل إلى باريس وأباشـــر دروس اللغة وعندما يحين الموعد للالتحاق بالجامعة ســـأكون جاهزة لخطواتي المقبلة. لكن القدر أبى إلا أن يسلب مني الحلم، لبعض الوقت فقبل يوم من ســـفري غافلني والدي وتوفي فاضطررت لتأجيل سفري مدة شهر.

كانت فاجعتي كبيرة. إلى حد أنني قررت في لحظة حزن الإقلاع عن الســـفر. فأي مصير لي بعد أن رحل أحد أعمدة المنزل؟ ، بيد أن إصرار أمي وإلحاحها المتواصل حملاني على تحدي نفســـى، واستئناف الحلم الباريسي مع اختلاف في الأحاسيس وفقدان ذلك السلام الداخلي الجميل الذي كان يســـكنني قبل وفاة والدي. لقد اختلفت مشاعري عن ذي قبـــل. بدأت تظهر علي علامات القلق والتوتر، لكني جددت طاقتي وعزمت على وجوب الاهتمام بأمي وأخي وعلى متابعة شؤونهم عن بعد فضلاً عن أموري الخاصة.

لم أشعر بالراحة النفسية إلا في الطائرة المتجهة إلى باريس. فالاستجواب في مطار تل أبيب كان كريهاً والتفتيش الجسدي كاد يصيبني بالانهيار. لم أكن أفكر في ما يســـألني المحقق، كنت أجيبه بطريقة مختصرة لا ترضي غروره. لم آبه لما يفكر أو يســـتنتج، كنت أحاول أن يفهم أني ذاهبة لأتعلم ولأكمل دراستي وأحصل على الماجســـتير ومن ثم «شئت أم أبيت سأعود عندما أنهي دراستي» لا أحمل أمتعة لأحد ولم يســـاعدني أحد على توضيب حقائبي «...بعدين أنت شـــو دخل أهلك، أنا حرة» من الصعب جداً أن تقول هذه الكلمة في مطار تل أبيب فلشـــدة التفتيش والتحقيق الذي تعرضت له شعرت إنـــي ذاهبة إلى غوانتانامو وليس إلى باريس، كاد بركان ينفجر في داخلي. كنت لا أريد الابتعاد عن والدتي وفي الوقت نفســـه بقيت لي

لحظـــات معدودة في هذا المطار علي بعدها أن أرافق المجندة إلى باب الطائرة. من هنا بدأت رحلتي.

لم أشعر بمرور ســـاعات الرحلة الأربع التي استغرقتها بالتأمل في مصير أســـرتي ووفاة والدي. لم أفكر كثيراً في المستقبل. كنت أخشـــى أن يتقدم الزمن. وأن أخسر المزيد من أحبتي.

كنـــت لدى وصولي إلى باريس هذه المرة امرأة أخرى وكانت هي أيضاً مدينة أخرى. تراجعت عندي تلك الحماســـة التي وسمت زيارتي الأولى، إلى حد أنني صرت في الفترة الأولى شـــبه منعزلة. فقدت الرغبة في الخروج أو التحرك كانت هواجســـي الكثيرة تستنفد قواي وتحد من انطلاقي.

من حســـن الطالع أنني تعافيت بعد شهور ثلاثة وتأقلمت بعدها مع المـــكان ومن ثم قررت أن أفتح صفحة جديدة في حياتي سميتها... باريس.

تجتمع في عاصمة الفرنســـيين الحضارة والثقافة والأدب بشـــكل غير معهود. فللثورة الفرنسية آثارها التي رسمت معالم المدينة إلى الأبـــد حتى صارت تجلس على عرش أوروبا، متحدية القول إنها شـــاخت وصارت عجوزاً. باريس بلزاك وفولتير وموليير، جان جاك روســـو، باريس هيغو وسارتر، سيمون دو بوفوار وكامو، باريس هؤلاء وغيرهم كثر لا تشـــيخ ولا تصاب بمرض فقدان الذاكرة.

ثقافة الفرنســـيين صارت جزءاً من كياني وتدخلت بروعتها في تشـــكيل جزء من تفكيري، أصبح كل ما هو فرنسي الطابع وباريسي النكهـــة يعجبني، حتى الأفلام التي صورت في باريس أو تلك التي تنطوي على مشاهد ســـريعة كلها تجتذبني. أشعر أنها تمس جزءاً من حياتي وتوقظ ذكريات جميلة عشـــتها بفرحها وبؤسها وجمالها

وبشـــاعتها. في باريس تعرفت إلى نفسي أكثر، واستطعت أن أتصالح مـــع ذاتي وأن أحلم وأن أهزم، فيها اكتمل نضجي.

روائع الأدب الفرنسي

كنت وما زلت قارئة نهمة منذ سن الثامنة وتعرفت إلى الكثير من الأدباء والشعراء العرب والعالميين. أشكر والدي الذي زرع في حب الاطلاع وصديقه الذي طالما ساعدني في اختيار الكتب ومن بينها مؤلفات فرنكوفونية كثيرة مترجمة لذا اندفعت لقراءة روائع الأدب الفرنسي مترجمة مرة وباللغة الأم مرة أخرى. استمتعت هذه المرة بجماليات اللغة وتحررت من «استبداد» المترجم. شعرت أنها قراءتي الأولى وأنها الأقرب للحضارة وللمفهوم الكينوني الذي يقف وراء سؤال كيف تكون فرنسياً. لقد استمالني ثراء وجاذبية هذه الحضارة وحملني على الغوص في تاريخها الغني والعميق.

تمكنت في السوربون عبر دراسة اللغة والحضارة من الغوص بعمق في المفاهيم والأشياء. اختلفت نظرتي إلى أمور كثيرة. كانت سلاسة الطروحات ومتعة المواضيع وحدة النقاش تجعل الوقت يمر بسرعة. لم نكن نشعر إلا والساعة قد جاوزت الرابعة حيث موعد الذهاب الثابت لاكتشاف المدينة على الأرض.

كنا عشرين طالباً وكنت الفلسطينية الوحيدة. كان زملائي من الصين، اليابان، هونغ كونغ، المكسيك، ألمانيا، أستراليا، روسيا، الولايات المتحدة، إيطاليا. كان صفنا أشبه بهيئة الأمم، هنا علي أن أشير إلى أنني كنت قبل سنوات قد درست العبرية وأكملت السنة التحضيرية قبل دخول الجامعة للحصول على البكالوريوس، واستطيع التأكيد بعد التجربة والمقارنة أن الدراسة هناك متنائية تماماً عن الدراسة في باريس. كان المنظور التاريخي للتوراة هو السمة الغالبة على المحاضرات العبرية،

والعادات والتقاليد لا وجود لها وهي في الأغلب تقتصر على فئة المتدينين المتزمتين، فالشعوب فاقدة الحضارة والتاريخ نصوصها كئيبة وغير جديرة بالعرض على الآخر المختلف. شتان ما بين الجامعة العبرية والسوربون.

في باريس تعلمت الحياة وعشت الحرية وأدركتها بكل معانيها. كانت سمة البساطة هي الغالبة على الحياة بشكل عام وتحمل المسؤولية بشكل خاص، بخلاف الحياة والدراسة في القدس التي كانت أكثر تعقيداً وأبعد عن الحرية. في القدس جندي في كل شارع ونقطة تفتيش في كل زاوية. كان الوصول إلى الجامعة العبرية يتطلب ساعتين صباحاً جراء أزمات السير الخانقة التي تسببها الحواجز ونقاط التفتيش الفجائية (أو الحواجز الطيارة كما يسميها الفلسطينيون)، مع أن المسافة بين الجامعة والمنزل في القدس أقرب من المسافة بين السوربون وضاحية «بانتان» حيث كنت أقطن في شمال باريس.

ملاحظة أخرى ما انفكت تلح علي طوال إقامتي... في باريس لا يتعرض الطلاب لتفتيش أمني صباحاً أو في أي لحظة كما في الجامعة العبرية حيث كنا مجبرين على المرور مع كتبنا يومياً عبر بوابة إلكترونية. الأفظع من ذلك كله أنني قبل أشهر من السفر إلى باريس كنت قد سجلت في جامعة بيرزيت (قرب رام الله) لبعض المتطلبات الدراسية، كان على الطلاب جميعاً الخروج في الصباح الباكر قبل حوالى ساعتين أو ثلاث ساعات من نهاية الدوام لأن حاجز «سردا» الإسرائيلي في الانتظار علماً ان المسافة بين رام الله وبيرزيت لا تستغرق أكثر من 20 دقيقة والمواصلات منتظمة على الخط لكن الحاصل أنه بعد اغتيال رحبعام زئيفي على يد مقاومين فلسطينيين تشرين الثاني/نوفمبر 2001، قامت السلطات الإسرائيلية بإغلاق كافة المداخل المؤدية إلى رام الله وهذا جزء من سياستها المعهودة بالعقاب الجماعي. كانت بداية حصار أبي عمار في المقاطعة وكنا مضطرين للنزول عند حاجز سردا والسير على الأقدام مسافة 2 كيلو متر لأسباب أمنية والركوب مجدداً في الباص للوصول إلى الجامعة.

في القدس الطريقة الوحيدة للوصول إلى الجامعة هي الحافلات الإسرائيلية. فالركوب في الحافلات العربية المتوجهة إلى العيسوية يعرض الطلاب إلى تفتيش وتحقيق أمني مضاعف، ما يحملهم على الركوب في الحافلات الإسرائيلية التي ازدادت مخاطرها في ذلك الوقت إذ كانت عرضة للعمليات الاستشهادية. وكان الركوب فيها أشبه بمغامرة مروعة لدرجة أني كنت أشعر في بعض الأحيان أن المقدسي هو ضحية مرتين، فقد يكون ضحية لإحدى العمليات الاستشهادية، وقد يتعرض للقتل على يد أحد المتشددين اليهود لمجرد أنه فلسطيني أو عربي. أما في باريس فقد كانت 35 دقيقة كافية للوصول إلى الجامعة بهدوء ومتعة رغم إصراري في لاوعيي على عقد هذه المقارنة اليومية بين المدينتين والجامعتين.

اليمين المتطرف

أعتقد أن أجمل ما يمكن أن يقع لطالب فلسطيني هو الدراسة في باريس. فكل ما يجده الباريسيون معقداً مملاً متعباً مزدحماً هو بمثابة نعمة كبيرة للطالب الفلسطيني الذي يصادف كل شيء مرتباً ومنضبطاً بموعد. في باريس الزمن سريع ولا يهدر بالوقوف أو الانتظار ساعات... وهو عمر ضائع حسب تعبير أحد الفلسطينيين الذي كان يتحدث لسائق سيارة تقله في الطريق بين رام الله والقدس قائلاً: «بتعرف شو. إحنا الفلسطينية لازم لما يعملو حساب قديش الإنسان بيقضي من عمره نايم أو بياكل أو بيشرب لازم يضيفولنا شيء حصري هو قديش منقضي من عمرنا على الحواجز».

درست في جامعة باريس الثانية وتزامنت دراستي مع مرض أبي عمار ورقاده في «مستشفى بيرسي العسكري»، لم يكن حظي سعيداً في حياة الجامعة الطلابية. كان الطلاب العرب في جامعة «بانتيون - أساس» وهي معقل اليمين الفرنسي المتطرف يخوضون صراعاً يومياً مع ميليشيا «البيطار» الصهيونية المتطرفة أو طلاب اليمين

الصهيونـــي المتطرف الذين كانوا يهيمنون على الجامعة هيمنة تامة إلى حـــد القدرة على تحطيم وتمزيق ملصقات التعاطف والداعية للتظاهر أمام المستشـــفى المذكور تضامناً مع أبي عمار دون الخشية من ردود فعل الإدارة أو الشـــرطة. كانوا يتصرفون كما لو أنهم في مستوطنة إسرائيلية يزيلون الشعارات ويمزقون كل ملصق يذكر بفلسطين، يلاحقون الطلاب ويفتعلون المشـــاكل إنهم أشبه بطلاب الجامعة العبرية نهاية التســـعينات الذين كانوا ينتقمون من الفلسطينيين بعد كل عملية فدائية، وهم يصرخون الموت للعرب... «بيطار باريس» وصهاينة الجامعة العبرية اســـتراتيجيتهم مبنية على إلغاء العرب في فلسطين وفرنسا وكل مكان.

ليســـت باريس المدينة الفاضلة لكنها مدينة مثالية للعيش، والحكم ليـــس محصوراً بالرفاهية أو نمط الحياة بل لأن كل ما فيها ينبض حيوية: الأمكنة والناس والحدائق والمســـارح والمقاهي والساحات والمتاحف.

وليس الحكم قاصراً على معالمها فهي شبكة من المعالم ولكل معلم رواية بل تاريخ. من باريس الحيوية تنظر بألم إلى مأساة القدس التي تتحول إلى مدينة أشباح بعد الرابعة عصراً فلا حياة في المساء. تخالها غير مسكونة مُقْفِرَة العصر في القدس الشرقيّة والبلدة القديمة بالتحديد هو ساعة تبدّد الضجيج إلى الهدوء، وازدياد مساحات التأمل، فلا تعرف نوع الهدوء المخيّم على تلك الحجارة، هل هو ما قبل العاصفة أم ما بعدها، أم أنّه العاصفة بعينها؟ في هذا الوقت كل شيء مغلق، وأنت تمشي بين الأزقة، تماماً كمن يحاول أن يفك رموز المتاهة. كل شيء يستوقفك للتفكير، لكنّك لا تكترث وتمضي غير عابئ بحجر إلى آخر، بقصة إلى أخرى. السير ليلاً بين أسوار البلدة القديمة يشبه التنقل بين ملامح لوحة انتزعت منها الروح وبقي الجسد. مشهد يشي بحزن قاتل، فالبلدة حزينة ومتعبة، كل ما تبقى منها هو الحجارة وكل حجر يكاد ينطق بقصة لكنه

أصم لا يفعل بل لا يهمس حتى بأذنك. في هذه المدينة أسوار ومعالم شيدت قبل مئات السنين لكنها هودت أو تعبت من الدهر لطول الإهمال والمعاناة من مآسي القدس والمقدسيين.

بعد أشهر من وصولي إلى باريس ذهبت لاستقبال أول الوافدين إليها من الوطن. دوري لم يقتصر على الاستقبال مع أنني أصبحت بمرور الوقت أشبه بدليل سياحي استقبل الوافدين لزيارة عمل ليوم أو يومين، أو للإقامة بضعة أشهر. لم تعد حياتي تقتصر على الدراسة والأبحاث والعمل، فقد صرت حلقة وصل مفيدة للوافدين من أجل إنهاء أعمالهم أو دراستهم، وكانت جولاتي معهم تساعدني على اكتشاف المزيد من باريس في باريس. في كل مرة كنت أواجه تحدي معرفة المدينة التي كانت تزداد مع كل زيارة، ليس بمعالمها ولا بتاريخها وإنما بأسرارها. فالمدن الجميلة الحية غنية بأسرار لا حصر لها ولعل في ذلك سر جاذبيتها.

تعودت منذ وصولي أن أغامر يوم السبت بالركوب في حافلة في كل مرة تحمل رقماً مختلفاً وأن أنزل في منطقة لا أعرفها لاكتشاف المكان بمعالمه وشوارعه الصغيرة الضيقة، وأحياناً كنت أتخيل أحياء المدينة مجتمعة في صندوق مفاجآت أغامر بفتحه في كل زيارة عشوائية لأعثر على ما يدهشني ويزيد في دهشتي ويزيد. أما جولاتي مع الوافدين الجدد بعد أن صرت دليلاً من «بلدياتهم» فكانت تبدأ من برج إيفل لتنتهي بالسان ميشيل أو العكس، مروراً ببقية المعالم التاريخية من قوس النصر والقصر الملكي، وفي كل مرة كنت أرشدهم دون أن أفصح عن باريس التي أحب أي مدينتي الحميمة التي حرصت على حفظها في زاوية خاصة في ذاكرتي.

لســـت دليلاً سياحياً لكن الظروف قضت بأن أصحب أصدقاء ومعارف في جـــولات مماثلة في القدس. كانت الجولات تقتصر على المدينـــة القديمة فقط، ليس لأني لا أعرف غيرها من المدن لكن لأن

سياســـة الاحتلال والتمييز العنصري جعلت من لون هويتي الأزرق مميزاً من حيث الشكل والقالب والمضمون؟

والجواب طويل ومعقد. فالهوية زرقاء اللون تعني أني مقدسية لا يحق لها السكن والعيش أو الدراسة أو العمل أو الزواج أو الغياب عن المدينة المقدسة أكثر من 3-4 سنوات متواصلة وإذا خالفت كل هذه الشروط فسأفقد هويتي إلى الأبد، ولن يسمح لي بالدخول إلى دولة إسرائيل إلا إذا حصلت على جواز سفر أجنبي والأفضل أن يكون من دول حليفة أو صديقة للدولة العبرية. قد يقرر جندي في المطار أو على جسر اللنبي (على الحدود الفاصلة مع الأردن) أنه لا يحق لي الدخول لأسباب أمنية رغم الجواز الأجنبي أو أن وجودي يشكل خطراً على دولة إسرائيل، فأمنع وأحرم من الدخول إلى أرضي وبلدي والإقامة في منزلي.

حجارة صماء

ولعل الفائدة الوحيدة لهذه الهوية الزرقاء هي في تســـهيل المرور والحركة على الحواجز الأمر الذي يســـعد أصدقائي في الضفة ممن لا يســـتطيعون الوصول إلى القدس والممنوعون من زيارة أهلهم وأرضهم ومقدســـاتهم إلا بتصريح لا يصدر في أغلب الأوقات. هؤلاء يعتبرون هويتي نعمة وأنـــا أعتبرها نقمة لأنها فرقت الأحبة ومنعت التواصل الأســـري، وجعلت المقدسيين عبيداً لهذا اللون ومنهم من باع ضميره وشـــرفه وأفسد حياة الآخرين بالإبلاغ عن أقاربه وجيرانه عله يصبح من المرضي عنهم لدى الســـلطات ويتخلص من الملاحقات.

أسعد حقاً بوصول أصدقائي من الخارج فأصحبهم إلى القدس للزيارة والتعرف إلى طبيعة المدينة المعقدة المركبة والمميزة. يأتون إلى قدسي أنا، إلى حيث كان والدي يصطحبني في جولاته، عندما كانت الأوضاع أقل تعقيداً، يوم كانت مدينة رام الله تبعد عن القدس خمس

عشرة دقيقة وليس 15 ساعة. لقد أفسد الزمن القدس وهجر أهلها وقلب حالها رأساً على عقب، فلم تعد قدساً ولا السكان مقدسيين. كل شارع فيها يروي حكاية لكنه الآن بالكاد يروي هذه الحكاية ويستعيد الزمن الجميل. يبدو أن المعادلة هنا طردية فكلما تطورت المدينة أقصد بنيتها التحتية يتسع الفراغ فيها وتكبر المسافة التي تفصل بينها وبين السكان، وذلك ليس لأننا نكره التطور أو التقدم، بل لأن التطور والتقدم ليسا لمصلحتنا لأنها جزء من سياسة تهويد شاملة وتغيير معالمنا، حتى إذا انتهت المفاوضات التي يبدو أنها ستكون أبدية ويبدأ الفلسطينيون بالمطالبة بالأحياء والمواقع والمباني التي هي بالأصل عربية: سيكون الجواب لم يبق لكم شيء. هذه هي القدس اليوم تائهة ضائعة، هويتها الفلسطينية إلى انقراض لكنها ترفض هويتها الإسرائيلية وكل ما يفرض عليها.

تطورت جولاتي الباريســـية لتصبح أكثر حميمية بمرور الوقت لم أعد أســـتقل الباص. أصبحت أمشي أكثر لأكتشف أكثر. ليكون لمغامرتي طعم آخـــر، أصبحت علاقتي بباريس أكثر قرباً بعد أن عثرت على حريتي، وعلى مســـاحة لأتصرف على سجيتي وطبيعتي لا تتوافر في أي مـــكان آخر بدون أي تعقيدات أو خوف من المجهول، كانت خطواتي لا تعرف الملل وبرنامجي حافلاً ولم أقلق يوماً مما ســـيكون، بين كاتدرائية نوتردام ومعهد العالم العربي. كان لقاء الأشـــخاص من جنســـيات مختلفة ممتعاً وغنياً بالمعاني والتجارب هنا تملأ المكتبات باختصاصاتها وبتنوع كتبهـــا واختلاف مالكيها. ترددت إليها بانتظام لكن مفضلتي بينها مكتبة المتوســـط لصاحبها بشير هلال المبتسم دائماً (فجعنا أخيـــراً برحيله الهادئ وغير المتوقع) والهادئ المحيا وكان ترحيبه الخاص حرياً بأن يشـــعرك أنك في المكان المناسب، وكان بإجاباته عن كل كتاب في المكتبة مقنعاً لشـــراء أفضل الكتب واقتناء أهم القواميس.

كان بشير يملأ الأجواء بأسلوبه الساخر. في حضرته تسرح وتتأمل وتتخيل لكنه لا ينفك يعيدك إلى الواقع المرير المستمد من الحالة العامة في البلدان العربية. كان يتحدث بمتعة عن الكتب وبمرارة وألم عن الواقع، وكانت الأمسيات الثقافية التي ينظمها ويديرها واللقاءات مع الأدباء والكتّاب الذين يترددون إلى مكتبته فرصة للنقاش وتبادل الآراء والاطلاع على قضايا عالمنا العربي المأسوية.

قدســـي أنا هي «كان ياما كان في قديم الزمان» مدينة جميلة يحيطها ســـور على امتداد كيلو متر مربع بناه السلطان العثماني ســـليمان القانوني لحمايتها من الأعداء ولصمودها خلال الحروب، وفي عام 2002 بنى أريئيل شـــارون رئيس وزراء الاحتلال خارج السور جداراً أكبر وأطول على امتداد محيطها كما تريده إســـرائيل. هذا الجدار فصلها عن محيطها الفلســـطيني والعربي وعزلها كما يعزل السجناء في الســـجن الانفرادي ومنع الجميع من الدخول إليها، هذا المنع جعلها تحتضر.

الحب والاحتلال

كان فيها ســـكان فلسطينيون: مسيحيون ومسلمون، أرمن ويهود. كانوا مرة جيراناً عاشـــوا أجمل أيامهم وعاشوا ذكرياتهم. كانوا أكثر من أصدقـــاء، لكن المؤامرة كانت أقوى من أن يبقى الوضع هادئاً وبدأت مرحلة جديدة مريرة اســـتنزفت المدينة قواها وساكنيها.

واصف جوهرية الموســـيقار والملحن الفلسطيني المقدسي عاش أجمل ســـني حياته في القدس وكتب وأرّخ أهم الأحداث السياســـية والاجتماعية والاقتصادية على امتداد الفترة الزمنية بيـــن 1918-1972، بين الحكم التركي والانتداب البريطاني وصولاً إلى الاحتلال الإســـرائيلي حين هاجر إلى بيروت ومات ودفن فيها.

في مذكراته «القـــدس العثمانية في مذكرات الجوهرية» و«القدس الانتدابية في مذكرات الجوهرية» ، يصف الموســـيقار الفلسطيني ليالي القدس التي كانت تشـــهد صخباً وترفاً ومتعة، ضاجة بالشعراء والكتّاب والفنانيـــن المطربين والممثلين. وكان الأمراء والحكام الذين يزورونها يدخلون من أبوابهـــا المفتوحة للجميع ومنهم من أحب الســـكن فيها ومن زارها ليقدم أعماله على مسارحها وفي سينماتها. في ذاكرة المدينة كان المقدســـيون كغيرهم من البشر يحاربون ويســـالمون، يخرجون ويتنزهون، يسافرون ويتعلمون، يعشقون ويتزوجون، لكن الزمان ما عاد زمانها. ســـكانها أصبحوا أكثر تزمتاً وأضيق أفقاً، أشـــبه بالمتاحف ما عادوا منفتحين على العالم، فهم يحســـبون ألف مرة قبل التحقق من أن الطرف الثاني يحمل الهوية الزرقاء لأنه إذا اتضـــح غير ذلك فإن القصة من أولها إلى آخرها غير مجدية وتســـبب المعاناة للطرفين وتأتي بغير فائدة. فالحب وحده لا يكفي للتغلب على الاحتلال.

قدس اليوم ليست تلك العريقة الآنفة الذكر، فكل يوم يمر عليها يحمل تغييراً في شوارعها فتختفي معالمها ويزداد ضيق سكانها.

في قدس اليوم تزور الشـــركات السياحية الإسرائيلية تاريخ المدينة خلســـة إذ تقوم باصطحاب السياح بعيداً عن السكان العرب وتلقنهم المعلومات التي تريدها وتمنعهم من التبضع من الأســـواق العربية بحجـــة الخوف على حياتهم والحفاظ على أمنهم.

كلما تجولت في القدس القديمة ألمح كلمات واصف جوهرية وأستعيد فصولاً من مذكراته لأربطها بالواقع الذي تعيشه المدينة حيث يستنزف الإرهاب النفسي والجسدي آخر ما تبقى من ذوق وأخلاق. الواقع الممزوج بالمخدرات والحشيش والتهريب والدعارة والإيدز لا يصدم السكان وحدهم فحسب وإنما زوار المدينة ويبعث على ضيقهم وتبرمهم.

يحمل الســـائح بعد زيارة المدينة المقدسة، هدايا تذكارية تعود إلى المدن الفلســـطينية كافة فضلاً عن بيت لحم وضواحيها وكذلك الأواني الفخارية والخزفية التي يشـــتهر بها الأرمن. للوهلة الأولى تبدو الصور كأنها تدعو الســـائح إلى أن ينسى المشهد الخارجي ويعيش جمال اللوحة التي خطتها ريشـــة رسام عاش في زمن غير هذا الزمن ومكان كان يوماً أشـــبه بالقدس لكن الأواني على بساطتها تطيح بالدعاية اليهودية وبالإنـــكار اليهودي لهوية المدينة العريقة.

بين اللوفر و أورسيه

في المقابل لا تبتعد الملامح الباريســـية عن عطر الزمان والمكان. فكل لوحة أو ميدالية أو تمثال هي مجســـم لكل معلم من معالم المدينة أو شـــارع من شوارعها لا يمكن أن تقوم السلطات الفرنســـية بهدمه أو تغييره جذرياً لتدعي أنه يمثل شيئاً غير الذي كان، لأنها تعلم أن الزوار يتعلقـــون بطراز تلك المباني التي تميز باريس من غيرها من المـــدن الحديثة. فكل ركن فيها يحمل ذكرى أو حدث معين ســـاهم في وصول المدينة إلى ما هي عليه في مكانة تاريخية وجمالية فريدة.

أحب شـــارع «موفتار» في الحي اللاتيني بصورة خاصة تفوق محبتي لشوارع أخرى فللشـــارع نكهته الخاصة في نفسي هي حصيلة تجوال في زواياه والأزقـــة المحيطة به والتردد إلى مطاعمه وحاناته إلى أفران الخبـــز والحلويات مروراً بأفضل صانع كريب وصولاً إلى ساحة «كونترسكارب» التي أعشـــق مقاهيها ومطاعمها في كل الأوقات خلال النهار وفي ســـاعات المساء ومنها انطلق عادة إلى نهاية الشـــارع التي تنفتح على ساحة «سان ميدار» حيث السوق المفتوحة.

وكنت أتردد من شـــارع « موفتار » إلى ملاذي الأمن على ضفاف نهر الســـين في جهة جسر«بون دي زار» أو لجهة «رصيف نوترودام» خصوصاً فـــي ليالي الربيع والصيف، على هذه الضفاف كنت أختلي بنفســـي أو أستمتع بمشاهدة الفن الرفيع.

أما متحف اللوفر القريب أيضاً من المكان فلم يجذبني بقدر جذبه للسياح والعابرين وذلك رغم استمتاعي بالآثار الفرعونية والشرق أوسطية، بخلاف متحف «أورسيه» الذي ترددت إليه مراراً لأتمتع، بالأعمال الرائعة لأجمل رسامي الحقبة الانطباعية. فيه كانت أجمل الصور الفوتوغرافية وأندر القطع والتحف. كان أشبه بصندوق مجوهرات في كل مرة اكتشـــف فيه قطعة نادرة لا تقدر بثمن. ربطتني بهـــذا المتحف منذ الزيارة الأولى علاقة خاصة مع أنها كانت ذات يوم شـــتوي ماطر وبارد لكن دفء المتحف وسحره طغى على الضوء القاتم الذي كان ينفذ من زجاج النوافذ العلوية. كانت اللوحات وألوانها الساحرة تطلق أشعة تجذبني بهدوء وتدعوني لأقف أمامها ساعات طوالاً في متعة لا تضاهى، تفتح شـــهية العقل والقلب والبصيرة. أتخيل ريشـــة رينوار أو مونيه أو فان غوخ وهي تضع اللمسات الأخيرة على اللوحة تلك الضربات المحببة للريشة التي تمزج الألوان الصارخة بواقعية المشهد.

كانت تبهرني لوحـــات البورتريه من حيث الدقة في التعبير وغناها بالتفاصيل الصغيرة قبل أن تولد الكاميرا وتنقل بكبســـة واحدة انعكاس الألوان والخـــوف والقلق في الوجوه وتلك النظرة الباردة التي كانت تتكرر في أغلـــب البورتريهات، كانت تحفزني على البحث أكثر عن معانيها.

في هذا المكان أقف خاشعة أمام عظمة فن اللوحة، وأتساءل هل نتمكن يوماً من منافسة لوحات مونيه، رينوار أو فان غوخ؟ هل سيولد

فنان عندنا توضع لوحته إلى جانب «Le Bal du moulin de la Galette» أو «Nuit étoilée sur le Rhône» ، لفان غوخ. فكما نحن بعيدون عن واقعنا ووجوديتنا أمسينا بعيدين عن الفن الراقي والإبداع. همشنا مواهبنا استهزأنا بالكلاسيكيات. أردنا أن نسبق عصرنا إلى عصر آخر لم نصل به إلى النشوء الصحيح. لم نتطور بالشكل السليم كمجتمعات لنصل إلى مرحلة الارتقاء، نسبق بها مرحلة فنية كانت نتيجة للخروج من عصور الظلام إلى التنور، ولأن الفن هو ما نشعر به أي ما يوقظ فينا مشاعر لم نكن على علم بوجودها ترانا نبتسم وننتقل إلى لوحة أخرى.

في باريس لا وجود لذلك الكم الهائل من المنظمات غير الحكومية التي تعتمد على التمويل الخارجي، بأعداد تفوق المتوقع إذ يبلغ في القدس ألف ونيف في محيط لا تتعدى مساحته بضعة كيلومترات منها ما هو قائم لأهداف ومصالح شخصية ميزانيتها تقر بحسب التمويل المطلوب. فالعرض المقدم من قبل هذه المنظمات يشمل حتى فاتورة الدخول إلى الحمام وشراء مزيل الرائحة حتى أن بعضها لم يعد يوظف غير خريجي اللغة الانجليزية بسبب سرعة وسهولة كتاباتهم للعروض. عدد منها يعمل للمصلحة العامة وعلى تطوير وبناء وإصلاح ما دمره الاحتلال لكن للأسف الأغلب قد استغل التمويل لمصلحته الخاصة وتطوير أوضاعه الاقتصادية ومدخوله الشهري. والأشد قسوة أن اللعبة لم تنته عند هذا الحد فالجهات الممولة لم تعد تمول المشاريع المفيدة بل شجعت الفلسطينيين على الكسل وقلة الإنتاج وأخذت تمنح لمشاريع وهمية سبعون بالمائة منها يصرف على ورشات العمل التي لا تقدم ولا تؤخر ومؤتمرات في الغالب تنتهي بغداء وعشاء وزيارة ووفود.

في هذه السوق إن جاز القول تكثر الرعاية والاهتمام بالخبراء الأجانب الذين تسببوا برفع الأسعار واحتلوا الوظائف المرموقة ويتقاضون ثلاثة إلى أربعة أضعاف الراتب الذي يتقاضاه الموظف المحلي الذي تنهكه ساعات الانتظار عند الحواجز ويعرض نفسه للخطر.

هنا يستقبل الأجنبي ليكون خبيراً دون اكتراث لخبرته وماضيه المهني وتجربته العملية حتى أننا لا نسأل أنفسنا إن كانت خبرته تتلاءم والبيئة الخاصة التي نعيشها. المهم أنه يحمل «لاب توب» ويضع نظارة في كثير من الأحيان. نحن نعاني عقدة الأجنبي فهو بنظرنا يفهم أكثر ولديه خبرة أوسع حتى لو كان يعمل في «محلات الوجبات السريعة الأميركية الذائعة المشهورة» في بلاده... المهم أنه يحمل جواز سفر أجنبياً علماً أن العديد من الدول التي شهدت نهضة في القرن الماضي استعانت بكفاءات فلسطينية ساهمت علمياً واقتصادياً في بنائها. لذا يؤلمني ما يحدث هنا في القدس، فعلى الرغم من الاحتلال ومن محاولة بناء المؤسسات والبنية التحتية، تأتي منظمات تستخف بقدراتنا وكفاءاتنا. شبان ناضلوا وأمضوا سنوات من عمرهم يعملون بكد من أجل الحصول على شهاداتهم وخبراتهم، وفجأة يأتيك من يحتل مكانهم وتصبح شهاداتهم وتجربتهم غير ذات جدوى، ومن ثم يسكنهم اليأس فيبادرون إلى السفر والغربة، وكأن البلد تنقصه هجرة في الاتجاه المعاكس.

باريس أقرب من غزة

لم أشعر طوال سنواتي الباريسية بالتمييز. كنت أشعر أن الدوائر والوزارات الفرنسية تقدم لي التسهيلات كافة وأن لدي واجبات وحقوقاً كما للفرنسيين. صحيح أني كنت طالبة أجنبية لكني كنت أفكر دائماً ألست « أجنبية » أيضاً في القدس؟ فإسرائيل تعاملني أيضاً كأجنبية تحصل مني الضرائب والتأمينات، لكن لا حقوق لي أبداً وعلي أن أصمت وأن لا أعترض أن أدفع وأن لا أطلب شيئاً في المقابل، وأن أحاول أن أثبت وأبرر دائماً أن لي الحق وفقاً لقوانينهم العنصرية وبفضل إقامتي التي تمنح للمقدسيين. هويتي تحمل تاريخ انتهاء وجملة مقيتة تقول إنني مقيمة موقتاً في مدينة أجدادي الذين ولدوا وعاشوا وتملّكوا قبل

أن تقام هذه الدولة بمئات السنين. للوصول إلى القدس كنت بحاجة إلى فيزا تعطيني حق الدخول إلى فلسطين المحتلة، في حين كان حصولي على الإقامة الفرنسية إنجازاً أقل ما يقال فيه أني لم أكن مضطرة للتبرير والإثبات.

لم أشعر بالملل على الإطلاق في باريس فكل يوم نعيشه يحمل في طياته مفاجآت ومسارات يصعب التكهن بها، في باريس نحب الحياة ونندمج في العيش الجميل، في القدس يصعب التكهن بالغد في بعض الأحيان أو أغلبها. فالصورة مبهمة والحياة أشبه بمغامرة يومية تبدأ عند الصباح على الحاجز بساعات من الانتظار لتنتهي عند العودة إلى المنزل بساعات انتظار أخرى.

في باريس كل يوم يحمل في طياته متعة جديدة وتجربة فريدة، وفي بعض الأيام يسود الهم والغم والكرب لدرجة القرف لكن ذلك يتبدد في ساعات الفرح والسمر حيث التقلبات سريعة وقوية وتأتي بغير تخطيط وبدون حساب. هنا في القدس يصعب التكهن بما قد يحدث، الحياة أشبه بمن يغامر بكل أمواله ويستثمرها في بورصة، متقلبة سريعة الصعود وسريعة الهبوط إلى الحضيض.

انطلاقاً من باريس بوسعك زيارة كل المدن المحيطة حتى جزيرة كورسيكا، لكن في القدس لا تستطيع الوصول إلى غزة. نعم غزة التي تبعد ما يقارب الساعتين (79 كيلومتراً)، هكذا شاء الاحتلال إذ من السهل عليك أن تصل إلى باريس ومن المستحيل أن تصل إلى غزة.

نعم أفتقد باريس، أفتقدها ببردها في الشتاء وجحيمها الملتهب في الصيف خلال الموجات الحارة التي تغافلك فجأة، وتغادر فجأة. أفتقد كل فصل من فصولها التي كانت تبدو قصيرة نسبياً بالقياس على فصول طويلة تكاد تتشابه في القدس لا يميزها إلا الملل

وطول الانتظار لمجهـــول يقف متربصاً في إحدى زوايا المدينة لصنع الصدمة المقبلة، لقـــد خلت القدس منذ ٧٠ عاماً من ربيع واحد مبهج. بيد أن إطلالة الشـــمس الأسطورية في كانون الأول تتيح لك الاستمتاع ببرتقالة أو تفاحـــة والإفادة من الضوء والدفء الطبيعي الذي تفتقده في شتاء باريس القارس.

وبعد... أحب باريس لكني مقدســـية كنت وسأبقى في القدس وســـط الحجارة الصماء التي ستنطق ذات يوم مؤذنة بالحرية وطي صفحة الاحتلال.

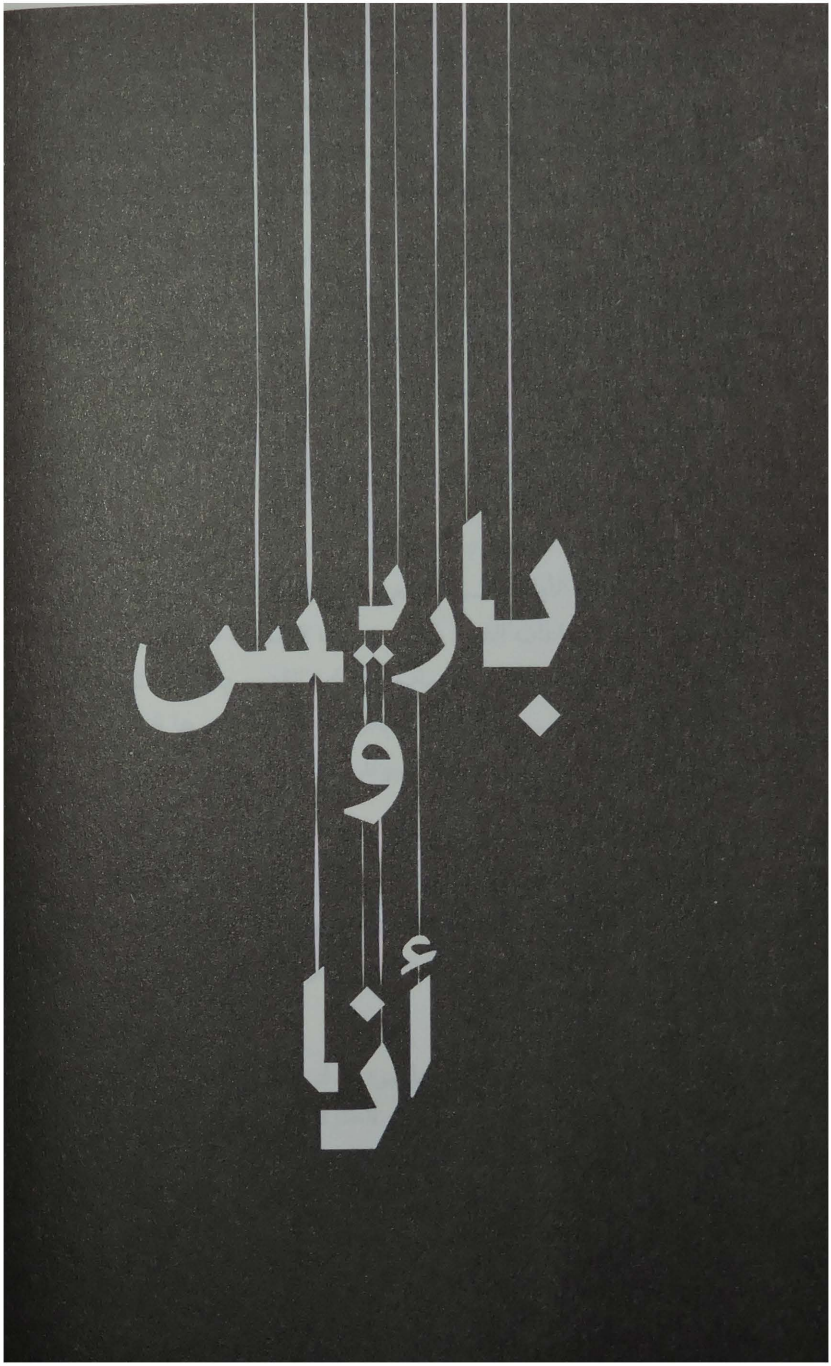

باريس
و
أنا

تضاريس العلاقة الملتبسة

محمد حافظ يعقوب

باحث وكاتب فلسطيني. من مؤسسي الحركة العربية لحقوق الإنسان.
يحمل دكتوراه الدولة في علم الاجتماع من جامعة باريس.
نشر مقالات ودراسات بالعربية والفرنسية في مجلات اختصاصية
وفي كتب جماعية. من مؤلفاته المنشورة بالعربية: العطب والدلالة.
في الثقافة والانسداد الديمقراطي. اللاجئون الفلسطينيون
والسلام. بيان ضد الأبارتايد. نظرة جديدة إلى تاريخ القضية
الفلسطينية(1917 - 1948). الذاكرة والاقتلاع: فالاشا اثيوبيا، التاريخ،
الأسطورة والمنفى. سوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعية.

1

المدينة المَعيشة (وبالضرورة المدنية) أكثر مما هي رواية عن «تجربه(تي)» فيها والمفارقات العديدة التي فيها عرفت. فما يعني القارئ العربي عن باريس هي فكرة المدينة الحديثة (بالمعنى الفلسفي، أي الكلي والعام)، وعلاقات البشر فيها: إنه البعد التنظيمي الذي يجعل للحياة في المدينة (ووجهه الآخر الموت ونظيره) معنى «مدنياً»، أي مفارقاً ومغايراً بالضرورة. وهو في الوقت نفسه المعنى الذي يتصل بالعيش في المدينة بما هي سيرورةٌ تُقَوْلِبُ في التاريخ أولئك الناسَ الذين استوطنوها واتخذوا من حيِّزها ميداناً لآدميتهم. والواقع أن ما هو مشترك في كل مدينة على الإطلاق يكمن في أنها تخلق مواطنيها وتعيد قولبتهم في الوقت الذي يزعم هؤلاء العكس. بيد أن الأمر يتعدى بالتأكيد وكما سنرى هذا البعد الدمجي في الحياة المدينية.

ينظر ابن خلدون إلى السيرورة التاريخية التي تعيد فيها المدينة تكوين سكانها وتطبيعهم بجملة من الخصائص السلوكية والخلقية نظرة سلبية ويصفها بعبارات لا يعوزها الوضوح. المدينةُ هي غاية العصبية وموطن الحضارة ومقر العمران والفن والابتكار؛ غير أنها في الوقت نفسه الحيز الذي تتحلل فيه العصبية وتتبدد، والمنتج لهالك الترف الذي يفضي إلى هالك الذل. الحضارة غاية الدولة بمقدار ما هي وهنٌ وتحللٌ وخُنثٌ، بحسب لغته.

بيد أن ابن خلدون لم يعرف الحداثة، ولم يتسن له معاينة السيرورات التاريخية الكبرى التي عايشتها البشرية الحديثة في القرنين الأخيرين على الخصوص. وهو لم يتمكن بالتالي من معرفة كيف أن طاقة الجذب في المدينة الحديثة أصبحت لا تقاوم. وأرجّح أنه يتعذر سبر غواية مدينة الحداثة من غير سبر جاذبية الدولة الحديثة التي هي مقرها وكرسي سيادتها. لا دولة حديثة من غير مدن تكتظ بسكانها الذين تجذبهم إليها

من الأرياف والبوادي والأصقاع البعيدة. والواقع أن مصدر الغواية أو الجذب في المدينة على العموم وفي المدينة الحديثة على الخصوص لا يكمن في الأضواء والمطاعم والمسارح وغير ذلك من المتع المادية المتوافرة بكثرة في المدينة، بل في كونها لصّت كما يخيل إلي من البشرية حلمها العتيق بالطوبى (اليوتوبيا) وجسَّدتها في فكرتها التي هي فكرة الحداثة الاجتماعية من حيث هي كذلك. وتمثل باريس من غير شك موطن الحداثة من غير منازع لأنها بالضبط مدينة حديثة بالمعنى التنظيمي المعماري، وبالمعنى الذي أكد عليه فالتر بنيامين في أواخر النصف الأول من القرن العشرين ومن قبله شارل بودلير في نهايات القرن التاسع عشر، وهو معنى مدينة الزمن الزائل لأنه الزمن الآتي من غير توقف أو خلل.

2

يزعـــم الاجتماع الحديث أنه يجمع في فكرته وإذن في شرعيته عناصر الحلم البشـــري بمجتمع الوفرة والرفاهية والمتعة، وأنه الاجتماع الذي تتكسر شـــيئاً فشيئاً فيه الحواجز التي باعدت في التاريخ بين البشـــر وفصلت بينهم إنْ على أسس طبيعية/ جغرافية، أو على أســـاس النوع والجنس والعنصر أو الثقافة. هكذا تغدو المدينة الحديثة، بحســـب هذا المقال، المكان الوحيد الذي فيه يُتَقارَبُ بين البشـــر ويُخلط بينهم ويُعاد تكوينهم على أسس ومعايير جديدة.

عني ماكس فيبر أولاً بنمو المجتمعات الحديثة. وهو يؤكد أن البُنى الاجتماعية التي واكبت الحداثة تتسم بتراكب نسقين تمحورا حول المشروع الرأسمالي أولاً وجهاز الدولة البيروقراطي ثانياً؛ وإذ يتداخل النسقان وظيفياً ينجم عن تفاعلهما، بحسب ماكس فيبر، أن تتأسس جملة من الأنشطة العقلانية في مجالي الاقتصاد والإدارة. ومهما يكن الأمر، فإن نمو المجتمعات الحديثة هو الذي أرسى سيرورات تحلل أشكال الحياة التقليدية وتفككها، من ناحية، ونشوء المدن الحديثة التي يمكن اعتبار

باريس نموذجها الصارخ، من ناحية ثانية. وسواء أكانت العقلانية هي التي أفضت إلى الأنشطة التي أدت بدورها إلى ظهور الحداثة الرأسمالية والاجتماع الحديث وتحلل البنى التقليدية وتشكل المدينة الحديثة إذن، أم أن العمليات التاريخية الكبرى هي التي خلقت البنى التحتية التي أرست أسس العقلانية الحداثية، يبقى بيِّناً أن المدينة الحديثة هي المكان الذي مارست فيه الحداثة سطوتها وسلطة جذبها وقدرة أساطيرها على الإغواء. تجسّد فكرةُ المدينةِ فكرةَ الحداثة، وفي ثناياها تندمج أساطير هذه الأخيرة وتعمل في التاريخ.

من المستحسن أن نلاحظ هنا أن الثقافة الحضارية (تمييزاً لها من الثقافة بالمعنى الإناسي/الاجتماعي) هي ما يمكن وصفه بالجو العام الذي يحرك، يشحن، يُفعِّلُ رمزياً المعاني الكامنة في الخبرات المعيشة في الحياة اليومية للناس، ويجعل للأحداث معانيها أو بالأصح يجعل لهذه الأحداث مضموناً رمزياً يتعلق بالجماعة والأفراد على الخصوص. بيد أن الرأسمالية لا تتضمن شيئاً من هذا. إنها لا تعطي حياة الأفراد والجماعات معانيها، ولا تساعدهم على التفسير؛ إنها لا تصلهم لا بالمطلق الكلي ولا بما يعطي الحياةَ (والحركة، والتاريخ) معنى. هكذا لا يمكن الموافقة من غير تحفظ على فرضيات ماكس فيبر وكثيرين آخرين من الذين ساروا على خطاه في بلاد الغرب أو في بلاد العرب، بخصوص أن الرأسمالية هي التي أطلقت الحضارة الحديثة وخلقت شروط تجذُّرها. وفي المقابل ليس ثمة ما يدعم الرأي الذي يقول إن ظهور الرأسمالية جاء تعبيراً عن انطلاقة الحضارة الثقافية. وبهذا الخصوص، من المناسب لفت الانتباه إلى الفكرة التي يؤكد عليها الطلياني فرانشيسكو ألبيروني (Alberoni) في كتابه الممتاز (التكوين) بخصوص أن «ظهور الرأسمالية» جاء، بخلاف ما يقول به ماكس فيبر، «تعبيراً عن تدهور الحضارات الثقافية» (ص 590)، وليس نتاجاً لها، باعتبار أن النواة المركزية في الرأسمالية هي مجموعة من الممارسات والعمليات المنفصلة عن أية قاعدة قيمية. فالغرض الرئيس من الرأسمالية،

وهو الثراء المادي، خاوٍ من القيمة؛ إنه وسيلة محضة. ثم إن الثراء في ذاته ليس فضيلة أو رذيلة؛ إنه وسيلة لهما. ويتعذر مقاومة إغراء الموافقة على ما يقوله ألبيروني بخصوص أن «العالم الحديث، الغربي الرأسمالي، يتصف بواقعة أنه لا يمتلك رسالةً أو أملاً حقيقياً يمكن التبشير بهما» (ص 590).

3

سأوضح الآن الفكرة التي ذكرت قبل قليل بخصوص أن المدينة هي مقر الطوبى والحلم البشري العتيق بمجتمع العدل والمساواة والرفاه والسعادة. وأفتتح بالقول إن تأكيدي على هذه الفكرة هو من أجل الإجابة عن المساءلة حول كيف أن المدينة تجذب الناسَ إليها وعن السر في هذه الجاذبية. والواقع أنه في وجدان الناس، ثمة بحث عن الجنة في المدينة. بحث مستحيل، لأن المدينة، كما الريف والصحراء والجبل، مع أنها لا تستطيع أن توفر للناس ما يبحثون عنه فيها، تجذبهم مع ذلك، يتكدسون فيها، ويتصارعون على حيّزها القليل، ويشتكون ويتأففون. ولكنهم مع ذلك يفدون. فكيف يمكن تعليل ذلك؟

هناك من يربط بين المدينة والحلم. يقولون إن الناس عموماً والشباب خصوصاً يحلمون بالعيش في المدينة، تجذبهم أضواؤها وضجيجها وصخبها، وخدماتها العديدة. ثمة سهولة في المدينة لا تحظى بها القرية أو البادية والجبل. لكن المدينة ليست جذابة فقط من أجل الضجيج والخدمات. وهي ليست جذابة لأن فيها كما يقول بعض علماء النفس الاجتماعي يتكدّس الناسُ جراء نزوعٍ أو ميلٍ غريزيٍ نحو التقليد، أو جراء «غريزة القطيع». أفترض شخصياً أن المدينة جذابة لأنها تستبطن في فكرتها صورة الطوبى أو مثالها بالمعنى الأفلاطوني للكلمة، أي بالضبط ذلك الحلم القديم، المتجدد أبداً، وجعلته مدينة الحداثة جزءاً من «هويتها» الخاصة.

يطول شرح هذا باعتبار ترابطه الوثيق بما أسميه أساطير الدولة الحديثة والتناقضات البنيوية العميقة التي تنطوي عليها، وسأقتصر هنا على فكرة «الدولة الاجتماعية» أو دولة الرفاه في حركيتها الداخلية وليس فكرة الدولة/ الأمة من منظار العلاقات الدولية وما يسميه الحقوقيون بمبادئ القانون الدولي. وأرجح القول إن الدولة الاجتماعية لصّت من الحلم البشري العتيق فكرة الجماعة الفاضلة السعيدة التي يسودها الوئام والرّفاه من غير تناقضات وتمزقات واقعية أي معيشة، وكان روّجها الأنبياء والثوار والأديان، وأدمجتها في قلب الفكرة المركزية لشرعيتها ولهويتها من حيث هي كذلك.

تشكل ما أدعوه «سرقة الحلم الطوبي» تغييراً حاسماً وخطيراً يلخص ربما فكرة الدولة الحديثة كلها. ففي قلب حركتها الداخلية، وفي سيرورات بنائها خلال القرنين الأخيرين بشكل خاص، كشفت الدولة الحديثة عن خاصيتها المركزية التي تميزها وهي بنيتها التَغوُلية، وأقصد بذلك أن سيرورة بنائها وتحقيقها لذاتها يمر عبر اندغامها في جسد الجماعة التي تزعم تمثيلها والسهر على مصالحها ورفاهها، وعبر اختراقها وعي هذه الأخيرة وانسيابها في ثنايا صورتها لنفسها وللعالم الذي قامت الدولة الحديثة بغزوه كله وباحتلال آفاقه جميعها.

ومن المعروف أن الدولة الاجتماعية أو دولة الرفاه تستند في شرعيتها إلى أسطورتين اثنتين. أولاهما هي فرضية «حيادها المطلق» وما يترتب عليها بطبيعة الحال من تعالي فكرتها أي من صورية أو شكلية فكرتها الدستورية، وثانيتهما هي فرضية العقد الاجتماعي وما يستتبعها من أسطورة تواكبها هي أسطورة أن الدولة هي الضامن الوحيد للسلم الاجتماعي أو الأهلي، ما دام العلم الاجتماعي الوضعي الحديث كله ينطلق من تعريف للمجتمع يقوم على النظر إليه من حيث هو شبكة من العلاقات والمصالح المتداخلة بالضرورة والمتناقضة في آن.

هكذا تلتقي عند هذه النقطة بالضبط التناقضات البنيوية جميعها. فالدولة الحديثة حددت لنفسها مهمتين متعارضتين يصعب جمعهما تحت سقف واحد هما: ضمان العدل في توزيع الثروات الاجتماعية، وتأمين الرفاه الاجتماعي عن طريق توفير الخدمات العامة الصحية والتربوية والترفيهية والمواصلات والمساكن، وضبط حركة السوق والاستهلاك اي سياسة الأسعار والتحكم في التضخم والأجور وسوق العمل (حركة البطالة وبالأصح نسبتها الضرورية)، وفي الوقت نفسه، وهنا يكمن التناقض الثاني، ضمان حرية المبادرة التي هي أساس فكرة المشروع الرأسمالي.
وهو تناقض يشكل مصدراً جدياً من مصادر التوتر تمكنت عدد من النظم في دول أعلى الهرم من امتصاص حدته كما في البلدان الإسكندنافية بشكل خاص وفي المانيا وفرنسا بشكل أقل كفاءة، وذلك عن طريق لعب دور المشرف على التفاوض الدوري بين نقابات العمال واتحادات أرباب العمل، فضلاً عن اعتماد مفهوم لحقوق الإنسان يوفر من غير شك مستوى ما من حرية الحركة والتنظيم والرأي والكرامة.

والواقع أن دولة الرفاه الاجتماعي (أو الدولة الاجتماعية كما يطلق عليها الألمان)، هي بحسب التعريف الذي حدَّته لنفسها، مُنسِّق الحركة وضابط توازنات المصالح المتناقضة بين الجماعات الدنيا وتعاضداتها، وخصوصاً بين العاملين وأرباب العمل. بيد أنَّ الدولة الاجتماعية لا تستطيع أن تفترض في نفسها الأهلية لضبط الإيقاع والصلاحية لضمان التوازنات العامة إن لم تكُ، بحسب المفهوم الذي يؤسس للتعريف الذي سبقت الإشارة إليه، كينونةً متعالية على الجماعة التي يتشكل جسدها منها، أي كينونة تفترض في نفسها الحياد الاجتماعي بين المصالح المتضاربة والمتناقضة التي تقف ما وراء الحركة في المجتمع، من جهة، وأن السلطة الثانية فيها مقننة، أي غير مشخصنة وتخضع للمراقبة والمحاسبة والقيد، من جهة ثانية.

ليست دولةُ الرفاهِ الاجتماعي، بحسب الدستور أو بحسب فكرتها التي تقوم شرعيتها عليها، دولة المجتمع كله إلا لأنها تقف في تلك النقطة التي تتيح لها أن تشرف على المجتمع (من حيث هو واقعة سوسيولوجية أي واقعة مركبة من جماعات وهويات متناثرة ومتعارضة، من ناحية، وواقعة متحولة، أي من حيث هو سيرورة متحركة ومتغيرة لا تستقر على حال، من ناحية ثانية)، وأن تعيد إدماج فئاته وجماعاته الدنيا التي يتشكل منها وقولبتها بحيث ترى الجماعة نفسها وتعكس هويتها أي شخصيتها الجمعية وخصوصيتها في مرآة الدولة وليس العكس. فبخلاف الأسطورة الشائعة والرائجة في كل مكان، ليست الجماعة الفرنسيةُ فرنسيةً لأنها تتحدر من أرومة الأجداد الغال، بل لأن الدولة الفرنسية هي التي تقوم بقولبة جماعاتها وتتولى أمر صهرها وصوغها أي فرنستها وإدماجها في الجسد الاجتماعي الضخم الذي تسيطر عليه.

وبعيداً عن الخوض فـــي تفصيلات تتعلق بقضايا الهُويّة والخصوصية، فهذا لا مجال له هنا، ليســـت الدولة الاجتماعية هي المؤسســـة الوحيدة من بين مؤسسات الاجتماع الإنساني في عصر الحداثة التي تنطوي فكرتها الأولى، أي مبدؤها الذي تســـتند إليه في شـــرعيتها، على تناقض بنيوي لا حل له من داخل فكرتها نفسها. وهي ليست الســـيرورة الوحيدة التي تقف اليوم في عز التحولات الجذرية العميقة التي تقود البشـــرية نحو «الموجة الثالثة» من الحداثة. بيد أن مدينة الحداثة هي التـــي تختزل في الحقيقة فكرة الدولة الحديثة، التي هي دولة الرفاه الاجتماعي، ومن خلالها نصّبت نفســـها على أنها المجتمع المفتوح الذي هو أولاً مجتمع الغد. تجســـد المدينة فكرة الجمهورية، لأنها تُجسِّـــد فكرة أن «الطوبى» ممكنة التحقق في التاريخ.

إن الخروج الكثيف الذي عرفته البلاد الفرنســـية للجماعات المحلية من مواضعها التاريخية، وبالأصح من آليات تجديدها لنفســـها

ولعالمها ولأســـاطيرها بما هي جماعات محلية في التاريخ، والانخراط في آليات جديدة لتجديد الإنتـــاج الاجتماعي للجماعة الوطنية، بمثلها وبقيمها وبأســـاطيرها، تمحور بالضرورة حول الهوية الوطنية الكلية المتمثلة بالدولة المركزية، وخصوصاً حول إعلاء شـــأنها على حساب الجماعات الأهلية وبإدماجها في الســـياق العام. وفي القلب من هذه الهوية تتموضع باريس. فلقد فرنســـت باريس المناطق التي صارت جزءاً من الدولة الفرنســـية في سيرورة من الضم والإلحاق بدأت منذ عدة قرون وربما لـــم تكتمل بعد. إن الذين يقولون إن المدينة هي «معمل» المواطنة وورشة تشـــكل الهويات الوطنية ومعيار تحققها كوطنيات في التاريـــخ لا يجانبون الصواب على الأرجح. ففي المدينة فقط تتشـــكل علاقة جديدة بين الناس هي السلطة؛ المدينة هي مقر الســـلطة والميدان الأول لممارستها، وهي بالضرورة موطن لعلاقات اجتماعية تُرســـيها تراتبية هرمية، من جهة، ومعايير تعبِّر عن سيروراتِ تدامجِ العناصر المختلفـــة للكل الاجتماعي للوطن، من جهة ثانية.

وبظنـــي أن باريس هي، كما يقول جان بيير أرثر برنارد، أرض الطوبى «Paris est un territoire d'utopie» لأنها تجسد، في ذهن الكتاب والشـــعراء والفنانين الذين تعاملوا معها منذ ثورة 14 تموز/يوليو 1789، حلـــم الجمهورية والدولة الحديثة من غير منازع. لكن باريس ليســـت الوحيدة من بين المدن الكبرى التي نُظر إليها على أنها أرض الطوبى. ليســـت المدن الحديثة حلماً معمارياً أي حلماً من الحجارة كما يقول بعـــض المعماريين. المدن الحديثة جذابة لكونها اعتُبرت بالضبط موطـــن الرفاهية والوفرة والعيش الجميل، و/أو الحيز الوحيد لإنجازهـــا والوصول إليها في التاريخ. وفي نظري إن التناقض لا يكمن في أن الناس تجذبهم المـــدن وتمارس غوايتها عليهم، ويحبونها، بل في افتراض أن هذا الحـــب لا ينتمي إلى الهوية ولا يحتل حيزاً كبيراً فيها. وسأعود إلى هذا فيما بعد.

4

ليست الكلمات هي التي تجعل منك في باريس أو دمشق أو موسكو رجعياً أو تقدمياً، مجدداً أو محافظاً أو ما بعد حديث. الكلمات عنصر مركزي في التواصل، لكنها لا تكفي وحدها للإفصاح عن المعاني ولتناقلها بين المتحاورين. لا بد من لغة مشتركة هي بالضرورة لغة المدينة التي تتواصل فيها أو تتطلع فيها إلى التواصل. غير أن واحدة من وظائف الكلمات في المدينة الحديثة، وهي هنا باريس، هي أنها تخفف من نغص العيش فيها أو بالأصح تحوله إلى نغص مألوف و«طبيعي»، وتجعل من متاعب الحياة اليومية شرطاً من شروط الحداثة.

الإقامة في باريس اليوم، أي المدينة الحديثة التي شرعت تفقد شيئاً فشيئاً بعضاً من مركزيتها التي كانت لها في سيرورة فَرْنَسَةِ فرنسا، هي في الحقيقة إقامة في مكان سائل: يتسرب من يديك في لحظة التوهم بامتلاكه. المدينة باريس مكان مراوغ لأن الحيز الذي تتيحه لك هو أولاً الحيّز الذي تكتشف أنك، في وسط الزحام والضوضاء وربما بسببهما، تعيش فيه وحدتك المضاعفة. في المدينة تفسَدُ الكلمات لأن عليك أن تتحدث لغتها المراوغة وأن تستخدم عباراتها التي تخلو من اليقين، كل يقين. هذا يحصن وحدتك وعزلتك لأنك بالضبط منخرط حتى الأذنين في هذه اللغة التي تبعدك عن التواصل. أنت في عزلة مدينية، استراتيجية بالضرورة، لأن تواصلك بلغة المدينة هو إلى الهذر أقرب؛ وهو الذي يضعك أمام مرآة ذاتك ليذكِّرك أنك تخبئ في ملابسك هشاشَتك وضعفَك ووحدتك. أنت في المدينة وحدك لأن الشعور بالعزلة هو بالضبط شعور مديني بامتياز. أنت في الصحراء وقبالة الطبيعة الممتدة أمامك لا يمكن أن تكون في عزلة. أنت لا تشعر بالعزلة وبكآبتها إلا بين الآخرين ووسط الناس الذين يحيطون بك. فإن أقسى أنواع العزلة هي عزلة الذكريات، كما يؤكد مارك أوجيه في كتابه الأنيق «الدار البيضاء» (ص 57)، فذلك لأنك تشعر بالعزلة لغياب التواصل. أنت تشعر بالوحدة حين يكون القريبون منك بأجسامهم بعيدين

عنك. وحين تغدو نظراتك يتيمة وهي ممتلئة بالشخوص والأشياء التي لا تراك. أنت وحيد لأنك غريب بين الناس المزدحمين حولك يعبُرون مثلك الشوارعَ ويحتسون القهوة على رصيف المقهى نفسه مثلك وربما يبادلونك النظرات، ويستهلكون مثلك منتجات عالمية أي لا خصوصية لها. إن المدينة هي المكان الذي يكون فيه غياب التواصل كثيفاً وثقيلاً.

والحقيقة أن المدينة بعامة وباريس بخاصة ليست حيز الحرية إلا في الكلام الطليق. فليس صحيحاً أن إنســان المدينة الكبيرة، الإنسان الغُفْــل في قلب الزحام، هو حر بامتياز لأنه مجهول لا يعرفه أحد ولا يعــرف أحداً كما يقولون. لا تتمثل حرية المديني في كونه مجهولاً من قبل الآخرين، يرى ما يشــاء ثم يذوب في الزحام. مواطن المدينة مستلَب لأنه في أتون معمل يقولبه ويشــكل هويته حتى لو ظن غير ذلك. ثم إنك في المدينة مســتلَب لأنها تفقدك العلاقة الحميمة بالطبيعة، بما في ذلك طبيعتك، وتضعف أحاسيســك تجاهها، وتضعك في حالة غربة عنها. ربما لهذا الســبب كذلك يعوض الباريسيون كمثل غيرهم من أهل المدن ارتياد الحديقة شــيئاً من غربتهم عن الطبيعة. غير أن الباريسي وهو في الحديقة ليس غولدموند، بطل رواية هرمان هسه الذي يتكشف في الطبيعة عن ذاته كفنان أو كمبدع. ليســت الحديقة تعويضاً عن الغربة عن الطبيعة ولا إكســيراً لمعالجة هذه الغربة. كما أن إكراهات المدينة التي تملؤك خيبة وحرماناً تتربص بك وتنتظرك خارج بوابتها. ثــم إنك لا ترى النجوم في المدينة. باريس مدينة بلا نجوم. وربما لهذا السبب كذلك يصر الباريسيون على أن مدينتهم هي مدينة الأنوار.

إن العلاقة بالمدينة، كل مدينة حديثة مهما كانت، هي في أُسها علاقة بالزمن: باللحظات تتسلل من أيدينا دون أن نستطيع اللحاق بها و/أو التحكم فيها. أنت في المدينة من غير وقت. تطارد اللحظات التي تتخطاك وتقهر قدرتك على ضبطها. ليس غير الفنان من يستطيع في المدينة إعادة كتابة الوقت لأنه يتمسك به في اللوحة أو القصيدة وربما في اللحن.

وليس من غير دلالة بهذا الخصوص أن العمال في باريس كانوا إبان أحداث تموز 1830 يطلقون النار على الساعات في الساحات العامة. ويتوقف فالتر بنيامين لدى هذه الواقعة ليرى فيها علاقة باريسية خاصة أو ثورية بالزمن، أي كما لو أن العمال المضربين المتمردين أرادوا، بهذا السلوك، الإشارةَ إلى رمزية تغيير الزمن ودلالاته بخصوص الموت والحياة. في باريس «شمس الأموات لا تغيب أبداً» يقول بلزاك.

وليس صدفة أن مؤلفات عديدة كتبت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن باريس المستقبل، عن باريس الزمن القادم. ذلك ليس لأنها مكان يمكن فيه «استشراف» المستقبل والقادم من الأيام، بل لأنها قبل ذلك موطن ثورة «مغدورة» دائماً تستعيد أنفاسها باستمرار (1789، 1830، 1848، 1870، 1968 الخ) بحثاً عن الطوبى (اليوتوبيا) التي هي الدولة الحديثة؛ وباريس هي كرسي هذه الدولة الحديثة من غير منازع. ومن الجلي في نظري أن فكرة الثورة ظلت حتى «ثورة» 1968، هي الكلمة السحرية التي تملأ الأرواح والمشاعر وتشحذ الهمم وتعبئ الطاقات و/أو الصفوف المناهضة لها. في حين أن الثورة تبدو اليوم، في العام 2010 وقت كتابة هذه السطور كما لو كانت فقدت زخمها وغرقت في لجة الانهيارات العامة التي عرفتها البشرية مؤخراً. الآن تبدو البشرية وأقول تبدو كما لو كانت تريد في مطلع القرن الحادي والعشرين أن تطوي صفحة القرن العشرين باللعنات والشتائم، بما أنها لا تستطيع لا نسيانه ولا تبييض صفحته غير الناصعة. ربما كان تدهور فكرة الثورة من تجليات هذا «التوديع».

من المستحســـن هنا توضيح ما سبق ذكره تحاشياً لكل لَبس. فحين أقول «ثورة مغدورة» فلســـببين. أولهما أنني أنتسب إلى جيل خصَّ عالمُـــه لباريس حضورٌ كثيف. ونحن نعرف أن الأدب الثوري الذي ســـاد الربع الأخير من القرن العشرين كان يتعامل مع الثورة الفرنسية الكبرى للعام 1789 على أنهـــا فاتحة التاريخ الحديث، من ناحية، ولكن

سـرقتها البورجوازية وحرفتها عن أهدافها الكبرى، أهدافها الثورية في المساواة والعدالة والحقوق الإنسانية، من ناحية أُخرى. أما السبب الثاني فلأنني كما قلت لم آت إلى باريس خاوي الوفاض. فقد كنت أحمل في زادي جرعة قوية من الغواية الباريسية التي كانت تشدني نحوها وفي الحقيقة نحو حبها والشوق إلى ارتيادها. كنت «أعرف» باريس و«أعرف» معالمها وأسماء بعض أحيائها بل عدداً من مطارح ذاكرتها الجمعية قبل أن تطأ قدماي أرضها أو أعرف حتى كلمتين من لغة أهلها. ولا يستغربن أحد إن اعترفت أن هذه الغواية زرعتها في روحي وفي باطن وعيي مجموعة الكتابات الشيوعية والماركسية التي كنت في صباي المبكر في دمشق ألتهمها ونتبادلها أصدقائي وأنا تحت المعطف. وأقول «أعرف» لأن هذه «المعرفة» تكونت لدي من خلال الكتابات الماركسية على الخصوص. تفسير هذا يتطلب وقفة لا مجال لها هنا. يكفي أن أشير بعجالة إلى أن كل برنامج ماركس الاجتماعي قائم على قراءة للثورة الفرنسية الكبرى باعتبارها نموذجاً لكل ثورة على الإطلاق. ويعرف المخضرمون من أمثالي من الكهول كيف أن ثورة 1848 وكومونة باريس وغيرهما من مفاصل التاريخ الفرنسي في القرن التاسع عشر شكلت المادة الأولى لتحليل ماركس وإنجلز (ولينين وتروتسكي إلخ). فمن أراد أن يعرف الثورة فليتطلع إلى الكومونة وليعاينها، يقول ماركس والضالعون من رفقائه الأول. هكذا غدت باريس بالنسبة إلي، وفي الحقيقة بالنسبة إلى أجيال كاملة في أرجاء المعمورة من الطامحين مثلي إلى تغيير العالم، قبلة يتعذّر تخطيها أو التعامل معها «بخفة». صارت باريس هوى «ثورياً» يشرح الثورة، و«كتاباً» مفتوحاً فيه تُقرأُ الأسرار والخبايا التي لا تضن باريس بها على الباحثين عنها.

حين وصلت إلى باريس في خريف العام 1983، كان القرن الواحد والعشرون مازال بعيداً في الزمان وقصياً في التفكير؛ ولم تكن انقسامات

العالم واصطفافات قواه قد كابدت الزلزلة التي نعرفها اليوم. وأعتبر نفسي بمعنى من المعاني محظوظاً إذ عشت في هذه المدينة بالذات التغيرات العاصفة التي شهدها العالم في العقود الثلاثة الماضية، ويمكن تسميتها على سبيل الاصطلاح بالانتقال إلى مرحلة ما بعد الحداثة. وحين أفكر اليوم في مشاعري في تلك الأيام أي في ما يمكن تسميته بالطبقة العميقة التي تعضد الفكر وربما تحدد توجهاته العامة، لا أتردد في القول إن لحمة هذه المشاعر هي بالجملة لحمة الجيل الذي أنتمي إليه، ولحمة أهوائه العامة التي وجهت خطاه.

5

أنتمـــي إلى جيل زلزال حزيران 1967. وهو الجيل العربي النظير لجيل 1968 في فرنســـا والمجايل له. كلاهما تمثّل خياراته في التاريـــخ الواقعي، أي التاريخ الذي يجري في الزمان وليس في الرؤوس، خيارات التوافق مع العالم نفســـه الذي يعلن رفضه له والتمرد عليه. كلاهما ســـرعان ما سيكيف حركته العامة، أي السياسية، بحكم الواقعية و/أو بحكم طبيعة الأشـــياء وسنن الأزمنة، مع مجرى التاريخ الذي كان مازال جديداً وقتئذ: التاريخ الذي ســـيغلق تواريخ الحداثة التي ســـيعلن انهيار جدار برلين انغلاقها نهائياً. إنه الجيل الذي ســـيخط التصورات الأولى لشرعية أخرى لم تجد مستقرها بعد وما زالت قيد التكوين، هي شـــرعيات الحقوق الإنسانية.

ولن أستفيض في مفارقات هذا الجيل. يكفي أن أقول إنه الجيل الذي أراد تغيير العالم الذي يمثل في الوقت نفسه مرآة تصوراته لنفسه فيه. لم يكن تغيير العالم يتنافى بالنسبة إليه مع تطلعاته ومشروعاته التي كانت تتسع للعالم كله. إنه جيل البدء الجديد، وهو جيل التغيير الجذري أو الحاسم، بل هو في الأصح الجيل الذي وقر في وجدانه أنه ينتمي إلى الزمن القادم والعصور القادمة. إنه الجيل الذي حدد لنفسه مسؤولية إعادة

التأسيس لأنه خط لنفسه دور الطليعة و«تعرّف» إلى ذاته فيها، أي كطليعة. غير أنه قبل ذلك الجيل القادم إلى المدينة من ملحقاتها، وتمثل «ثورته» تلبية ما لندائها إليه واستجابة لسحرها ولطاقة الجذب الكامنة فيها. وأميل إلى الظن بهذا الخصوص أن فكرة الثورة هذه شكلت نوعاً من أنواع الحوار بين ضفتي المتوسط ودرجة من درجات تلاقيهما، وأن الماركسية (غير الستالينية، بحسب لغة تلك السنوات كيلا أقول رطانتها) لعبت دور اللغة المشتركة لهذا التلاقي، وجعلت منه ممكناً في التاريخ.

لكل زمان أزمتـــه التي تفرضها الحركة، أي الحياة؛ ولكل زمان أوهامه وأحلامه التي تتســـرب في داخل الحيِّز الاجتماعي وتتسلل كما العدوى إلى النفوس والمشـــاعر والهمم؛ ولكل عصر أسئلته الكبرى التي تقتضيها المصاعب وتســـتوجبها الإحباطات التي تحاصر الجماعة وتعاكس غالباً طموحاتها وتصوراتها عن نفســـها في التاريخ. ثم إن التماســـك العضوي ليس الرابطَ الوحيد الذي يجمع عصراً بسوابقه من العصور، وهو ليس التسلســـل الزمني بأية حال. وتدلنا المعاينة التاريخية أن ظهور شـــكل جديد من أشكال الحياة الجمعية، ارتبط دائمـــاً بظهور نمط جديد من الناس (والقيم، والعلاقات والأوهام والأســـاطير... إلخ)، وأن تدهور هذه الأشكال ارتبط بانقراض نمط معين من الناس.

وحين تتزعـــزع أركان الاجتماع، تميد بنية المعاني، يحل اللبس في الحركـــة، وتفقد الكلمات وضوحها، أو ما كان يبدو إلى وقت قريب كما لو كان هـــو الوضوح بعينه. يبدو الزمان كما لو كان فقد بوصلته، أو كما لو أن التاريخ صار خبط عشـــواء من غير معنى يهديه سواء الســـبيل. وحين تعترف المعارف، والعارفون من الناس على وجه التخصيص، بالعجز عن الإحاطة بالتاريخ وعن ســـبر غوره وفحواه، تفقد حركة التاريخ اتســـاقها الذي كان لها، وتستقر الأزمة في النفوس. وأرجح القول أنه يمكن انطلاقاً من مفهوم الأزمة بالمعنى الذي ســـبق

ذكره تفسير لماذا أن طروحات فرنسيس فوكوياما عن (نهاية التاريخ) وصموئيل هنتنغتون عن (صدام الحضارات) لاقت رواجاً واسعاً وأثارت كثيراً من اللغط يتجاوز بكثير القيمة النظرية لمضمون هذه الطروحات، قبل أن يبهت بريقهما ويتلاشى بسرعة تستوجب السبر.

من البيِّن أن جان بيير أرثر برنارد وقع في إغواء الشطط حين كتب مقدمته الجميلة لثلاثيته (مذاق باريس). فليست باريس هي المدينة الوحيدة في العالم التي تُلفق ماضيها وتؤَسْطِره وتعيد صوغه مع تعاقب الأجيال. فالدول والجماعات والأسر تلفِّق ماضيها كي تزعم أنها سحيقة القدم وكريمة المَحْتِد. هكذا قد يصح القول إنه ربما مثَّل البحث عن ماض عريق للمدينة صيغة موارِبة لبحث الناس عن ماض لهم وخاصٍ بهم، غير أنه يمثل بالتأكيد حاجة اجتماعية يُسهِّلُ للناس تدامجَهم وانخراطَهم في الحيّز الذي هو هنا المدينة. وإلا ما هو دور أساطير التأسيس إذن؟ ولماذا يلح الناس على إرسائها إن لم يكن ثمة وظيفة اجتماعية ضرورية لها؟ ألا يمكن القول إن أساطير التأسيس تضمن لحمة اجتماعية لسكان المدينة الذين هم خليط هائل من العناصر الوافدة من كل مكان تقريباً، وتوفر رابطاً معنوياً يتخطى تنافرهم وتعددهم وكثرتهم؟ ألم يلاحظ بول فاليري في مطلع القرن العشرين، أي في أوج الحداثة، أن اليونان القديمة كانت «الابتكار الأجمل للأزمنة الحديثة»؟!

في باريس، هذه المدينة التي تتجاور، تتعاشر، تتدامج، تتقارب وتتباعد فيها كل جنسيات المعمورة وأقوامها وألوانها، تعرف بحدسك العميق الذي لا يخطئ أن مقولات صموئيل هنتنغتون بخصوص الهويات والحضارات التي تتصادم مبنية على فرضيات هشة الأسس. في السوق والمقهى والشارع والمترو والحافلة أنت الفلسطيني العربي واحد من خلطة بشرية لا لون لها لأنها من جميع الألوان ولا ماض لها لأنها لحظة انصهار كل ماض ممكن. ما تبقى هو

أســـاطير تغذيها مصالح فعلية أو مفترضة كيلا أقول متوهمة، ولكنها، إن اســـتخدمنا لغة الروح والفن، مصالح مبتذلة وزائلة.

وما ينطبق على مقـــولات هنتنغتون ينطبق أيضاً على أضرابه من المحافظين الجدد وغيرهم من الأصوليين (essentialistes). فليس صحيحاً مـــا يقوله هؤلاء أن مفهوم الحضارة الكونية هو من مبتكرات الغرب وأســـاطيره. هذه قراءة حولاء للتاريخ الإنساني. تتقدم الأنســـنة بخطوات حثيثة لأن المدينة تتسع ولأن معاييرها أي معايير الأنســـنة غدت اليوم أكثر انتشاراً وقبولاً في مختلف أرجاء المعمورة. تتراجع الهمجيات لأن فكرتها ما عادت مقبولة ولأن تســـويغها يظهر اليوم بجلاء أنه بائس أساســـه الهشاشة والعطب. تتراجع الهمجيات لأن المدينة تتقدم. ألم يعتبر ابن خلدون قبل ســـتة قرون أن جرثومة العصبية ومقتلها يكمنـــان في «خنث» الحضارة التي تودي بالعصبية وتعزز المسالمة وتضعف النزعة إلى الاحتراب؟

العلاقة بباريس علاقة ملتبســـة لأن باريس مدينة عديدة، مركبة وكثيرة يتعذر اختزالهـــا بالضرورة إلى واحد من مكوناتها المتناقضة. صحيح أنني في (مدينـــة الأنوار) فقط تعرفت إلى معنى العنصرية التي كنت قرأت عنهـــا كثيراً قبل أن أخبِرَها عَياناً فوق أرضها. في باريس ترى العنصريـــة عُريانة من غير طلاء. فيها تعرف أنك آخر، وفيها تتحدد هويتـــك أمام مرآة ذاتك كآخر. فيها تغدو آخر. وفيها تغدو أنـــت وآخرُك أنت. والذين خبِروا غربةً مديدةً في غربٍ لا يستطيع أن يســـتوعب خصوصية المنفى الفلسطيني القســـري، منفاي الخاص الذي هو بالتأكيد منفى كل فلسطيني على شـــاكلتي، يعرفون كم هي منافقة تلك النصوص «الفلسفية» حين يتصل الأمر بمفهوم الإنســـانية. إذ كيف يســـتقيم التأكيد على فضائل الأخروية وحب الآخر فـــي الوقت الذي يُخرَجُ كل آخر من أُخرويته! لكن باريس كما قلت عديدة وكثيرة. فهي ليســـت فضاء مفتوحاً

من الهويات المتصارعة كما يقـــال هنا وهناك. إنها كذلك فضاء من التســـامح الرحب المنفتح على الآخر المختلف بالضرورة والبربري بالتعريف.

أود الآن أن أعترف: علاقتي بباريس يســـودها لَبْس ليس من اليســـير وضعه في دائرة الضوء و/أو الإفصاح عنه. ومن المرجح أن يكون قارئ هذا النص قد لاحـــظ كيف أن هذا اللبس هو على درجة من الكثافة تســـتعصي على الإخفاء وعلى التصريح في آن. فكيف لي أن أعرض لهذه العلاقة التـــي تمتد في زمن يكاد يغطي نصف عمري؟ وكيف يتســـنى لي أن أختزل علاقتي بمدينة هي مقر إقامتي الدائمة وغدت مع الأيام موطنـــي منذ أكثر من ربع قرن؟ بل كيف يمكن لي أن أكتب عن هـــذه المدينة التي غدت مع الزمن جزءاً من هويتي التي هي الطبقـــة العميقة التي تقبع في أعماق الذات؟ عديد أنا كمثل باريس. فأنا فلســـطيني من باريس أو باريسي من فلســـطين، وأنا كذلك ملامح أخرى يتعذر حصرها بكلمات. إنني فوق هذا وربما في داخله ذلك الصبي نفســـه الذي كنته في دمشق، بلد اللجوء. إنني عكاوي ودمشـــقي وباريسي وقبل ذلك إنسان. ولما كنت لا أريد الإســـتفاضة بهذا البعد الأخير، فأنا ملامح أخرى أيضاً. هويتي هي هذه الخلطة التاريخيـــة التي تتكون في داخلي من غير توقف، وباريس هي مكون كبير فيها.

أؤمن شـــخصياً بأن الحق في العيش في المدينة هو أحد الحقوق الإنســـانية التي ينبغي التأكيد عليها وترســـيخها في الوعي والمشاعر والدســـاتير، أقول «حق» لأنني أرى فيه إطاراً مرجعياً يســـاهم في تمدين المدينة أي في جعلها أكثر ديمقراطية وإنسانية. إنه الحق في التمتع المتســـاوي بمنتجات الحضارة التي هي للبشر كافة. إنه الحق في الديمقراطية إذن بما هي كســـر مستمر للحواجز التي تفصل بين البشـــر وتمنعهم عن تداول المنافع والسلطة. ألا

تعطينا المدنية الحديثة الوهم الجميل أننا متساوون؟ والواقع أن المدينة تكف عن أن تكون كذلك أي كموطن للمدنية إن لم يكن تنظيمها قائماً على جرعة عالية من الانتساب الطوعي إلى معاييرها ومنظومة قيمها. وهي في اللحظة التي تتعثر طواعية الانتساب إليها، تفقد أُسها كمدينة. فحين يسيطر الإكراه، ويستفحل الاستبداد تدخل المدينة في سيرورة تآكل داخلي قد يودي بها إن طال أمده واستقر في الوجدان. إن المدينة هي موطن الحرية أو الوهم الجميل بالحرية. وما الذي يبقى من المدينة إن تحولت إلى سجن كبير؟ بيد أن مفارقات المدن الكبرى في التاريخ أن ازدهارها ارتبط غالباً ببؤس الملحقات بها من أرياف وأمصار ومستعمرات. إن المدينة هي موطن التناقضات الفاحشة: فيها يتجاور البؤس المطلق والثراء المطلق؛ الفحش والفضيلة، والتضامن والأنانية إلخ، وهي في الوقت نفسه موطن مفارقة كبرى هي أن المدينة مكان التآلف مع هذه التناقضات، واعتبارها كما لو كانت من طبائع الأشياء.

6

يجب على قارئ مدينة باريس، بحسب تعبير فالتر بنيامين، أن يرى في الشوارع العريضة والساحات الواسعة والأرصفة الفسيحة التي خط لها (هوسمان) في نهايات القرن التاسع عشر، نوعاً من الجمالية «الإستراتيجية» التي هي إبداع هندسي وترتيب أمني في الوقت نفسه. فالشوارع العريضة المستقيمةُ الامتدادِ تكبح الباريسيين عن إقامة المتاريس وتعيق حرب الشوارع وتسهل تدخل قوات الأمن وحركة عرباتها، وتقوي شوكتها إزاء «الجموع». وإذ غدا الشارع الفسيح (البولفار والجادة) جزءاً من منظومة متكاملة، تحديثية بالضرورة، من الأسواق والحدائق والجسور والمسارح وشبكات المياه والإضاءة، فلأن الحياة الاجتماعية دشنتها

أســـس جديدة هي في جوهرها عنوان بورجوازية انتصرت وأرست قيمهـــا الجمالية والمعيارية في آن.

غيـــر أن المدينة لا تكون كذلك أي كمدينة إلا لأنها الحيّز الوحيد الذي يســـتطيع فيه الإنسان أن يتحول إلى كائن متسكع. لا مدينة من غير تســـكع ومتسكعين يصطادون أسرارها ويرتادون مجاهلها وغرائبها فـــي الأماكن المجهولة و/أو الخلفية. هكذا يبدو الفرق بين العابر والمتســـكع هائلاً. الأول لا يقرأ المدينة ولا يرى فيها كتاباً تمكن معاينته، ولا تدهشـــه جدتها. في حين أن الثاني، المتسكع، فمكتشـــف الجماليات التي تتجاوز الأشياء وربما تكمن خلفها. كره بودلير بروكســـيل لتعذر «التجوال الطليق» فيها، ولأنه «ليس هناك ما يُرى، والشوارع غير قابلة للاستخدام».

يتعذر احتســـاب قدرة باريس على تحسس تغيرات العالم وأنساقه الكلية احتســـاباً كمياً. فالباريسيون يشتكون دائماً من الطبيعة المحافظة لمؤسســـاتهم، وفي تأخر استجاباتها لتحولات العالم الكبرى. وإذ يســـارعون إلى إعلان غضبهم على هذه المؤسسات وإلى لعنة عجزها عن مواكبتها، لا يترددون في التمســـك بها ومطالبتها بحمايتهم إزاءها. لكنك في باريس تعرف أنك في مدينة هي وطن لم ينســـجه خيالك فحســـب. ففي المفاصل الكبرى، في الأزمات حيث تبدو الآفاق كما لو كانت انسدت، تكتشـــف الدور الكبير الذي يلعبه المثقفون، المدّعون منهـــم و«الأصيلون»، في التحليل وفي تكوين الرأي العام وتوجيهه. هكذا تكتشـــف أن للكلمة دوراً مازال كبيراً بالرغم من كل ما يقال عن إضعاف المعلوماتية للنظر والتحليل وغلبة الســـطحية والركاكة. وبهذه المناسبة، اســـتوقفتني فقرة قصيرة لريجيس دُبْري في كراسه المنشـــور في 2006 وعنوانه «توسل لتقدميي القرن 21 الجدد» تتحدث عن تناقضات عواصـــم الإمبراطوريات ومفارقات مقال مثقفيها بخصوص هذه التناقضـــات. فواحدة من مفارقات المجتمع الديمقراطي

في الدولـــة الإمبراطورية أن تزدهر فيها برلمانات في الداخل ومعتقلات فـــي الخارج، وأن «عاصمة الإمبراطورية هي دائماً أفضل ما يمكـــن للإمبراطورية أن تنتجه» (ص 50). وباريس هي بالتأكيد مركز أمبراطورية مازالت بقاياها كثيفة الحضور.

تلعب الثقافة من حيث هي حضور كلي، شـــامل ولا يقبل التبعيض، دوراً حاســـماً في تكوين الحضارة والهوية التاريخية التي تنتســـب إليها مكوناتها، جميع مكوناتها على اختلاف مشاربها وأهوائها ونحلها وأصولها. إنها تعددية رغم أنها تميل عموماً إلى حد نفســـها وتصويرها كما لـــو كانت مفردة لا كثرة فيها ولا تنوع. هذا التناقض الصارخ بين افتـــراض الواحد و«الأصالة» من ناحية، و«حقيقة» الثقافة المتمثلة في كونها تنوعاً وكثرة تتدامج وتتصاهر في ســـيرورة تاريخية لا تنتهي ولا تتوقف، مـــن ناحية ثانية، مصدره أن الثقافة بالتعريف أزمة دائمة وتوتر دائم في التاريخ لأن أُسّـــها يتمثل في التحدي الكبير المستمر لقدرتها على الاستمرار كثقافة،
أي كعلاقة كلّية بالكون والأشياء والآدميين.

بحسب لســـان العرب لابن منظور، المدينة مشتقة من الفعل مَدَنَ: أي أقام بالمـــكان. والمدينة الحصن؛ و«كل أرض يبنى بها حصن في أُصطمتهـــا فهي مدينة». ومَدَنَ الرجلُ إذا أتى المدينة. ويضيف القاموس المحيط للفيروزابادي إلـــى تلك المعاني معنى التنعُّم. بيد أن باريس ليســـت مدينة فقط. إنها قبل ذلك عاصمةٌ، ومركزُ أمبراطوريةٍ لم تأفل شمســـها تماماً بعد، ومازالت ذاكرتها الامبراطورية حية حتى اليوم. والعاصمة في العربية مشـــتقة من الفعل عَصَمَ أي مَنَعَ، والعاصم هو المانع الحامي. غير أن العاصمة هي كذلك بحســـب الفيروزابادي مدينة. ويربط لســـان العرب والقاموس المحيط بين الحضارة والاقامة في المدينة. ســـميت الحضارة كذلك «لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار».

وبخلاف ما يقوله بعضهم، ليســت المدن كائنات حية؛ وليس لها شــخصية أو روح تتلبسها وتميزها مما عداها. وباريس لا تخرج عن القاعدة. بناياتها، شــوارعها الفسيحة، نهرها الذي يتدفق أبداً، وتنظيمها، ليســت هي التي تميز باريس وتحد ملامحها إن كان للمدن ملامح. باريس هي الباريســيون الذين لا يكفون عن الحركة في الأنفاق وفوق الجســور وفي السيارات وعلى الأرصفة المزدحمة غالباً. باريس هي الناس الباريســيون الذين يعرفون في مرآة ذاتهم أنهم باريسيون على الرغم من اختلاف أصولهم ومنابتهم وأهوائهم التي تســكن فيهم.

تقوم العلاقةُ الإنســانية بالمدينة على العاطفة. أنت تحب المدينة أو تكرهها. ولا وســط بينهما. أنت في علاقة حب. من غير ذلك أنت لا تقوى علــى التعبير. تعوزك اللغة أو بالأصح العبارات التي تصل بكما، هي وأنــت، المدينة وأنت. ويخيل إلي أن المدينة تنقل لغتها الخاصة إلى ســكانها. أنت لست بيروتياً أو دمشقياً أو باريسياً من غير لغة محلية تتــوج مواطنيتك فيها. أما أولئك الذين لا يتمثلون مفردات لغتها المخصوصة والشــحنة المعنوية التي لها يفقدون الكلام. تتوقف لغتهم عــن التعبير، ويفقدون مواطنيتهم فيها.

أختتم بالملاحظة التالي بيانها. إن ما اصطلح على تســميته بالعولمة هو في أســه تسارع في حركة التدامج بين الجماعات التي كانت تفصل بينها عبــر التاريخ ما لا يحصى من الفواصل الجغرافية والثقافية والمادية والسياســية، وتباعد بينها، وترجح تنابذها واحترابها. ويتعذر في نظري مقاربة الســيرورات التاريخية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، المســماة بالعولمة إن لم نضع في منظارنا أنها هي أيضاً ســيرورة جارفة من نمو المدن وانتشار قيم المدينة على مســتوى المعمورة. ولأعترف بهذه المناسبة بعدم قدرتي على استســاغة التعبير الذائع عن القرية الكونية لوصف عمليات التوسع المديني المطّرد على صعيد المعمورة. لا يناســب تعبير القرية -

الكون الظاهرات التي يرغب في الإحاطة بها فحســـب، بل هو يدل أيضاً على ضعف في الخيال والمخيلة. وســـأتوقف هنا بخصوص التســـمية ولن أستفيض، فلهذا ميدان آخر لا محل له هنا.

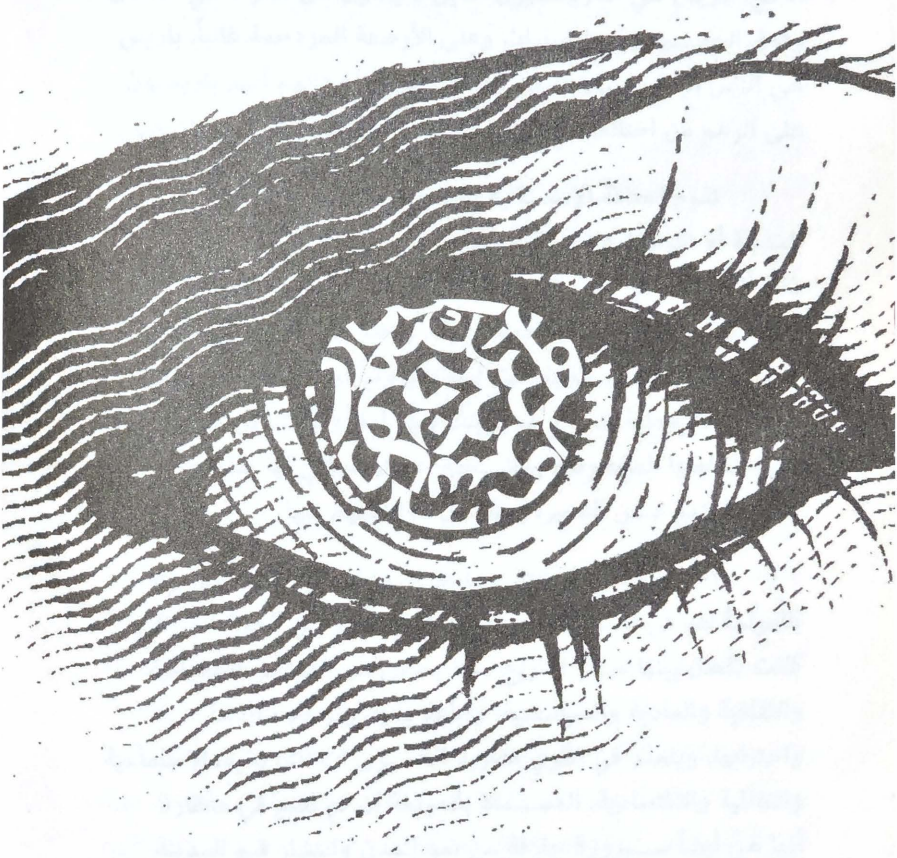

«تصبح المدينة كوناً عندما نحب واحداً من سكانها»
— لورانس داريل —

عن قارئـــــة في كـــتبها

نايلة ناصر

حائزة شهادة الكفاءة في اللغة الفرنسية وآدابها من كلية التربية في الجامعة اللبنانية ودبلوماً في الدراسات المعمقة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية من جامعة باريس الخامسة - رينيه ديكارت. مارست التعليم في لبنان وفرنسا. وهي مترجمة وكاتبة في دوريات لبنانية وعربية وفرنسية. مقيمة في باريس منذ أكثر من ربع قرن.

لمحتها حالما صعدت إلى الباص رقم86. يحملني من حيي في الدائرة الثانية عشرة إلى حيثما أشاء من أحياء العاصمة. وهذه ميزة باريسية عزيزة على قلبي منذ أن وطئت قدماي المدينة. اختار في تنقلاتي الباص غالباً بدلاً من عتمة المترو (مئة خط باص تجتاز المدينة ليل نهار)، أتفسح «ببلاش» كما أقول لمن يسألني. أسيح لقاء مبلغ زهيد أدفعه لشراء تذكرة وتتكفل خارطة الباص، المفصلة بعناية عن وجهة سيره، بمهمة الدليل السياحي. هكذا تعرفت عملياً إلى القسم الأكبر من المدينة التي يفوق عدد مساراتها الستة آلاف ساحة وجادة وشارع وزنقة ورواق عام وخاص ورصيف نهري؛ تحكي أسماؤها، وحدها، ألف حكاية وحكاية. من شارع السلم في الدائرة الأولى إلى جادة المهاتما غاندي في الدائرة السادسة عشرة ومن ساحة «سارتر- بوفوار» في الدائرة السادسة إلى ساحة بيروت - على حافتي الدائرة الثامنة والدائرة السادسة عشرة - ورواق القاهرة الواقع بين شارع الإسكندرية وساحة القاهرة في الدائرة الثانية وواجهته التراثية الممهورة بمجسم «حاتحور» الآلهة في صورة بقرة (الواجهة مدرجة ضمن لائحة الآثار التاريخية المحمية) وزنقة الطفل يسوع في الدائرة الخامسة عشرة: جميعها مررت بها ذات يوم، مسرعة أو متمهلة لإنجاز عمل أو لإمتاع عيني لا بل حواسي الخمس بالجمال المحيط والغنى العمراني الأصيل. أو مررت لشرب جرعة ماء زلال من عين مائها كما أفعل في الحديقة الصغيرة الملاصقة لشارع «دولامادون» في الدائرة الثامنة عشر. عين ماء طيبة قليلة الكلسيوم يقصدها التلامذة ظهراً وعصراً بعد الحصص المتعبة والأمهات لتحضير حليب أطفالهن والمارة المتنزهين وعدد من شاحنات المقاهي الباريسية التي تحمل إلى زبائنها المحظوظين ماءها العذب يومياً. أو أقصد سوق الزهور والعصافير في «ليل دولاسيتيه» أفسح ناظري في مخلوقاته ونباتاته الفريدة ثم أتمشي باتجاه «ليل سان لوي» اهبط على الأدراج العتيقة إلى الرصيف النهري لأرتشف قهوتي التي أحضرتها معي من البيت على حافته الحجرية مسرحة عيني بين المنظر المحيط الساحر والعشاق - اثنين اثنين- الجالسين على مقربة مني.

هو تقليد اتبعته منذ زمن طويل، قبل أن تقيم بلدية باريس مقاهي وحانات ومطاعم على أرصفة النهر كما هي الحال الآن. ربما لأني كنت غالباً وما زلت أحياناً كثيرة أحس أن نهر السين العظيم هو بحر، يذكرني ببحري في بلدي وأن جلساتي هناك تذكرني بجلساتي على الشاطئ البيروتي القديم: ماء ورمال وصخور وأفق مفتوح لا غير. أي رصيف ومسار طبيعي قبل هجمة التحديث في كلا المدينتين. وربما لأن نهر المدينة العريض معبر للزوارق والمراكب وهذا مرادف في ثقافتي للبحر الواسع الفسيح وليس للأنهار كما في وطني، وهي ضيقة المجرى قليلة العمق. والمدهش أن كل من رافقني يوماً في مشواري هذا، فرنسياً كان أو عربياً، أضحى مقتنعاً مثلي أن نهر السان هو «بحرنا»، نحن سكان المدينة التي لا بحر لها. اليوم ما زلت أسلك الدرب نفسه، مخلصة له، رغم أن دروباً أخرى تفتحت أمامي: نزهة في حديقة متحف النحات رودان وأخرى على ممشى الشاعر آرتور رمبو المحاذي لرصيف الكاتب فرنسوا موریاك قبالة المكتبة الوطنية وثالثة ذات عبق باريسي عتيق على أرصفة نُهَيْر «لا مارن» أكبر روافد نهر السِّين بفرنسا.

الباص رقم 86

رقم 86 كنت اســـتقله يومياً في بداية إقامتي لأصل إلى مكتبة الســـوربون المركزية في الدائرة الخامسة، أنكب فيها على كتابة بحثي الجامعيين. الأول عن المزارات الشـــعبية في لبنان والثاني عن الأكراد في شـــتاتهم بين دول الشرق الأوسط الخمس ومن ثم أعود بالباص نفسه إلى الشـــقة الصغيرة في المبنى القديم الواقع في شارع آليغر (يعود بناؤه إلى عام 1840). أتســـلق الطوابق الثلاثة على قدمي (خاصية باريســـية أخرى: لا مكان للمصعد في الأبنية القديمة) بعد أن أكون قد عرجت على ســـوق الخضار والفاكهة في الهواء الطلق في الشارع نفســـه طوال أيام الأسبوع. وهذا أيضاً تقليد يحرص عليه

سكان فرنســـا عموماً ويعتبر من اهم معالم الجذب السياحي وهو كان ومازال من احتفاليـــات باريس القديمة - المتجددة المحببة لدي: أسواقها الشـــعبية متعة دائمة تعلمت في تجوالي بين بسطاتها ومحادثاتي مع البائعين وروادها نصف ما أعرفه من لغة الفرنســـيين.

في الباص 86 لمحت في الواقع، سوادها، قبل أي شيء آخر.
مارد بلون الابنوس يقف منتصباً في وسط الحافلة وهامة ممتلئة وعينان تحدقان إلى السقف الحديدي. عينان يكحل سواد البؤبؤ بياضهما الناصع رغم بعض الصفرة الشاحبة والجيوب المُكلِّحة الغائرة تحتهما.
ثم أتى صوتها، زفرات زفرات، تهدر كنبع غزير المياه في جبل لبنان في «عز كانون». صوتها، خليط من الأنين البالغ والوجع المزمن وتعب الروح العتيق. صوتها ضرضرة نمر في قفص محكم الإغلاق.

«كيف يمكن أن يبقى واحدنا في هذه المدينة عشر سنوات متواصلة دون أن يصبح مجنوناً؟ عشر سنوات دون أن يخرج منها ولو بضعة أيام؟ عشر سنوات يعمل ويعمل ويعمل بلا توقف؟» قالت، بصوت عال، رفيقتي الأفريقية في رحلة الباص 86 من محطة «كروزاتييه» في الدائرة الثانية عشرة إلى محطة «كلوني» في الدائرة الخامسة. قالت غير عابئة بمخالفتها للسلوكيات المتبعة في النقل العام وعلى رأسها التكلم بصوتٍ خفيض. وأعادت أسئلتها وكررتها كأسطوانة من الفينيل، مشروخة، تعيد إلى الأبد اللحن نفسه.

كان لقائي بالسيدة السوداء في تلك الصبيحة محطة من بين محطات عديدة على امتداد سنوات طويلة توقفت عندها معيدة تقويم علاقتي بالعاصمة التي ستصبح مقر إقامتي الدائم. محطة بين باريس التي أتيتها للمرة الأولى طالبة مدللة بعدما قدمت لي الدولة الفرنسية منحة لزيارتها والتعرف من خلالها طوال 40 يوماً إلى الحضارة الفرنسية عن قرب تماماً كما منحت 59 من رفاقي في الدراسة - مكافأة لنا على اختيارنا تعلم

اللغة الفرنسية وآدابها طوال خمس سنوات في كلية التربية في الجامعة اللبنانية - وبين باريس موطن هجرتي التي أضحت يومياتها يومياتي. محطة بين المكان السياحي البهي ومن ثم مدينة كل ما أهوى - جامعتي ومكتبات وصالات سينما لا تحصى ولا تعد ومتاحف متنوعة من الأكثر تقليدية إلى الأكثر غرابة ومسارح نشطة طوال العام والفنون والموضة وآخر إصداراتها التي كنت أواكبها في ذاك الزمن الهني وبين باريس المتعالية الباردة اللامبالية بمصير كل وافد غريب أتاها مرغماً هرباً من حروب الأرض أو للارتزاق كما هي سيدة الباص حتماً.

سنوات الغفلة

محطة بين باريس الشغف وباريس القهر. باريس الجمال وباريس القبح. باريس الأنوار وباريس المظلمة تلك التي ترمي، أولادها وأولاد الناس الوافدين إليها على الرصيف على السواء. ترميهم على قارعة الطريق دون مأوى ودون عمل ثم تخجل من نفسها فتعود لتلتقط بعضهم بواسطة الجمعيات المدنية والدينية العديدة التي تجند ليل نهار آلاف المتطوعين لتأمين كوب حساء ساخن أو فراش دافئ في مأوى بسيط أو كما اكتشفت حديثاً، إمكانية الاستحمام في شاحنة سميت «موبيل دوش» تجوب العاصمة لتأمين خدمات صحية متنقلة للمشردين ولمن لا مكان للحمام في منزله (نعم، نعم ما زالت بعض البيوت الباريسية القديمة خالية من الحمامات والمراحيض الداخلية.)

كان وجع تلك السيدة صفعة ما زالت آثار أصابعها تراود روحي من وقت إلى آخر وتذكرني أني عشت سنواتي الأولى في العاصمة الفرنسية من خلال قراءاتي، غافلة عما تراه عيناي وما تطرحه هذه المدينة أمامي يوماً بيوم. أعيش في الكتب التي قرأتها في بلدي وتلك التي كنت أعب صفحاتها عَبّاً في غربتي، جُلها أدبي – روايات أساساً وبعض الشعر وكثير من كتب النقد الأدبي الحديث وكتب الاجتماع والأنثروبولوجيا.

كانت باريس مكتبة كبيرة أتنقل فيها حتى خلال نزهاتي. أزور نهاراً أماكنها التي خلدها «أونوريه دو بلزاك» و«شودرلو دو لاكلو» و«اميل زولا» وأسرح ليلاً على خطى «الشاعر الملعون ستيفان مالارميه» و«آراغون» و«عيون حبيبته الزا» و«بودلير» وكآبته. أدور غالباً داخل مربع الحي اللاتيني الممتد على مساحة الدائرة الخامسة من العاصمة وقسم من شمال وشرق الدائرة السادسة، متنقلة بين «جامعة باريس الخامسة» قلب الحي النابض ومقهى «الاسكولييه» المحاذي لها (لعله مقهى الرصيف الوحيد الذي كنت لا أمانع في ارتياده لألتقي رفاقي في الجامعة لأنه يقع في وسط ساحة السوربون وطاولاته ومقاعده قريبة من نوافير بركتها المنعشة للروح والخيال وبعيدة عن الطريق العام العاج بالسيارات). كنت أهاب الجلوس وتناول الطعام والشراب «على قارعة الطريق» تطبيقاً، ربما، لما كانت تنص عليه لائحة المحظورات التي كانت تكررها على مسامعنا يومياً الراهبة المسؤولة عن «تهذيبنا» في مدرستي عند راهبات العائلة المقدسة... ولم يكن من عادات أهلي على أية حال الجلوس على أرصفة المقاهي في بيروت في ذاك الزمان. وعليّ أن أقر إني ما زلت، حتى الآن، انزعج من جلسات الرصيف الباريسي وأبحر عكس التيار في اختيار مجالسي العامة إلا إذا كانت الجلسة في زنقة ضيقة قليلة الرواد أو على طريق مخصص للمشاة فقط وهو ما بات متاحاً كثيراً في العاصمة الفرنسية. في الواقع، عقدتي هي مع فكرة الرصيف في ذاته الذي تحول من ممر للمشاة إلى مكان يعرض فيه بعضهم ذواتهم العظيمة وهم جالسون على مقاعد موجهة إلى الطريق العام مسندين ظهرهم إلى واجهة المقهى الزجاجية في أبهة لافتة في بعض نواحي العاصمة الغنية. وأيضاً في أن باريس أضحت تعاني في فترات عدة خلال العام من نسب عالية من التلوث فكيف أرتضي لنفسي أن أتنشق مباشرة أبخرة عوادم المركبات وغازاتها السامة وفي مقدمتها أول أكسيد الكربون، دون اعتراض. وفي أن القابعين على هذه الأرصفة يجلسون متراصين مثل السردين في العلبة الحديدية - من أجل كسب اكبر كما توصي بذلك قوانين السوق المتوحشة- مما ينزع عن الجلسة كل حميمية

ممكنة. كأن الكل يجلس مع الكل والكل يمضي الوقت بالاعتذار عن أن ساقه ارتطمت بساق الآخر أو أن كعب حذائها العالي قد أصاب رجل جارها ... بمقتل! ولأن مقاهي الرصيف تحولت من جلسات تقيم الساحة السياسية والاجتماعية الباريسية ولا تقعدها فيما مضى إلى أماكن Pour regarder passer les gens (أي للتفرج على المارة).

ومن أماكن قال فيها مونتسكيو عام 1721: «لو كنت حاكم هذا البلد، لأقفلت المقاهي لأنها أماكن تلهب مع الأسف أدمغة روادها» إلى أمكنة لـ«تضييع» الوقت والأكل والشرب المسرف في أغلب الأحيان. هل كان مسار التاريخ تغير لو استمع لويس السادس عشر وقبله الخامس عشر إلى نصيحة مونتسكيو؟ ألم تندلع الثورة الفرنسية من مقاهي العاصمة وتحديداً على، ما يروى، من مقهى[1] كان يرتاده ويقيم فيه اجتماعاته الملتهبة «جان بول مارا»، الصحفي والثائر الدموي الأكثر عنفاً بين الثوار و«شهيد» الثورة الباكر؟ ومن داخل صالات المقهى نفسه المعتمة اتُّخِذ ذات يوم من حزيران/ يونيو 1792 القرار بالاندفاع نحو «التويلري»، المعقل الأخير للملك لويس السادس عشر وعائلته؟ ولكن مالي أسرح بعيداً و«اقفز من الديك إلى الحمار» كما يقول الفرنسيون. لأعد إلى بداياتي الباريسية فـ«الذباب انتقل إلى حمار آخر» كما يقول تعبير ريفي هنا للدلالة على أن الأمر قد قضي على أيه حال وان الوضع اختلف تماماً الآن.

نافورة «ميدسيس» وأخواتها

بعد الجامعة ولقاء الرفاق في المقهى، كنت أعرج على حديقة اللوكسمبورغ، حديقة قصر مجلس الشيوخ الفرنسي المفتوحة للعموم كل أيام السنة، ومقر فسحاتي الدائم حيث ينتظرني المقعد نفسه قبالة بركة مائها ومراكب الأطفال الصغيرة اللاهية على صفحتها أو المقعد الآخر قبالة نافورة «ميديسيس» أجلس هناك برفقة كتابي وأطعم أسماكها الحمراء فتات من الكرواسان الذي اشتريته تواً أو بعض الخبز اليابس الذي

أحضرته معي من البيت. وان ابتعدت قليلاً فلكي أذهب إلى مونبارناس العاجة بالحياة ليلا نهاراً أو إلى أرصفة نهر السان وجسوره العديدة في ذاك الحي، همزة الوصل بين ضفتي العاصمة التي تذكر المارة على الدوام بأن قلب المدينة التاريخي جزيرة حدودها مياه النهر البديع. وأجمل جسوره عندي «لو بون نوف» أي الجسر الجديد وهو للمفارقة أقدم الجسور الباريسية، يربط بين الضفة اليسرى والضفة اليمنى للنهر من أوسع نقطة في مجراه المديني (تلتقي ذراعا النهر الصغرى والكبرى هناك) ويسمح في الوقت نفسه للمتنزهين بالنزول إلى جزيرة «لا سيته» الصغيرة حيث مراكب الإبحار السياحية وعجقتها. أذهب إلى هناك لأجلس على شرفات الجسر الحجرية الصغيرة، الهلالية الشكل، أفسح نظري في وسع السماء وعلى مرآة الماء الشاسعة المتلألئة، ملوحة من وقت إلى آخر بيدي، أرد على سلامات الزائرين« الأجانب » الواقفين مسلحين بكاميراتهم على العبارات السياحية الضخمة.

لم يكن موجوداً على أجندة تنقلاتي في بدايات إقامتي، لا حي البورصة الغني ولا برج إيفل الشهير ولا ساحة «الفوج» الساحرة ولا حي «شاينا تاون» ونكهاته الشرقية ولا ليتل انديا دو باريس في رواق «برادي» حيث يمارس حلاق من فقراء حيدر آباد مهنته جنباً إلى جنب مع جاره العطار الآتي من إقليم البنجاب، وسط خليط من روائح البهارات وخلطات الكاري المثيرة والعطور والبخور الهندية الساحرة؛ ولا حتى الشانزيليزيه الجادة الباريسية الأشهر في العالم. وإن بعدت خطاي اكثر- استثناء بعض الأحيان- فلكي أشارك في الاحتفال السنوي بالعيد الوطني في 14 تموز/ يوليو الذي كان يقام ليلاً على ساحة الباستيل أو أقصد حي «لا غوت دور» لتبضع حاجاتنا «الاكزوتيك» كما يسميها الفرنسيون من عند البقالين العرب والأتراك والأفارقة أو أتسلق أدراج «مونمارت» العالية، التلة التي تنتصب في قمتها «كاتدرائية سكريه كور» يحيط بها محترفات وبيوت صغيرة كبيوت العرائس والحكايات حيث يوجد رسامو الهواء الطلق والحانات

والمقاهي وكثير من السياح ومنازل فنانين ورسامين وشعراء، راحلين أو أحياء: منزل الشاعر «بول فيرلان» وقصر المغنية داليدا الصغير حيث عاشت منذ 1962 حتى مماتها وأيضاً قبرها حيث ترقد إلى جانب الرسام «ادغار دوغا» والموسيقي «هكتور برليوز» والاخوة «غونكور» والكاتب «ستاندال» والسينمائي «فرنسوا تروفو» ومشاهير آخرين في مقبرة مزهرة رومانسية تذكر بالحدائق الباريسية الأنيقة التصميم. وهناك أيضاً في الأعالي، كرمة تعصر عناقيدها لتخمر كل عام في احتفالية تراثية تدوم ثلاثة أيام في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول/أكتوبر أخال نفسي خلالها في ريف بوردو وسط كرومه وليس على بعد كيلومترات قليلة من قصر الاليزيه والبرلمان ومجلس الشيوخ لعاصمة دولة عظمى.

كانت باريسي بسيطة في ذاك الزمان: ضفة يسرى للنهر يحلو لي العيش فيها وضفة يمنى لا أعرف منها إلا الحي الذي أسكن فيه. تماماً كالخلاصة العالقة في ذهني منذ ما قبل مجيئي إليها. تقطيع عمودي لمدينة متخيلة اتضح لي، شيئاً فشيئاً فيما بعد، أنها ليست كذلك وان الحال اكثر تعقيداً تماماً كما كان متخيلاً اعتقادي الراسخ أن الإنسان، أي إنسان، فرنسياً كان أو مهاجراً، عابراً أو مقيماً مزمناً يتمتع بكامل منظومة الرخاء الاجتماعي وبالحقوق الطبيعية التي بشر بها فولتير ومونتيسكيو وروسو وبأن فكر التنوير الذي تمخض عنه إعلان حقوق الإنسان والمواطن - إحدى الوثائق الأساسية للثورة الفرنسية - والغنى المعرفي والتنوع الثقافي الغزير في المدينة هي متاحة للجميع دون استثناء.

وكانت باريسي هنية: قراءاتي ومعرفتي بصفحاتٍ واسعة من التاريخ والحضارة الفرنسية وحبي الكبير لبعض عادات أهل المدينة وتمكني من لغتها ذلك كله جعلني أتأخر في أن أعي أنني أصبحت مهاجرة. كنت في واقع الحال لم أتبلد بعد.

فيما بعد، ولربما كان لابنتي دورهما في دفعي إلى النظر إلى الدنيا من حولي بواقعية اكثر ولبحثي كأم عما يسهل حياة أسرتي ويخفف عنها معاناة الغربة أثره في تصويب حياتي اللاحقة في باريس ودفعي إلى وضع نظارات تناسب حال المدينة وحالي فيها. أي أن أتعاطى معها بما هي عليه وليس بتأويلي لها. اتعاطى معها كما كتب جون شتاينبيك عن مدينته في رواية اللؤلؤة «... كالحيوان. لها جهاز عصبي ورأس وكتفان وقدمان. كل مدينة تختلف عن غيرها من المدن: ليس هناك مدينتان متماثلتان. وللمدينة مشاعر جماعية». فيما بعد، بت أقيم اعتباراً للمشاعر والقيم الجماعية تلك. صرت «باريسية». أقف في الصف لشراء الخبز واللحم والخضار واقطع الطريق كما يشير به علي ذاك الرجل الصغير المضيء بلونيه الأحمر والأخضر عند إشارات السير(كنت قد نسيت وجوده في بيروت جراء حروبنا المتكررة وخرابها المعمم). وأتكلم اللهجة الباريسية واطعم حديثي بعبارات دارجة وبعض السباب «اللطيف» المسموع حين أغضب. تماماً مثل أهل البلد. وصرت اكتفي بتحية الصباح والمساء القيها على جيراني وامشي بسرعة دون أن أقف وافتح مع أحدهم سير حروبنا الأهلية في لبنان الشبيهة بـ«سيرة أبو زيد الهلالي» كما كانت تردد منى، رفيقتي في الغربة. وتضيف «الباريسيون تعبوا من حكاياتنا. أنا توقفت عن وصف مآسينا وإلا لكنت خسرت كل معارفي هنا». لا أتبادل مع جيراني شيئاً آخر لدرجة إن جاري في الطابق الرابع توفي وبقيت اكثر من شهر ونصف الشهر دون أن أعلم انه غادرنا إلى العالم الآخر. ولو لم أسأل عنه زوجته «مدام رولان» التي التقيتها صدفة في مدخل البناية لربما ما عرفت أبداً بالواقعة. تبادلنا التحية وكنت مستعجلة في تلك الصبيحة إلا أنني تذكرت باني لم أعد التقي زوجها عندما أعود ظهراً إلى المنزل كما كان يحصل كل يوم تقريباً طوال سنوات. أراه حاملاً « باغيت »، يمسك بالباب حتى أدخل، نتبادل التحية ثم نركب المصعد معاً. أنا إلى الطابق الأول

وهو إلى الرابع. كنت أعرف أنه متقاعد، لكن هندامه وتسريحة شعره وسيجارته العالقة أبداً بين شفتيه كانت توحي لي انه شاب عاد تواً من متاريس 68 في الحي اللاتيني. صعقني جوابها خصوصاً أنها أخذت بيدي وقالت إنني لطيفة للغاية فما من أحد من الجيران سأل عن «ميسيو رولان». قالت وبكت وبكيت ثم راحت تخبرني عن معاناته مع السرطان الذي أوصله في 15 يوماً إلى المقبرة. عفواً، إلى عُباب البحر لأن جارنا «السيد رولان»، رحمه الله، أوصى أن ينثر رماده - بعد حرق جثمانه - قبالة جزيرة على الأطلسي حيث أمضى هو وزوجته وابنته أجمل عطله الصيفية. وأسهبت في الكلام والوصف شارحة لي بأدق التفاصيل الجنازة ثم كيف أودعت جرة الرماد، رماد زوجها، في سيارة ابنتها التي تولت القيادة على امتداد اكثر من 500 كيلومتر على الطريق السريع قبل أن تصلا إلى المرفأ السياحي على الأطلسي حيث استأجرتا مركباً صغيراً كما كانتا تفعلان خلال العطلة مع فرق كبير هذه المرة: لم تذهبا إلى الجزيرة كما العادة كل صيف بل اكتفتا بالوصول قبالتها ثم راحت تنثر الرماد فوق البحر فيما تولت ابنتها نثر باقة الزهور الكبيرة، زهور «ميسيو رولان» المفضلة التي أحضرتاها للمناسبة. كانت هذه الواقعة أيضاً- كما مع راكبة الباص السوداء فاتحة تحول آخر في حياتي هنا. ليس فقط لأني لم أنم بعدها طوال أيام بلياليها وأنا أعيد السيناريو نفسه الذي ما سمعته قط، بهذا التفصيل والدقة يوماً قبل هذا اليوم؛ وليس لأن «مدام رولان» أضحت وهي الأكبر سناً من والدتي « صديقتي» في البناية نقف من وقت إلى آخر في مدخلها نتبادل أطراف الحديث، بل لأنها كانت المرة الأولى التي اصطدم فيها، في باريس، بالموت.

إذن لم اكن أتبادل مع جيراني الشـــيء الكثير وهذه على أية حال عادة باريسية راســـخة إلا مع دونيز رحمها الله، جارتي في منزلي الثاني، التي كانت علاقتي بها على الدوام، طوال ما يزيد على عشـــر سنوات اســـتثناء عن القاعدة: كانت هي التي ساعدتنا، أسرتي وأنا،

على اســـتئجار منزلنا الفسيح (بالقياس على الأول) بعد أن أضنانا الرفض القاطع الذي كنا نلاقيه على مدى أشـــهر بعد كل زيارة لاحد البيوت. كان اللبنانيون مـــن غير المرغوب فيهم في تلك الأيام الصعبة بعد سلســـلة من الانفجارات التي هزت العاصمة الفرنسية واتهموا بارتكابها، واتضح فيما بعد أن المنفذ شـــبكة تونسية بدعم إيراني. أقنعت دونيز الشـــركة المؤجرة للمنزل أننا جديرون بالاحترام وأننا ســـوف ندفع لهم بانتظام وفي موعد الاستحقاق الإيجار كاملا متكاملاً. وكان بيننا أيضاً الصديق المشـــترك جوزيف سماحة، طيب الله ثراه بالزهر والرياحين، الذي دلنا على المنزل بعد أن زاره شـــخصياً ولم يرغب في الإقامـــة به لأنه كان اكبر من حاجته فقدمنا، زوجي وأنا، إلى دونيز التي تولت مســـاعدتنا. وكان بيننا أيضاً وأيضاً سلة، تتجول نزولاً وصعوداً من شـــرفتنا في الطابق الأول إلى حديقتها الداخلية في الطابق الأرضي تماماً كما فـــي الأفلام المصرية وفي عاداتنا اللبنانية في المدينة بين الجيران المقربين. ســـلة صغيرة من القش كسلال التين والعنب في مصيفنا فـــي جبل لبنان أحمل لها فيها من وقت إلى آخر بعض الفطائـــر اللبنانية أو صحن مقبلات أو طبق اللوبياء بالزيت التي كانت تهواه. وكانت أمي رحمها الله هي من أســـس لهذا التقليد بيننا ومن لجأ إلى هذه الوســـيلة المعتادة لديها حين أتت لزيارتنا من بيـــروت وتصادقت مع جارتنا دون أن أعرف كيف، مع أن كلاً منهما تتكلم لغة تجهلها الأخرى. وعندما طلبت من والدتي أن تشـــرح لي كيف تفاهمتا قالت بانها تؤشـــر لها باليدين والباقي تتكلف به العين والقلب يتبع حتماً. وحين ســـألت دونيز قالت مبتسمة لا عليك حصل الأمر وهذا هو المهم ولا شـــي آخر. وكانت جارتي، بعد كل إرسال أو «دليفري» كما نســـميه اليوم تعيد إلي الصحن نظيفاً مع وردة أو اثنتين من حديقتها الصغيرة التي كانت شـــحيحة الزهور لأن «دونيز»، المثقفة والمناضلـــة هي وزوجها «روبير بارًا»، لم تكن تعنى كثيراً بالنبات قياساً بعنايتها بالبشر ومصائرهم.[2]

كذلك لم أعد، فـــي نهجي الجديد مع المدينة، أتكلم كأني أقرأ في رواية من القرن التاســع عشر كما كانت تردد صديقتي دانيلا، بهُزْء ظريف، مضيفة «كأنك ما زلت على مقاعد الدراســة. أنت تتكلمين لغتنا بالفصحى ونحن نســيناها عزيزتي». وعكفت على تمرين لساني على لفظ حرف الـ «R» «غ» تماشــياً مع جرسه الباريسي بدلاً عن الراء. فلا يجوز لباريســي «أصيل» أن يتحدث مثل عجزة بعض النواحي والمناطق الفرنســية الذين ما زالوا يتمسكون بلهجاتهم وألفاظهم «الفظة» القديمة ويلفظون الراء «كأن شــلالاً من الحصى يسيل من لهجتك» على ما يقول أهل مدينــة تولوز. إلا قبل وبعد العطلة الصيفية التي ثابرت علــى قضائها في لبنان طوال أكثر من عقدين من الزمن: كان لســاني يتلعثم ويعود أدراجه إلى العربية، عربيتي البيروتية، أطعم بها جملي كما يزخرف حرفي دمشــقي، بالصدف الخزفي، صندوق جهاز العروس الخشــبي. أرمي بجملة في مجرى الحديث الفرنســي أو بكلمة من هنا وهناك وأعود إلى حرف الراء الفظه بالفم الملآن كما علمتني أمي، وأنا في رحمها، إن الفظه. لا يشــغلني طويلاً استغراب محدثي ولا دهشــة عينيه المفتوحتين الحاملتين احتمالات عدة، ألطفها أني قد أكون متعبة بعض الشــيء واعظمها أني من مصابي الزهايمر. وحدها، طبيبة عائلتنا الســيدة كريستين، كانت تلتقط اللحظة. تعرف بحدســها الراقي أني أتهيأ للعودة إلى بلدي أو أني عدت من هنــاك. تقول أنها طريقتي للانعتاق من غربتي والرجوع إلى « الجذور». وأنا، أهز برأســي ولا أعلق بصوت مسموع. أعلق بيني وبين روحي بــأن الجذور، تقيم هنا دائماً، في مقام القلب وإنها لم تغادر قط. لا يوماً ولا لحظة. وأنها محركي، تنشــطني كلما أصابني وهن وكلما حزنت، متســلحة في أوقاتي التعيسة بقول برتولد بريشــت، عن المهاجر الذي كان: «اطلقوا علينا اسم مهاجرين: اسم

قاطع أعتبره باطلاً ويعني أولئـــك الذين تركوا بلدهم. لكننا لم نتركه طوعاً مختارين بلداً آخر. تمامـــاً كما أننا لم ندخل بلداً لنبقى به إلى الأبد، لو أمكن.» كل المشـــكلة في لو أمكن يا صديقي برتولد! هل ســـأتمكن؟ «نحاوِلُ مُلْكاً أو نُموتَ فَنُعْذَرَا» كما قال شاعرنا العربي الكبير الجاهلي امرؤ القيس الكندي...

بالانتظار، كنت أواصل رحلتي على أرض هجرتي «الموقتة» بنهم معرفي كبير. وباريس حقل معرفي لا حدود له. لن يفتح لك أبوابه إلا إذا طرقتها جيداً وأحياناً عليك باقتحامها. وأنا حشرية أتعاطى بأمور كثيرة اكثر بكثير مما تسمح لي الأربع وعشرون ساعة اليومية. ولكن تلك هي الطريقة المثلى التي وجدتها لمحاربة رتابة المتروبول وناموسها « مترو بولو دودو» métro boulot dodo (أي نركب المترو ونذهب إلى العمل ومن ثم ننام) والوسيلة الأنجع لإبعاد شبح الغربة ووحشتها.

في باريس تعلمت مهارات لم تكن بالبال واكتســـبت خبرات أساســـية في مجال تجديد المنازل وتجميلها من طلاء الحيطان ودهن الشـــبابيك وتغيير ورق الجدران ومعالجة تسرب حنفيات الماء وخياطة الســـتائر وتعليقها وغسل السيارة يدوياً في المحطة وأمور أخرى عديدة... كلها قصـــدت أن أتعلمها كما يفعل أهل المدينة الأصليون لأن اللجوء إلى أخصائيين يكلف غالياً. أقوم بها بنفســـي أو بمســـاعدة عائلتي وبعض الأصدقاء من أصحاب الهمم العالية وأبادلهم بالطبع الجهد والتعب نفســـه. زيارة السبّاك مثلاً تكلف أضعاف كلفة عيادة الطبيب وهو بالشـــكل تخاله، بمريوله الأبيض وحقيبته السوداء الواسعة، طبيباً أو مســـاعده على أقل تقدير... هنا اكتشفت أن الطاهي المشـــهور في باريس يربح اكثر مما يتقاضاه أستاذ جامعي وان المطبخ الباريســـي ثروة وطنية وان أربابه أشهر من غالبية مسؤولي الجمهورية الفرنســـية. هنا تعلمت - لقاء مبلغ رمزي - ركوب الدراجة بمساعدة متطوعين في جمعية تنادي بالتخلي عن الســـيارة واعتماد الدراجة

الهوائية كوسيلة للتنقل في المدن إلى جانب وسائل النقل العام، ركوب الدراجة بعد أن بقيت عصية علي طوال عقود وكان الجميع من حولي قد بدأ يعتمدها في تنقلاته بشكل يومي. هنا فهمت ذات ساعة كم أنا محظوظة لأني أقرأ واكتب، وكم هي صعبة الحياة في عاصمة فرنسا على الأميين. في تلك الأمسية، قالت لي والدتي بعد أن هدأت روعي- لأننا نسينا أن ننزل على محطتنا من على خط القطار السريع ووصل بنا المطاف إلى الضاحية البعيدة جداً عن العاصمة- قالت لي: من يقرأ لا يتيه يا ابنتي. اقرئي وأنا واثقة انك سوف ترجعيننا إلى المنزل ولو متأخراً.

هنا تعلمت أن لكل شيء، صغر أو كبر ثمناً وان لا شيء على الإطلاق يرمى قبل أن يتعطل نهائياً وان الأشياء التي تبدو غير صالحة للاستعمال يمكن أن يستفيد منها إنسان آخر. كل شيء، من الأطعمة الجاهزة في المخازن الكبرى التي باتت تمنح الجمعيات والمنظمات المدنية والدينية المواد والأطعمة المنتهية الصلاحية لسد رمق الفقراء والمعوزين إلى حاجات المنزل وأدواته والألبسة والآلات الكهربائية والهواتف النقالة، جميعها لها في باريس من يعنى بإيصالها إلى محتاج إليها.

هنا تعرفت على الوحدة القاتلة والفقر المدقع، ذاك الذي يجعل الإنسان يلعق الريح ويلتحف السماء. ذاك الذي لم أر مثيلا له في بيروت الحرب الأهلية.

وهنا عرفت ذل الانتظار، انتظار أن يسمح لي بالدخول إلى داخل دائرة تجديد الإقامات بعد أن اكون قد أمضيت ساعات منذ الصباح الباكر في البرد القارس، مثلي مثل غيري من « المهاجرين» لا يشفع لي، لا بطني الممتلئ صعوداً حتى حلقي، كوني حاملاً بابنتي الأولى، ولا مرافقة ابنتي الثانية، الطفلة، لي في السنوات التالية.

وهنا، انتخبت لأول مرة فـــي حياتي ترافقني ابنتاي الصغيرتان الواحدة تلو الأخرى وما زلت في كل مرة أشـــارك، بعد الاقتراع، في فرز الأصوات وتأدية واجبي كـــ «مواطنة مثالية» كما يحلو لرئيس القلم، وهو شـــرطي متقاعد، أن يناديني بمجرد أن تطأ قدماي مركز الاقتراع. وهنـــا في كل مرة أحس أن صوتي وجهدي ذهبا هباءً منثوراً واني أعيش في وهم ديموقراطي كبير ســـميته جمهورية الحدائق البديعة.

هل تبلدت؟

ســـؤال معقد لا قدرة لي على الجواب عنه بشكل دقيق رغم كل هذه السنين فمن الســـهل أن تسعد في العاصمة الفرنسية إنسانة مثلي تهوى الزهور والخضرة والجمال الطبيعي ولكن باريس ليســـت مكانـــي الأول... كل ما أعرفه هو أن أهلاً وأصحاباً أعزاء وجيراناً يعيشـــون على أرضها وأن آخرين يرقدون تحت ترابها هنا، تماماً، كما على الضفة الشـــرقية للمتوسط وان لا قدرة لي على الابتعاد طويلا دون أن أجالســـهم أو أضع وردة، من وقت إلى آخر، على مرقدهم الأخير. ما اعرفه أنني رقم متسلســـل في سجلاتها وأنها هي السيدة التي تدير الدفة في شـــاني وشؤون كل من يتنشق هواها، أكان نسيماً عليلاً أم ريحاً صرصاراً. مـــا أعرفه أيضاً هو أن هذه المدينة العظيمة تُكَوّرُ ماؤها قطرة قطرة محتفظة بأســـرارها، الحلوة والمرة، لا تبوح بها إلا لمن تشاء ساعة تشاء.

(1) صاحب المقهى الأول هو إيطالي من مدينة باليرمو اسمه "بروكوبيو" افتتحه في 1689 وما زال المكان يحمل اسمه المفرنس حتى الآن.

(2) دونيز بارًا وزوجها كانا من أوائل المناضلين الذين دعموا استقلال الجزائر ووقفوا ضد حرب دولتهم عليها. كذلك وقفوا مع حركات التحرر في الهند الصينية ومدغشقر وفلسطين. كان منزلهما الباريسي مأوى لمناضلي جبهة التحرير الوطني الجزائرية وقد اعتقلت دونيز وكانت حاملاً لهذا السبب. في أواخر الثمانينيات أسست مع مناضلين آخرين جمعية للتضامن مع شعوب الجزائر والمغرب (SOLIDAM). عرفت هذه التفاصيل بعد مضي وقت طويل على جيرتنا من أصدقائنا فهي كانت جد متواضعة في الحديث عن نفسها.

الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب
إنسان
حر
الغريب

طوبى للغرباء فيها

هيثم مناع

هيثم مناع مناضل حقوقي وكاتب ومعارض سوري معروف في المهجر منذ سبعينيات القرن الماضي. مؤسس « اللجنة العربية لحقوق الإنسان » وقد شغل مواقع أساسية في المعارضة المدنية الديمقراطية في سورية منذ 18 آذار 2011. وقع أكثر من أربعين كتاباً أبرزها موسوعة « الإمعان في حقوق الإنسان » وأخيراً « خلافة داعش »... حاصل على دكتوراه في الأنتروبولوجيا، وفي الطب حاز اختصاصاً في المعالجة النفسية الجسدية واضطرابات النوم واليقظة. أسس في 2009 المعهد الاسكندنافي لحقوق الإنسان وقد عمل عشرين عاماً في مستشفى سال بتريار الشهير في الدائرة 13 من العاصمة الفرنسية.

لم يكن مشـــروع القدوم لباريس واضح المعالم، على جواز سفري اســـم مهندس عراقي، مطرود من الجامعة قبل نهاية دراستي الطبية، في حالة مراجعة فكرية وسياســـية شاملة، ورائي عائلة ممزقة بين الســـجن والملاحقة وأم تطالبني بأن «اذهب يا بني في أرض الله الواســـعة». في حقيبتي كتاب الغروندريسه ومقدمة ابن خلدون ودفاتر السجن لغرامشـــي، أما الباقي فبنطال واحد وقميصان وجرابان وحذاء أتعبته الأيـــام وكيلوغرام من الزعتر الحلبي الفاخر.

كمحطة فيروز، كانت باريس قطاراً بدون ســـكة، محرك الكترو مغناطيسي داخلي دون صفير أو شـــخير. معرض للصور الضبابية بينها واحدة أقل ضبابية وأكثـــر وضوحاً كلما اجتمعت مواصفات مدينة اختطاف المعارف. لذا كان المشـــهد الباريسي الأول في مجانية القراءة، القراءة دون جواز ســـفر أو بطاقة طالب. مركز بومبيدو الذي كنت أدخل إليه كجائع سُـــمِحَ له بدخول مطعمٍ بالمجان، أُمسك عشرة كتب أو أكثر، أشـــعر بحقي الإنساني في القراءة رغم كوني بدون احتياطي مالـــي، بدون راتب، بدون منحة، وبدون معالم طريق. وكلما تعب ذهني، أتصفـــح «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي بحثاً عن طرفة.

في الطريق إلى بومبيدو، استوقفني في يوم ربيعي تجمع عدد من عناصر الأمن للاحتجاج على قضية لم تسمح لي لغتي الفرنسية البدائية (بضع كلمات) بأن أفهمها، جلست بقربهم، فطلب مني أحدهم أن أبتعد، ابتعدت قليلاً وجلست على الرصيف أغازل جمع البوليس الذي يمارس حقه في الاحتجاج. أليست تظاهرة طلابية كهذه كانت سبباً لأن أتخفى أسابيع، ومنشور سري يطالب بحرية التجمع والتنظيم السبب في التحقيق مع أمي وأخي عن مكان اختبائي، ونشرة سرية وراء حملة اعتقالات شملت قرابة التسعين شخصاً؟

«فخ الإمبريالية»

لم تعش باريس هذه طويلاً، كان لا بد من مصدر للعيش، من عمل يسمح لي بالبقاء ولو أشهراً. لم تكن فكرة السنوات والمهجر الطويل بعد قابلة للتصديق. ولكن باريس هي فواتير آخر الشهر أيضا. في البال نقاش صديقي «أبو تمام» عن هجرة العقول واستغلال الغرب لطاقات الجنوب ليلة مغادرتي دمشق، وفي الطموح القدرة على العمل ليلاً والنضال نهاراً حتى لا أقع في فخ «الإمبريالية» هذا. احتاج الأمر عاماً قبل أن أنعم بعمل ليلي في مستشفى السالبتريير رسم لمدة 21 عاماً معالم علاقتي بالمدينة: ثلاث ليال مناوبات تبدأ في السابعة ليلاً وتنتهي في السابعة صباحا، يوم في المكتبة، ودروس في الجامعة حيث استطعت. خمس سنوات اكتشفُ الطب الفرنسي وعلم الأنثروبولوجيا ومخطوطات المكتبة الوطنية واللغة الفرنسية، خمس سنوات كانت باريس فيها وحسب، المشاركة في تظاهرة أو إعداد عريضة أو الدفاع عن المعتقلين أو شبه ندوات نحاول فيها نقل الصخب والعنف والفوضى شرقي المتوسط إلى باريس. كنت أسمع عن المناسبات الثقافية والفنية الفرنسية والدولية من التلفزيون الذي انحصر دوره بتقوية لغتي الفرنسية. أما نهر السين، رغم أنه يبعد مئتي متر عن المستشفى الذي أعمل فيه فكانت فرص رؤيته أقل من قليلة. المترو هو أكثر أصدقائي تواتراً في المدينة.

ونافذة مخبر النوم التي تطل على حي لم يلبث أن أصبح صينياً كما كانت تخبرني كاكتا، المشرفة الآسيوية على القسم التي أراها لدقائق عند وصولي إلى العمل، فتنقل لي بعض ما يحدث في المدينة والمستشفى.

- «لا أدري إلى متى سيستمر هذا النمط المستنفر، لدى هيثم شعور غير معلن بأنه وصل إلى باريس في لحظة غير مناسبة، هو الذي كان يبحث دائماً عن الأحداث ليعيشها، سمع بمرور الخميني من باريس

من الأصدقاء، سمع بمجزرة تدمر في باريس، يرى الحرب العراقية الإيرانية على شاشة التلفزيون، ويتابع حصار بيروت من المستشفى وفي تظاهرات التضامن. ربما كان يعوض هذا الغياب الفيزيائي عن المكان بالعمل ليلاً نهاراً من خارجه. لكن هل لديه خيار، كل أصحابه ومن في مثل وضعه هم في السجن أو ملاحقون، أقله بإمكانه أن يحتج ويقرأ ويكتب ويدافع عمن يستطيع من الضحايا، ولكن لا أدري إلى متى سيستمر في هذا النمط من الاستنفار الشامل».

لم تكن فيوليت داغر التي تعرفت إليها بعد عام من غربتي تعلم بأنني أسمع ما تقول لأحد الأصدقاء، فقد استيقظت وكنت من الإجهاد بحيث لم أتمكن من النهوض، وكانت تتحدث عبر الهاتف من الغرفة الثانية لتصف أربع سنوات من التعبئة. مرت القصة دون تعليق مني، كنت أعرف أن حالة الاستنفار هذه هي مصيري ومصير من يقترب مني، وأن الموقت هو الدائم كما أن الدائم مزروع في غياب أي استقرار لن أجده إلا في القبر حيث كما يقول الفيلم الموريتاني، يكون لدينا الوقت لكل الموت.

المدينة النائمة

باريس النائمة هي المدينة التي أحببت خلال أكثر من عقدين من الزمن، لأنها كانت هادئة تسمح لي بالتركيز والعمل المتواصل ساعات. فقد حولت القسم الذي أعمل به إلى مكتبة مجهزة بكل ما يحتاجه قارئ نهم وباحث صبور، والجميل في الأمر أن هذه المقايضة مع صحتي وحقي في النوم كانت مدفوعة الثمن مما يضمن لي استقلالاً مالياً يسمح لي بحرية الكلمة واستقلالية الموقف والقدرة على احتقار كل الخطوط الحمراء.

كان المستشفى نقطة التقاطع الأساسية مع باريس، والمرضى الجسر اليومي مع المدينة. هم من يحدثني عن ارتفاع نسبة مياه السين، مشروع بناء مدينة علمية، عرض مسرحي جديد، ولادة أو موت صحيفة،

بداية انعتاق الإعلام السمعي البصري من سيطرة الحكومة، صعود اليمين المتطرف. فباستثناء عيد العمال، كانت معظم التظاهرات التي أشارك فيها دفاعاً عن مظلومين خارج فرنسا أو ضد السياسة الفرنسية. وبالتالي لم أنتم إلى المنظومة الباريسية في لحظة من اللحظات، بل لم يكن عندي الدافع لقبول أي من العروض التي تلقيتها لانتفاء حسن الموقع فيها. كنت أشعر بأن التهميش الذي اخترته شرط للقدرة على إبصار الأوضاع بعين نقدية. لذا ولدت صحيفة مثل «اليوم السابع» وماتت ولم يكن لدي الفضول حتى لمعرفة أين كان مقرها. وقبل مرور السنوات العشر للمنفى لم أفكر في الكتابة لصحيفة عربية في أوروبا إلا إن كنت في تحريرها وثبت لي أنها على أهبة الاستعداد لحرية كاملة في التعبير. يمكن تسمية ذلك بعقدة الرقابة، تيمناً بعقدة أوديب، لكن الفضل يعود إلى عبد القادر الجنابي الذي عرفني إلى جورج حنين الذي أكد منذ 1968 أن الديمقراطية إن لم تكن قد أضحت قبل دخولها في القوانين المكتوبة أسلوباً وإرادة وجود، شكلاً للأخلاق العامة متجسدة في المسلك الجماعي، فإنها لا تمثل أكثر من عملية خداع سلطوية.

غياب هذا الكبرياء الديمقراطي عن معظم أدعياء الديمقراطية في ذاك الزمان رافقه غياب الفضول في تبادل أطراف الحديث مع الكثير من المثقفين العرب.

شيعت يوم السفر بطاقة الانتساب الحزبي، وصارت الجمعية والصحيفة سقف العمل الجماعي في رأسي، في باريس المكان والزمان واللحظة استوعبت فكرة السلطة المضادة، واستفدت كثيراً من الجو الباريسي لإدراك إمكانية الأمة المدنية التي اغتصبتها الخلافة الأموية. كنت على نقطة افتراقات لنهر السين في منتصف المدينة أتخيل سيناريو محاصرة منزل عثمان بن عفان عندما طرحت السؤال على نفسي: ماذا لو رفض الإمام علي بن أبي طالب الخلافة وبقي خارج السلطة؟ هل كانت السلطة هوساً جماعياً لكبريات الملل والنحل الإسلامية؟

كتبت المجتمع العربي الإسلامي من محمد إلى علي، في المرأة، وفي التنوير، لعدم اقتناعي بجدوى حركة ديمقراطية بدون ديمقراطيين. وبعد بيان من أجل مجتمع إنساني، بدأ التفكير في جماعة تطرح على نفسها مهمة بناء منظومة فكرية محددة الجوانب. منظومة عالمية المضمون، عربية الإطار، تؤسس لفكر حقوقي يسائل الذات والمحيط، يمتلك القدرة على الاستفسار الدائم عن الأصل والجذر والمبدأ، ويقرأ الأفكار والأوضاع والمؤسسات والأشخاص بعين نقدية. فكر حقوق الإنسان في مجتمعاتنا يختلف بهذا المعنى، عما يسميه فرانسيس بيران، مسؤول منظمة العفو السابق في فرنسا: «حزب حقوق الإنسان». بمعنى المنظار المراقب لبعض انتهاكات حقوق الإنسان والشاجب لها. كما يختلف عن الحقوق المدنية، بالمفهوم الأميركي، الرافضة للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. إنه عملية استقراء دائمة للأطروحات البشرية في نطاق الحقوق الإنسانية والبيئية، وقوة اقتراح وابتكار دائمة. بهذا المعنى منحتني باريس لقب الرمز غير النمطي لحركة حقوق الإنسان. لم يكن بالإمكان أن أكون كذلك من بيروت أو دمشق أو القاهرة، كنت بالضرورة سأحجم بالحدود الوطنية أو الإقليمية. في باريس ليس بوسع أحد أن يحرمك من لقب مواطن في هذا العالم، رغم كل العداوات والقذارات والمعارك الدنيئة التي يمكن أن يخوضها باحثون عن شبه مجدٍ بدون جهد أو تمويل رخيص أو سلطان تافه. لذا لا يمكن أن يقع الفارس الكبير بالضربة القاضية

حقوق الإنسان

في التسعينيات، وفي خضم نضالي الحقوقي الروتيني، أحسست بأن العالم الذي نصّب حقوق الإنسان ماركة إجبارية لكل بضاعة تدخل سوق الفكر والسياسة، هو نفسه الذي وضع هذه المفاهيم في حقل الشك والضبابية والتعارض. كما أنه هو نفسه الذي خلق أكبر تفاوت جماعي في التمتع بالحقوق، والذي جعل الإنسان في عالم يتبنى أقوى منظومة

للحماية في تاريخ البشر تتعايش مع أعلى قدر من الانتهاكات التي تمارس منهجياً بشكل انتقائي وتمييزي يثير الاشمئزاز. لكل هذا، ثمة قدرة على الفعل في هذا المشروع التاريخي غير المنجز المسمى بحقوق الإنسان. هنا اصطدمتُ مباشرة مع باريس السياسية التي ذهبت لحفر الباطن، وباريس الدبلوماسية التي قيدت نضالنا لمحكمة جنائية جديرة بالتسمية حول رواندا، وباريس الأمنية التي ذكرتني بأنني لاجئ سياسي عمره 17 عاماً ويمكن طرده في كل لحظة. لم أكن قبل هذا التاريخ أشعر بالانتماء إلى المدينة أو إلى فرنسا، ولكنني أيضاً لم أشعر بغربتي فيها، إلى اليوم الذي فرض وزير الداخلية تأشيرة خروج على أمثالي لكل سفرة. أحسست بأن طلب الجنسية صار ضرورياً لأن أسباب خروجي من بلادي تتكرر بشكل مأسوي. ومن مفارقات الحياة أن تكون لحظة طلب الجنسية الفرنسية اللحظة التي كنت فيها أبعد ما أكون عاطفياً عن باريس وفرنسا. لحظةٌ يمكنني فيها وصف تفاصيل مطاري أورلي وشارل ديغول أكثر من تضاريس الحي اللاتيني.

كنت في التسعينيات أشعر بأن قوى الظلامية الحديثة تقضم من إنجازات الحضارة الأوروبية يوماً بعد يوم ما يسمح لها بإعادة رسم خريطة الهيمنة على العالم. وأن المقاومة المدنية العالمية ترفض التراجع عن مكتسبات جوهرية. وأن مدينة باريس قد خسرت أصالتها الفكرية والنضالية مع صعود الصهاينة الجدد (عطفاً على المحافظين الجدد والليبراليين الجدد). جمع من الكتّاب أصبحت مهمتهم الترويج والتهريج لنمط الولايات المتحدة كونها الضمان الأكبر للمشاريع الإسرائيلية، رغم كل ما يترتب على هذا من خنوع فكري وثقافي لمدينة اعتادت ابتكار الشموع. والمؤلم أكثر وجود فصيلة «عرب الخدمات» الذين ينخفض عندهم سقف المطالب بدريهمات التمويل أو أشباه المناصب. أبعدني هذا الأمر أكثر عن المدينة، بل عن عدد كبير من موظفي حقوق الإنسان فيها. لم يكن بالإمكان الدفاع عن فكر وممارسة حقوق الإنسان دون مواجهة مراكز القوى ومجموعات

الضغط السائدة بشكل واضح والقدرة على تثبيت المواقف الكبيرة في اللحظات الصعبة. كما أن من المستحيل إقامة اللحمة بين الفكر النقدي وثقافة التغيير واحترام الكرامة والحقوق الإنسانية لكي تكون الأخيرة، بالضرورة، محاولة جادة لتخفيف البربرية في حياة البشر اليومية؟ أصبحت أشعر بالألم لعدم قدرة قياديين في منظمات دولية على طرح قضية إصلاح ودمقرطة الأمم المتحدة على بساط البحث خوفاً على مصالح مباشرة وغير مباشرة. أشعر بالوجع لارتهان شخصيات ومنظمات كنت أكن لها كبير الاحترام لبيروقراطيي المفوضية الأوروبية أو الخارجية الفرنسية ووزارات التعاون باسم الحس العملي الضروري. وعندما أبصرت قدرة التمويل على زعزعة منظمات فرنسية طوعية نضالية كبيرة، قررت الانسحاب بهدوء من أكثر من مركز عربي لحقوق الإنسان لاقتناعي بأن نيل مساعدات من خمس سفارات غربية لمركز صعلوك في بلد كمصر لن يكون بلا ثمنٍ مقابلٍ أولاً، ولن يصنع نهضة في الفكر أو ثورة في الممارسة أو ينتج أبحاثاً ودراسات خلاقة. فالتعاون بين الفضاء غير الحكومي ضروري وواجب، أما تمويل السفارات فيقع ضمن استراتيجية هيمنة وضغط على الوسطين الحكومي وغير الحكومي، أي تعزيز التبعية.

رغم كل كتاباتي النقدية عن العنصرية في أجهزة الأمن الفرنسية والفساد في قمة الطبقة السياسية ومطالبتي بالملاحقة القانونية لأكثر من مسؤول فرنسي، لم أستدع من قبل أي من أجهزة الأمن الفرنسية خلال 25 عاماً من وجودي في باريس. وفي حين جرى التحقيق معي في مطارات تونس والقاهرة وعمان عند زيارتي لهذه البلدان غير مرة، لم أطلب للتحقيق في فرع «بير حكيم» إلا مرة واحدة في 2003. في خضم ما سمي بالحرب على الإرهاب. كان هناك فكرة بأن علاقتي بالرئيس الفرنسي فرانسوا ميتيران جيدة، رغم أنني لم ألتقه في حياتي، بل أكثر من ذلك، رفضت دعوة للاجتماع به بعد حرب الخليج. وكانت معرفتي بالسيدة دانييل ميتيران رسمية ومحددة في نطاق الملفات الحقوقية. وأظن أن

السبب في عدم إزعاجي يعود إلى الشفافية المطلقة في مصادر عيشي المالية وعدم ارتباطي بأي دولة وكوني كنت متطوعاً في كل القضايا التي دافعت عنها ضد الحكومة الفرنسية وغيرها.

أعادت تكويني الذهني

لم أتعرف إلى امرأة باريسية ولم يكن لدي أي فضول لذلك، كذلك لا أدري إن كان ثمة وجبة طعام باريسية، أعرف معظم حدائق المدينة العامة وتعرفني لأنها تسمح لي بالقراءة في الهواء الطلق والمشي. ولكنني أحبذ القهوة في مكتبي الصغير لأنها شرقية وغالباً ما تحمل رائحة المحمصة. ولعل أجمل لحظات اكتشاف المدينة كانت بعد 26 عاماً عندما جاء والدي ووالدتي لزيارتي لأول مرة. شعرت بأن المدينة كريمة معهما، معطاء في معالمها وفي طبيعتها الخلابة وطقسها الاستثنائي الجميل. ورغم أن حمدي قنديل قد أصر على اختطافي ثلاثة أيام لقلم رصاص في دبي، إلا أنهم كانوا سعداء بالمدينة وسعداء بالزيارة. وشعرت بأن هذه المدينة قادرة على أن تمنح رونقها لمن يستحق إذا ما قصدها.

عندما أخبرني فيصل بأنه يريد الحديث عن المدينة كنت أعرف بأن من الصعب الإطالة لشخص غريب عنها غريب فيها غريب منها. لقد دخلت باريس عملية إعادة تكويني الذهني في الهجرة دون قصة حب أو قصة كراهية. أكتشف بعض معالمها عندما ألعب دور الدليل السياحي لقريب أو صديق، ثم أنساها أشهراً طويلة... ثم أستعيد صورة جميلة هنا وأخرى شاعرية هناك. لكن أليس من الغريب أن تكون زياراتي المتكررة للشانزيليزيه، دون استثناء واحد في عام 2009 من أجل الذهاب إلى محطة فضائية لبرنامج تلفزيوني؟ وأن أعلم بأخبار الإضرابات في المواصلات العامة لأنني مسافر من باريس... بعد 32 عاماً من الغربة، ثروتي لا تتجاوز مكتبتي وصداقاتي، ما زلت أحتقر التوفير والمال والملكية الخاصة وأعيش مياومة (يوماً بيوم). سمحت لي هذه المدينة بمتابعة كل ما أرغب فيه من دروس وما أطلب من كتب. ما هو جميل في هذه المدينة، أنها رغم

كل حالات الضياع التي تجسدها المدن المعولمة، جذبتني بعد ابتعاد بدراجاتها العامة، ولم تمنعني من أداء واجبي في الدفاع عن الكرامة الإنسانية طوال ما ينوف عن العقود الثلاثة الماضية.

المحتويات

بداية الشفاء مع زهرة الحرية 13

سعودية في عاصمة الأمل والألم! 25

قناعي الفرعوني في متحف اللوفر 39

مازلت أرى عينيك في أرجائها 51

كأنها خبأت في ليلها نجمة 81

لم تسكني بعد... احبها فقط 99

استتبعتني فصرت فخوراً بهويتي العربية وصارت جديرة... بـ«قُدَّاس» 109

باريس بأقلام العرب 133

من شرفة المقهى: مدينةٌ تصدح بتراتيل الحب والتاريخ 175

مقدسية في الحي اللاتيني 195

تضاريس العلاقة الملتبسة 215

عن قارئة في كتبها 239

طوبى للغرباء فيها 257

ينطوي هذا الكتاب على 13 نصاً لمثقفين وإعلاميين عرباً عاشوا أو يعيشون في باريس من مختلف الأعمار والانتماءات الفكرية والسياسية، ويحتفظون بتجارب عديدة في المدينة وحولها جديرة بأن تنشر وتعمم كشهادات متصلة بالقسم الأخير من الألفية الثانية ومطلع الألفية الثالثة. وتندرج هذه الشهادات في سياق عربي متقطع أسهم فيه رفاعة الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده وطه حسين وتوفيق الحكيم ونزار قباني ومحمود درويش وغادة السمان وكثر غيرهم. ولعل تنوعها يفيد في رسم وجوه باريس المختلفة ومصائر عربها.

الكتاب المشاركون

المنصف المرزوقي - إيمان الحمود - جمال الغيطاني
سامي كليب - طراد حمادة - عمار مرياش - فيصل جلول
قيس خزعل جواد العزاوي - لويزة ناظور - مارال أمين قطينة
محمد حافظ يعقوب - نايلة ناصر - هيثم مناع

ISBN 978-614-432-518-6
9 786144 325186